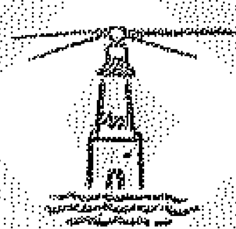
دكتور عامر النجار

الطرق الصوفية في مصر

نشأتها ونظمها وروادها

الرفاعى - الجيلانى - البدوى - الشاذلى - الدسوقى



دار المعارف



الطرق الصوفية في مصر

نشأتها ونظمها وروادها

الرفاعي - الجيلاني - البدوي - الشاذلي - الدسوقي

دكتور عامر النجار

الطبعة الخامسة



دار المعارف

إهـــداء

إلى كل المعانى السامية.

إلى الحب النورانى الخالص.

إلى السيدة العظيمة الصادقة الكريمة

والدتى الحبيبة.

ابنك «عامر النجار»

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

موضوع الطرق الصوفية من الموضوعات الهامة التى تشغل بال كثير من الناس فى مصر وغيرها من البلاد الإسلامية والعربية.

ويثار، من حين لآخر، جدل عنيف حول الطرق الصوفية. وهذا الكتاب يجيب عن كثير من الأسئلة حول حقيقة الطرق الصوفية، كما يلقى الضوء على تاريخ نشأتها، ويستعرض نظمها وخصائصها، ويوضح دور صوفية المغرب والعراق فى حركة الطرق الصوفية فى مصر، وأيضًا يبين نشاط الطرق الصوفية وآثارها.

وبعد.. فلا زالت كلمات العماد الأصفهانى أسمع صداها فى أذنى: «إنى رأيت أنه لا يكتب أحد كتابا فى يومه إلا قال فى غده لو غير هذا لكان أحسن، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر».

هذا وبالله التوفيق والسداد.

د. عامر النجار

الفصل الأول

فى التصوف والطرق الصوفية بين خصومها وأنصارها(١)

قال تعالى: ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته، ثم يهيج فتراه مصفرًا، ثم يكون حطامًا، وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾(٢).

وقال أيضا فى كتابه العظيم: ﴿يأيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾(٣).

وقال: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم﴾(٤).

وقال: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾(٥).

وقال فى حديثه القدسى: «من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلىّ من أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه، وما ترددت فى شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته».

---

(١) تعود بعض الباحثين إن لم يكن معظمهم، أن يبدءوا كتاباتهم فى التصوف بذكر أصل كلمة تصوف ومعناها من خلال «الرسالة القشيرية» و«اللمع» و«قوت القلوب» و«كشف المحجوب». ثم يناقشوا مصادر التصوف الإسلامى، فيستعرضوا آراء المستشرقين وغيرهم حول مصادر هندية وفارسية وهلينية ومسيحية ويهودية...

ونحن نرى أن هذه المحاولات لرد التصوف الإسلامى إلى أصول غريبة عنه محاولات تبعد عن الموضوعية، كما سنبين ذلك فى حينه، وسيكون من قبيل التكرار الذى أصبح ظاهرة دائرية أن نتكلم عن أصل كلمة صوفى عند القشيرى والطوسى وأبى طالب المكى والهجويرى... أو أن نستعرض آراء المستشرقين وتلاميذهم – وتظهر فى معظمها العصبية – حول مصادر التصوف الإسلامى الذى نرى أن مصادره إسلامية.

(٢) الآية ٢٠ من سورة الحديد.

(٣) الآية ٥ من سورة فاطر.

(٤) الآية ٢٨ من سورة الكهف.

(٥) الآية ٦٢ من سورة يونس.

وروت عائشة فيما رواه البخارى ومسلم: «أن النبى ﷺ كان يقوم الليل حتى تنفطر قدماه، فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا».

إننى لا أنصب نفسى مدافعا عن التصوف الإسلامى والصوفية.. فلست صوفيًا لأن قدرى ضئيل جدًا بالنسبة لهم.. ولست مريدا أو شيخا حتى أجاملهم على حساب الموضوعية، وإنما أنا باحث عن الحقيقة فى هذا الموضوع.

وأود أن أقول: إن هؤلاء الأساتذة الأفاضل لم يتأنوا فبحثوا عن مصادر أجنبية، وردوا إليها التصوف الإسلامى، ولو أنهم بحثوا بتأن أكثر بعيدا عن نزعات وأهواء واتجاهات عصبية لتلمسوا أصول التصوف الأولى فى القرآن نفسه، وسنة نبى الله ﷺ، وكان واجبهم ألا ينسوا أبدا أن النبى ﷺ يعد الرائد الأول للتصوف الإسلامى بحق، وأننا نلمس تصوفه فى تحنثه فى غار حراء: «أليست حياة محمد هنا بما فيها من تحنث وخلوة واكتفاء بالقليل من الزاد صورة أولى للحياة التى كان يحياها الزهاد والعباد والصوفية بعد ذلك، ويخضعون فيها أنفسهم لرياضات، ومجاهدات يختلف فيها على أنفسهم أذواق ومواجيد، وكلها عندهم سبيل إلى كشف الحقيقة؟.. أليس هذا التأمل الذى كان يمعن فيه محمد ﷺ، ويغيب فيه عن كل شىء حتى عن نفسه أساسا لهذه الأذواق والمواجيد الصوفية، ولما يعرض فيها لسالك طريق الله من غيبة وسكر ومحو وفناء»(٦).

وقد ذكر صاحب الحياة الروحية فى الإسلام فى كتابه حديثًا لم أجد له أصلا فى كتب السنة الصحيحة(٧).

إن مصدر التصوف الإسلامى القرآن الكريم، وسنة الرسول الكريم «فكل آية تذكر الفكر أو الذكر، أو الاستقامة أو الذاكرين أو المستغفرين أو العابدين، أو الموقنين أو المتبتلين، أو عباد الله المخلصين، أو أولى الألباب، وكل آية تصف الخوف أو الرجاء أو البشرى أو الاستقامة أو الإيمان، أو المعرفة أوالصبر، أو الرضا أو التوكل، أو الحب أو التوحيد الحق. آية*.. وأقواله ﷺ، تشريع وتعليم، وثمرة أعماله إيمان ويقين، وذلك طريقه العملى، وهو أصل طريق القوم. أما أحواله ﷺ، فمعرفة وتحقيق على قاعدة أن الأقوال وهى العلم تنتج الأعمال وهى الطاعات والعبادات، والعبودية لله فى العبادات والمعاملات تثمر الأحوال الشريفة فيما بينه وبين الله من أسرار، كاتصافه بأخلاق الحق

---

(٦) الحياة الروحية فى الإسلام للأستاذ الدكتور مصطفى حلمى ص ١٥.

(٧) روى عن النبى ﷺ: «أنه عرضت له حالة من تلك الحالات النفسية التى تشبه الوجد، وما يحصل فى الوجد من غيبة الإنسان عن نفسه وعما يحيط به.. وحدث أن دخلت عائشة زوج النبى وهو فى تلك الحالة، فلما رآها سألها من أنت؟ فأجابته قائلة. أنا عائشة فسألها النبى ثانية. من عائشة؟ فأجابته بقولها: ابنة الصديق.. ولكن النبى ﷺ عاد فتساءل مرة أخرى: ومن الصديق؟ فكان الجواب هو محمد ﷺ. ولكن عندما سألها النبى بقوله: من محمد؟ لزمت الصمت. لأنها علمت عندئذ أن النبى لم يكن فى حالة عادية»

* أختلف مع الأستاذ أبو العيص فى هذا الرأى. والأقرب هو القول بأن هذه الألفاظ فى إطار التصوف ذات نكهة ودلالة خاصة

وشهوده، وذلك ما يفسره حديث جبريل عليه السلام وسؤاله: ما الإيمان وما الإحسان، أو قل الشريعة والحقيقة»[٨].

ومرة أخرى أسأل مخلصًا هؤلاء الأساتذة الأفاضل الذين حاولوا أن يردوا التصوف الإسلامى إلى مصادر أجنبية مختلفة... لماذا لم يحاولوا من ناحية أخرى أن ينظروا إلى الجانب المقابل، فيبحثوا مثلا عن مدى أثر التصوف الإسلامى فى بيئات ومجتمعات مختلفة.

والحق أن حركة التأثير والتأثر شاعت فى القرن التاسع عشر الميلادى، حيث حاول بعض المفكرين والمستشرقين أن يردّوا كل ما هو إسلامى أو عربى إلى أصول غريبة عنه.

ومن الغريب أن بعض المفكرين المسلمين سار منحى أساتذته من مستشرقين وغيرهم من أصحاب مدرسة التأثير والتأثر.

لكننا نؤكد أن جذور التصوف الإسلامى كما قلنا موجودة فى الإسلام نفسه، ومن هنا فنحن نرى أن حركة تغريب التصوف الإسلامى برده إلى مصادر غريبة عنه، حركة تبعد الفكر الإسلامى عن مصادره الأصيلة.

الهجوم على التصوف والطرق الصوفية:

وإذا ما انتقلنا إلى فكرة أخرى وهى مسألة الهجوم على التصوف والطرق الصوفية نستطيع أن نقول:

إن الذين هاجموا التصوف والطرق الصوفية نظروا إلى القشور، وتركوا اللب.. نظروا إلى ما يفعله بعض الجهلة من المريدين والمتكسبين من الانتساب للطرق من أمور لا يرضى عنها الإسلام.

ولا يضر التصوف والطرق الصوفية ظهور هذه الفئة من المتواكلين والدجالين والمشعوذين والبلهاء، الذين يتكسبون -من وراء لبس الخرق والهلاهيل، والانتساب للطريق، فليس ذكر الله بهذه الصورة البشعة التى يذكر بها الدراويش والمجذوبون من الطريق فى شىء.

وليس من التصوف ولا من الطريق إقامة هذه الأضرحة العظيمة لشيوخ الطرق، وتقديس مريديهم لها، وتوسلهم بهذه الأجساد الطاهرة الراقدة تحت الثرى..

أما الطريق ففكرته طيبة وضيئة.. الطريق عهد بين المريد والشيخ على أن يتوب عن المعاصى أبدًا، وألا يرتكب صغيرة أو كبيرة، وأن يكون طاهر الجسد والروح معًا، وأن يقيم شعائر الله وسنن رسوله، وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأن يذكر الله كثيرًا ويتوب إليه. وماذا.. بعد هذا؟... ماذا بعد أن ترى إنسانًا تائبًا طهورًا يقيم شعائر الإسلام ولا يكذب أبدًا.

ماذا لو رأيت إنسانًا يطبق ما يدعو إليه شيخه وهو التوبة، والعمل بالكتاب وبالسنة «إنك إذا

---

(٨) كتاب بداية الطريق إلى مناهج التحقيق للسيد محمود أبو الفيض المنوفى.

وجدته: تراه من أكرم الناس فى الأخلاق وفى العشرة، وترى الأدب منه يفيض على لسانه وجوارحه وحركاته وسكناته، فيصونه أدبه عن مظان السوء، وسواقط الأخلاق، وتافه الأعمال.. إنك إذا وجدته ترى الظاهر منه كالباطن، فنفسه فى صفاء، وقلبه فى نقاء، وقلبه صادق، وأعماله خالصة من إرادات النفس، ومن شوائب الحظوظ يخفض الجناح، ويسهل الصعب، ويهون الشديد»[٩].

وإذا كان بعض ما تراه اليوم من بعض المنتسبين للطريق ظلمًا وبهتانًا يحسب على الطريق، فالحق أننا لا نكون منصفين إذا حسبنا مثل هؤلاء البلهاء ذوى الأثمال البالية من الطريق أو على الطرق، ذلك أن الصوفى الحق، والمريد الصادق، إذا رأيته «تراه فى صبر وعلى يقين، فلا يستفزه المبطلون، ولا يستخفه الذين لا يوقنون. فهو مع الله بلا خلق، ومع الخلق بلا نفس، ولا ينتظر من الخَلْق حمدًا باللسان، ولا منزلة فى القلب، ولا يبغى من أحد جزاء ولا شكورًا، ولا منزلة ولا جاهًا، فكل الخلق فى نظره هم وأصحاب القبور سواء، لا يملكون ولا يقدرون»[١٠].

وحقيقة «أننا إذا عاشرنا المتصوفة فى جميع بقاعهم وعصورهم ودياناتهم، وجدنا وحدة الطابع لموقفهم من الحياة والإنسان – هذا على خلاف فى التفصيلات التى اصطبغت باللون المحلى للعقيدة أو المذهب أو الحضارة، ولوجدنا أنهم دعاة أمن وسلام ومحبة، لا يعميهم التعصب، ولا يحجرهم الجمود، ولا يتأبى عليهم تذوق الجمال، ولا تنقصهم الشجاعة وإنكار الذات، ولا تقصر ملكات التفكير فيهم، ولا يفزعهم ما يفزع أغلب الناس. وما أربح الأمة إذا استطاعت أن تستمد من هذه الينابيع طاقاتها الروحية التى هى نماذج حية، وترجمة واقعية للب الدين وجوهره»[١١].

حقيقة أن بعض الصوفية أنفسهم أساءوا للطريق إساءة بالغة مثل كتب الطبقات المليئة بالمغالطات والأساطير العجيبة، حول قدرة العارفين وكراماتهم[١٢]، لكن ذلك لا يجعلنا نسىء إلى كل المتصوفة، ونشوه صورتهم الوضيئة.

وكتّاب المناقب أشاعوا فى كل مكان أن المتصرفين فى الكون أربعة أقطاب . فها هو ذا مثلا صاحب كتاب قلائد الجواهر يقول: «انعقد الإجماع من جماهير الأشياخ من الفقهاء والفقراء، وتضمنت الكتب المدونة أن أصحاب التصريف التام من السادة القادة الأولياء، فى حياتهم وفى قبورهم بعد وفاتهم، كتصرف الأحياء إلى يوم القيامة، بتخصيص من الله تعالى لهم، وهم: الشيخ عبد القادر الجيلى، والشيخ معروف الكرخى، والشيخ عقيل المنجى، والشيخ حياة بن قيس الحرانى. وأن السادة البررة أربعة أيضًا، الذين يبرئون الأكمه والأبرص ويحيون الموتى بإذن الله تعالى، وهم: الشيخ الجيلانى، والشيخ أحمد. والتوانى أربعة: مسلم بن نعمة السروجى، والشيخ حماد بن مسلم الدباس، والشيخ أبو الوفا

---

(٩) كتاب أدب العبودية للأستاذ محمد مصطفى عبد الرحمن ص ٣٨.

(١٠) نفس المرجع ص ٣٨

(١١) التصوف طريقًا ومذهبًا للأستاذ الدكتور محمد كمال جعفر ص ١٦.

(١٢) لست من الغلاة الذين ينكرون الكرامات.. وسأبين رأيى فى الكرامة فى موضعه المناسب من هذا الكتاب

محمد كاكيس، والشيخ عدى بن مسافر[١٣].

وأظن أن مثل هذه الكتابات التى سيطرت على عقول العامة من مريدى الطرق الصوفية، كان لها أبلغ الأثر فى أخذ أفكار مشوهة عن الطريق وأصحاب الطرق الصوفية.

ومن الغريب أن كل كتب المناقب تسير على هذا النهج.

وحين تتحدث عن قطب من أقطاب الطريق تصوره بصورة بعيدة كل البُعد عن التفكير الإسلامى الصحيح.

والطوسى فى تحليل دقيق يذكر السبب فى خطأ بعض الصوفية، فيقول: إنه نظر إلى الفرق التى غلطت فوجدهم ثلاث طبقات:

١ - طبقة أخطأت فى الأصول، لعدم دراستهم أحكام الشريعة وأصولها الغراء.

٢ - أما الطبقة الثانية فإنهم أخطئوا فى فروع التصوف، وهى الآداب والأخلاق، والمقامات والأحوال، والأفعال والأقوال، والسبب فى ذلك راجع إلى متابعتهم لحظوظ النفوس، ومزاج الطبع، لأنهم لم يدنوا ممن يروضهم ويجرعهم المرارات، ويؤمنهم على المنهج الذى يؤديهم إلى مطلوبهم.

٣ - أما الطبقة الثالثة، فكان غلطهم فيما غلطوا فيه زلة وهفوة، لا علة وجفوة، فإذا تبين ذلك عادوا إلى مكارم الأخلاق، ومعالى الأمور، فسدُّوا الخلل، وأذعنوا للحق، وأقروا بالعجز، فعادوا إلى الأحوال الرضية[١٤].

ابن تيمية ومهاجمته للتصوف:

من بين المفكرين المسلمين العظام، الذين عرفوا بمهاجمة التصوف والصوفية، الإمام أحمد بن تيمية رضى الله عنه.

وقد أختلف مع الإمام ابن تيمية فى بعض النقاط، ومع ذلك فنحن نقدر فيه جهوده الفكرية الأصيلة وجهاده الإسلامى الرائع.

وقد هاجم الإمام العظيم ابن تيمية الصوفية فى قولهم: إن طاعتهم لله، وعبادتهم وحبهم الشديد له، طريق للعلم والكشف والمعرفة والإلهام.

ويبدو أن شدة غضب الأستاذ ابن تيمية على الصوفية، جعلته ينسى قول الله تعالى: ﴿وعلمناه من لدنا علماً﴾* وقوله: ﴿إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾** وقوله: ﴿قال الذى عنده علم من

(١٣) قلائد الجواهر للشيخ محمد التادفى ص ٤٧.

(١٤) اللمع للطوسى ص ٥١٨ بتصرف

* سورة الكهف الآية ٦٥.

** سورة الأنفال الآية ٢٩.

الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾* وقول الرسول ﷺ: «من عمل بما علم أورثه الله علم ما لا يعلم».

ثم لا ننسى أن هذا العلم اللدنى والإلهام، مشروط بشرائط من الكتاب والسنة، حتى أن الإمام الشاذلى قال: «إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسَّك بالكتاب والسنة، ودع الكشف وقل لنفسك، إن الله تعالى ضمن لى العصمة فى الكتاب والسنة، ولم يضمنها فى جانب الكشف والإلهام»(١٥).

وهاجم الإمام الجليل ابن تيمية الصوفية فى حبهم أولياء الله وتقديرهم لهم، واحتفالهم بموالدهم، ولا غبار فى حب المسلمين لأتقياء الله وأوليائه، لكننا نرى أن بعض الأتباع قد غالوا فى حبهم لشيوخهم بطريقة تبعدهم عن تعاليم الدين الحنيف، فمنهم من يقبل الأضرحة والعتبات، ومنهم من يتمسح بالأحجار، ويعتقد أن وليه قادر على تحقيق مطالبه ورغباته. ثم لا ننسى ما يحدث فى الموالد.

وهاجم ابن تيمية المتصوفة فى حرصهم على أورادهم وأذكارهم.

وذكر الله مطلوب فى كل وقت، فقد قال تعالى: ﴿فاذكرونى أذكركم﴾** وقال: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ وقال: ﴿استغفروا ربكم إنه كان غفارًا. يرسل السماء عليكم مدرارا. ويُمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارًا﴾***.

لكن الحق يقال إن ذكر الله بهذه الصورة التى نراها فى الموالد، وفى بعض حضرات أهل الطريق تسىء كثيرًا للطرق وتشوه جمال الطريق(١٦).

وهاجمهم فى زهدهم، وقال: إنه يدعو إلى الضعف فى الحياة، مع أن الزهد ارتفاع عن ماديات الحياة والجسد، وسمو بالإنسان وقيمه.

ونلاحظ أنه «لم تقتصر إدانة التصوف على أصحاب النزعة السلفية، وإنما شملت مجددين يمكن اعتبار أكثرهم منتسبين إلى مذاهب كانت ولا زالت لا تتهم التصوف، إن لم تكن متعاطفة معه، كالمذهب الأشعرى، مذهب الخلف من أهل السنة، الذى يدين به جمهور كبير من المسلمين، من هؤلاء المجددين جمال الدين الأفغانى (ت ١٣١٤ هـ - ١٨٩٧ م) فقد اعتبر التصوف مسئولاً عن شيوع روح التواكل بين المسلمين، واعتقادهم الجبر باسم القضاء والقدر(١٧)، وأنهم يتخذون الإيمان بالقضاء والقدر سبيلاً إلى القعود عن طلب الرزق، إن الإيمان بالقدرة الإلهية ليس حائلاً دون حرية إرادة الإنسان، إن الإيمان بالقضاء هو الذى مكن المسلمين الأوائل من الفتوحات.. إن هؤلاء الذين

---

* سورة النمل الآية ٤٠.

(١٥) طبقات الشاذلية الكبرى ص ٢٠.

** سورة البقرة الآية ١٥٢.

*** سورة نوح الآيات ١٠ - ١٢.

(١٦) سنتناول الذكر فى موضعه المناسب من هذا الكتاب

(١٧) بحث الدكتور أحمد صبحى بعنوان التصوف: إيجابياته وسلبياته بمجلة عالم الفكر الكويتية ص ٣٣٥، ٣٣٦ عدد يوليو - أغسطس سبتمبر ١٩٧٥.

لا يفهمون من التوكل إلا معنى التواكل يجب إزالتهم، وتنقية الهيئة الاجتماعية من دونهم، لأن آراءهم ليست على وفاق مع الدين(١٨).

وهذا خطأ فى فهم الطريق، فالطريق لا يدعو إلى التواكل وإنما إلى التوكل على الخالق الرازق، فالسير فى الطريق لا ينافى الكسب «اعلم أنه لا يتعين على الإنسان إذا أراد الدخول فى طريق الله أن يخرج من ماله إن كان له مال، أو يترك حرفته وتجارته إن كان محترفًا أو متجرًا، بل الذى ينبغى عليه تقوى الله فيما هو فيه، والإجمال فى الطلب، بحيث لا يترك فريضة ولا نافلة، ولا يقع فى محرم ولا فضول لا تصلح الاستعانة به فى طريق الله»(١٩).

إن الذى شوه طريق القوم، هؤلاء الدخلاء من ذوى الأثمال الهرئة، الذين وجدوا أنفسهم يعيشون من خلال انتمائهم الكاذب للطريق، والطريق منهم براء. فأصحاب الطريق، أعز الخلائق نفسًا، وأنورهم قلوبًا، وأغناهم به غنى، وأطيبهم عيشًا، حزنهم فيما يسر به الناس، وسرورهم فيما يحزن له الناس، وطلبهم لما يهرب منه الناس، وهربهم مما يرغب فيه غيرهم من أهل الغفلة والغيرة، يستأنسون إذا استوحش الناس، إذ كان أنسهم بالله جل وعز وحده استكمالاً لمناجاته، فعنده يضعون بثوثهم، وإليه يضرعون فى حوائجهم، قد اتخذوه حرزًا وجنة وكهفًا(٢٠).

ويقول الدكتور جعفر(٢١): وإذا كان هناك من يظن أن التصوف يحتوى على أحلام لا غناء فيها ولا نفع، أو أنه عبارة عن تمتع عاطل وأنانى بتجارب غريبة، دون أن يكون له أى أثر قيم فى الحياة - إذا كان هناك من يظن ذلك - فإن هناك باحثين جادين، سجلوا تقديرهم العميق للجهد الروحى الذى بذله هؤلاء فى تصحيح سلوكهم، وتغيير أنفسهم، يقول بعضهم عن التصوف(٢٢): إنه الشهادة العامة، والبرهان الكلى والجمعى لهؤلاء الذين يعرفون حقًا أن تجربة الصوفية تحول الحياة الإنسانية، وتغير الشخصية غالبًا مما هو دنىء وأنانى، إلى ما هو نبيل ونزيه.

وهذا ولا شك يبرز الجانب الأخلاقى فى التصوف بصورة عامة.

ومن جانب آخر نجد أن الصوفى الحق يطغى عليه الجانب الروحى، فيستطيع أن يترك ماديات الكون، بل وأن «يخترق حدودها».

وقد اتهم الأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحمن الوكيل الصوفية، بعدم جهادهم الحاكم أو أعداء البلاد، —

---

(١٨) نقلًا من الأستاذ الدكتور صبحى عن الأعمال الكاملة للأفغانى ص ٢٩٧ جمع محمد عمارة نقلًا من كتاب خاطرات جمال الدين الأفغانى طبعة دار الكاتب العربى.

(١٩) رسالة آداب سلوك المريد للحداد ص ٢٢.

(٢٠) الرعاية لحقوق الله للمحاسبى ص ٢٨ تحقيق الأمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود والأستاذ طه عبد الباقى سرور.

(٢١) التصوف طريقًا ومنهجًا للدكتور محمد كمال جعفر ص ١٩. tace Walter trence.

(٢٢) يقصد الدكتور جعفر: Ha ppold. Mysticism p. 35.

فيقول فى كتابه: هذه هى الصوفية «أرونى صوفيًّا واحدًا جاهد الاستعمار أو كافحه، أو دعا إلى ذلك»[٢٣].

وفى هامش نفس الصفحة يقول، نقلاً عن عمر فروخ فى كتابه: الإسلام والتصوف: «.. إن ابن عربى وابن الفارض الزعيمان الصوفيان الكبيران عاشا فى عهد الحروب الصليبية، فلم نسمع عن واحد منهما أنه شارك فى قتال، أو دعا إلى قتال، أو سجل فى شِعْره أو نثره آهة حَسْرى على الفواجع التى نزلت بالمسلمين»[٢٤].

وهذا خطأ وقع فيه أستاذنا الفاضل الشيخ عبد الرحمن الوكيل ومن قبله الدكتور فروخ، فقد كتب محيى الدين بن عربى للملك الكامل، حين تهاون فى قتال الصليبيين وقال له: «إنك دنىء الهمة، والإسلام لن يعترف بأمثالك، فانهض للقتال أو نقاتلك كما تقاتلهم».

ثم يقول فضيلة الشيخ الوكيل: وهو من المعروفين باتجاههم الواضح نحو الهجوم على التصوف والصوفية - يقول عن الإمام الكبير أبى حامد الغزالى: «سقط بيت المقدس فى يد الصليبيين عام ٤٩٣ هـ والغزالى الزعيم الصوفى الكبير على قيد الحياة، فلم يحرك منه هذا الحادث الجلل شعورًا واحدًا، ولم يجر قلمه بشىء ما عنه فى كتبه، لقد عاش الغزالى بعد ذلك ١٣ عامًا إذ مات (سنة ٥٠٥ هـ) فما ذرف دمعة واحدة، ولا استنهض همة مسلم، ليذود عن الكعبة الأولى»[٢٥].

ولكننا نقول للأستاذ الشيخ عبد الرحمن الوكيل: لقد حدث فى هذه الآونة حادث آخر جلل، فالفردوس المفقود الأندلس يكيل لها أعداء الإسلام أقصى ضربات وأشدها سحقًا، فيكتب الغزالى إلى ابن تاشفين ملك المغرب يستنهضه ويقول له فى عنف المؤمن الذى لا يعرف فى الحق لومة لائم: إما أن تحمل سيفك فى سبيل الله، وإما أن تعتزل إمارة المسلمين حتى ينهض بحقهم سواك.

لقد قال الغزالى هذه الكلمات المجلجلة التى وعتها أذن التاريخ وحفظتها الأجيال.

وفى القرن السابع الهجرى قال محيى الدين بن عربى الكلمة الخالدة للملك الكامل التى مرت بنا: إنك دنىء الهمة والإسلام لن يعترف بأمثالك..

أما الشىء الجديد الذى أرغب فى أن نعلمه ونعيه جيدًا، أنه قبل قيام الثورة الفرنسية بثلاث سنوات هنا فى مصر ولأول مرة، أعلنت حقوق الإنسان على يد صوفى كبير هو الإمام الدردير: «فلقد قاد الثورة الوطنية على الأمراء المماليك التى اشتعل لهيبها فى عام ١٢٠٠ هـ - ١٧٨٦ م الإمام الدردير الصوفى، والتى أعلنت فيها لأول مرة حقوق الإنسان قبل الثورة الفرنسية بثلاث سنوات. وكان من نتائج هذه الثورة المباركة، اعتراف المماليك بأن الأمة مصدر السلطات، وبعدم فرض ضرائب جديدة إلا برأى الشعب، واعترافهم الكامل بحرية الأمة وكرامتها»[٢٦].

(٢٣) هذه هى الصوفية للأستاذ عبد الرحمن الوكيل ص ١٧٠.

(٢٤) هامش كتاب هذه هى الصوفية للأستاذ عبد الرحمن الوكيل ص ١٧٠

(٢٥) هامش ص ١٧٠ من نفس الكتاب.

(٢٦) كتاب مكانة التصوف للأستاذ عيد الشافعى ص ١٦٧.

وبينما يهاجم بعض أجلائنا من العلماء التصوف بكل ما عندهم من عنف، نرى صوتًا منصفًا يرتفع ويقول: «يسجل التاريخ لبعض الصوفية المسلمين مواقف لا تنقصها الشجاعة إزاء نصح الحاكم ورده عن ظلمه فى عزة مدهشة، قل أن توجد فى مثل هذا العصر. وقد كان اتصال أغلب المتصوفة بالقاعدة الشعبية أوثق منه بالقمة فكانوا أعرف الناس بآلام الناس، وأدى بعضهم دوره الاشتراكى الإنسانى فى مجال المواساة والإسعاف والإنصاف والإرشاد، ولم يقبل ويحجم إلا المتصوف ذو المزاج المريض»(٢٧).

التصوف.. وعلم النفس:

إن الصوفى الحق إنسان سوى حر، قرر باقتناع وإرادة حرة، أن يسير فى الطريق وله هدف واضح، أن يفر بنفسه ويهاجر إلى ربه، فهو غايته ومنتهاه.

والإنسان الذى يقرر بمحض إرادته أن يسلك طريقًا معينًا، ومسلكًا وعْرًا يحتاج إلى كل البطولة والفداء والإرادة النفسية القوية، ولهذا ينبغى أن يكون إنسانًا سويًّا، وليس من ذوى الأمزجة المتقلبة المريضة على ما يفسر علماء النفس، فمن الملاحظ أن كثيرين من علماء النفس الذين درسوا الظواهر النفسية للتصوف دراسة علمية، لم ينصفوا الصوفية.. ولعل هذا راجع إلى بعض الأخطاء المنهجية فى الدراسة، فهم كانوا يحصرون أنفسهم فى دائرة التجربة الحسية وحدها، ولم يدققوا فى فهم مصطلحات الصوفية التى عبروا بها عن أحوال وجدانية ذاتية خاصة لا تتصف بصفة العمومية(٢٨).

ويقول الدكتور التفتازانى: إن الباحث لكى يحكم على هذا النوع من الصوفية حكمًا علميًّا، فلابد له أن يقوم بتجربته، أو يكون لديه استعداد معين لتذوقه.

أما أن يصطنع علماء النفس فى بعض الأحيان منهج المماثلة فى دراسة حالات الوصف، فهذا هو الخطأ بعينه، لتعذر مماثلتهم للصوفى فى الحالات الوجدانية الخاصة مماثلة حقيقية، وهم ليسوا بصوفية. أضف إلى ذلك أن أولئك العلماء لا يدرسون صوفية موجودين مثلًا، وإنما يكتفون بتحليل ما خلفه الصوفية القدامى من آثار أدبية، وهذا يعنى أن دراساتهم ليست دراسات تجريبية بمعنى الكلمة(٢٩).

ويرى المغفور له الإمام الدكتور عبد الحليم محمود أن علم النفس وعلم الاجتماع، قد أخفقا إخفاقًا كاملًا فى الوصول إلى كنه التصوف وحقيقته، بل إن الدراسات النفسية الحديثة، والدراسات الاجتماعية المعاصرة، أفسدت الفكرة عن التصوف إفسادًا تامًّا، شأنها فى ذلك شأنها فى كل ما اتصلت به من الدراسات التى تتصل بالروح، وبالوحى وبالإلهام السماوى، وبالدين على وجه العموم.. إن الدراسات النفسية والاجتماعية الحديثة، حددت نفسها بالمادة، وتقيدت بالظواهر المادية المحسة الملموسة: المرئية أو المسموعة، أو المذوقة مذاقًا حسيًّا، أو المشمومة. وهى تعترف اعترافًا صريحًا لا لبس فيه أن مجالها إنما هو المجال المادى، وأن كل ما خرج عن المجال المادى فإنه لا يدخل تحت

---

(٢٧) كتاب التصوف طريقًا ومذهبًا للأستاذ الدكتور جعفر ص ٣٣.

(٢٨) المدخل إلى التصوف للأستاذ الدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى ص ١٣

(٢٩) المرجع السابق ص ١٣.

مرصدها ومخبرها ومسبرها، وإذن لا يدخل فى إطار بحثها. والتصوف روح وإلهام وإشراق، فلا يدخل فى مجالها. ومن هُنا كان اكتفاء هذه الدراسات بالمظاهر. والشكل من أجل ذلك كان إخفاقًا كاملًا(٣٠).

الواقع أن العلوم الحديثة واهتمامها بالمادة كأساس لبحوثها ودراساتها، تختلف فى هذا عن التصوف اختلافًا جوهريًا. ومن هنا فشلت هذه الدراسات فى تفسير التصوف، فالمتصوفة أشخاص محدودون، استطاعوا أن يهربوا من سجن النفس(٣١).

وهذا التفسير قد يكون غريبًا، لكن الحقيقة أن معظم الدراسات النفسية قد ترددت فى أخطاء واضحة.

ويضرب الأستاذ الدكتور التفتازانى مثلًا لما ترددت فيه هذه الدراسات فيقول: «مثلًا للأخطاء الشائعة عند علماء النفس اعتبار بعض حالات التصوف حالات مرضية عقلية، والحقيقة أن ما يشعر به الصوفى فى لحظات معينة يغيب بها عن ذاته مؤقتًا، هو الذى يؤدى به إلى القول بأن عالم الظواهر لا حقيقة له، وهذا لا يبرر الحكم على الصوفى بأنه شخص مريض أو غير سوى، لأن المرض العقلى يصاحبه فقدان مستمر للشعور بالأنا، والصوفى فى كل حالاته لا يفقد استبصاره لذاته مطلقًا، ولو جعلنا منه شخصًا مريضًا لجعلنا كذلك من الشاعر والكاتب والفنان والموسيقى جميعًا مرضى، لا لشىء إلا لأنهم يعانون مشاعر خاصة لا يعانيها غيرهم من أفراد الناس العاديين»(٣٢).

وهناك تفسير نفسى للأستاذ إميل بوتو، يعد من التفسيرات النفسية القليلة التى تعجب الباحث فى التصوف، يقول بوتو فيما نقله عن الأستاذ الدكتور التفتازانى فى كتابه عن ابن عطاء الله السكندرى: «إن نقطة البداية من اللحظة الأولى (بالنسبة لحياة الصوفى النفسية) حالة من حالات النفس من الصعب تحديدها.. إنها حالة من الرغبة المبهمة القلقة، شديدة كعذاب نفس لا يمكن قط تحديدها، أو بالأحرى تفسيرها من حيث موضوعها والدافع لها، هى تطلع نحو المجهول، نحو خير لازم للقلب يقصر العقل عن تمثله.. وعند الصوفى هى حالة عميقة ومستمرة، وتؤرق النفس».

ويقول بوتو أنها تدفع الصوفى بعد ذلك إلى تصور اللامتناهى الخالد الكامل، على أنه الموضوع الأسمى لرغباته، وما ذلك إلا ما يسميه الصوفية المسلمون بالالتجاء إلى الله(٣٣)».

وبرغم إخفاق الدراسات النفسية فى تفسير التصوف، فإنه يمكن إلى حد ما أن نعرف التصوف من الوجهة النفسية تعريفًا عامًا بأنه: «سلسلة متصلة الحلقات من الحالات الوجدانية الخاصة، والمتصوف حين يعبر عن حالاته الوجدانية الخاصة بعد زوالها، يقوم بعملية تذكر للماضى القريب، والقدرة على الوصف والتحليل والتذكر، تختلف قوة وضعفًا باختلاف الأفراد. وقد يعمد بعض المتصوفة إلى التعبير عن حالاتهم الوجدانية الخاصة بطريق الرمز، فتغلب على عباراتهم صفة الإبهام والتعقيد، كما تكون

---

(٣٠) كتاب العارف بالله أبو العباس المرسى للإمام الأكبر فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود ص ١٣.

(٣١) Mysticism: By Underhill. London 1949 Page 44.

(٣٢) المدخل إلى التصوف للأستاذ الدكتور التفتازانى ص ١٤.

(٣٣) ذكره الدكتور التفتازانى فى رسالة للماجستير عن ابن عطاء الله السكندرى ص ٤٥.

اللغة أداة عاجزة عن التعبير عن حالة وجدانية معينة اختلافًا لفظيًا... ونلاحظ أن عبارات المتصوفة تحتمل عادة معنيين أحدهما لغوى ظاهر، وهو ما يستفاد من ظاهر الألفاظ، والآخر ذوقى باطنى، وهو ما يستفاد بواسطة التعليق والتعميق. والوصول إلى المعنى الذوقى الباطن أمر شاق»(٣٤).

إن التجربة الصوفية ثرية عريضة لا يستطيع علم النفس أن ينهض بها لاختلاف المنهجين كمًا وكيفًا. ولهذا فإن معظم التفسيرات النفسية للتصوف يعوزها الكثير من الدقة والموضوعية، حتى تتخلص من نظرتها إلى المتصوفة وإلى التصوف على أنه حالة مرضية نفسية.

وإذا كان علم النفس لم ينجح تمامًا فى إلقاء ضوء موضوعى حول التصوف والمتصوفة، فكذا كان من الصعب على عقل الإنسان أن يخترق مساتير الغيب.

إن العقل الذى وصل بالإنسان للقمر، وبه استطاع أن يمخر عباب البحار، ويُنشِئ الناطحات، ويكشف أعماق البحار والأرض، ويدرس نجوم السماء.. هذا العقل العظيم، لا شأن له بالمساتير: مساتير الملأ الأعلى. لا شأن له بكشف المحجوب: المحجوب الروحى. لا شأن له بمعارج القدس، ولا بمنازل الأرواح(٣٥).

- ويقول الإمام الأكبر عبد الحليم محمود: "وإخفاق العقل فى عالم التصوف قضية اعترف بها اعترافًا صحيحًا فيناغورث وأفلاطون وأفلوطين. واعترف بها الكندى والفارابى، وابن سينا، واعترف بها الغزالى، وجميع الصوفية على الإطلاق. وقد اعترفوا بها لما علموا أن العقل لا يتأتى له أن يخرج عن دائرة المادة، "واعترفوا بها لما رأوه من خلال التاريخ الفكرى للإنسانية: من أن العقل وقف أمام منازل الروح، ومعارج القدس عاجزًا لا يجد جوابًا؟(٣٦).

وبعد ذلك كله يحق لنا أن نتساءل لماذا نضع الصوفية، ومنهجهم الذوق، تحت مشرط العقل الحاد، وداخل مخبر علم النفس التجريبى، ونتصور أنهم يمثلون عالمًا غريبًا عنا.. أليس من الإنصاف لهؤلاء الصوفية ألا ننسى أنه «مهما بدا الصوفية غرباء بالنسبة لنا، فإنهم ليسوا مقطوعين تمامًا عنا، ولا يفصل بيننا وبينهم ما لا يستطاع عبوره، فهم ينتمون إلينا، هم آباؤنا وإخواننا العمالقة الأبطال لجنسنا البشرى، كما أن ما يناله العبقرى لا ينسب إليه فحسب بل ينسب كذلك إلى أمته، وإلى مجتمعه وبيئته التى أخرجته وأهدت الحياة به»(٣٧).

الحقيقة أن بعض علماء النفس ظلموا الصوفية وأصدروا أحكامًا قاسية على التصوف والصوفية، وذلك راجع إلى نظرتهم إلى التصوف نظرة محدودة، واستخدامهم مناهج تجريبية لا تصلح مع المناهج الذوقية، ومن هنا كان مصدر الخطأ فى أحكامهم البعيدة عن الموضوعية(٣٨).

(٣٤) مجلة علم النفس مقالة بعنوان سيكولوجية علم النفس للدكتور التفتازانى عدد أكتوبر سنة ١٩٤٩ ص ٢٩١، ٢٩٢.

(٣٥) العارف بالله أبو العباس المرسى للإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود ص ٩

(٣٦) المرجع السابق ص ١٠.

(٣٧) التصوف طريقًا وتجربة ومذهبًا للأستاذ الدكتور محمد كمال جعفر ص ٢١.

(٣٨) انظر فى ذلك كتابنا «التصوف النفسى» الذى فنّدنا من خلاله آراء فرويد وغيره فى التصوف . وبينا الآراء النفسية الدقيقة للصوفية، وكيف كانوا من أبرز العلماء معرفة بالنفس الإنسانية وأمراضها وكيفية علاجها.

الفصل الثانى

فى الطريقة.. ونظم الطرق الصوفية وكيفية المتابعة عليها

كلمة طريق وطريقة فى القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقا﴾[1].
وقال تعالى: ﴿إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقًا﴾[2].
وقال: ﴿مصدقًا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم﴾[3].
وقال: ﴿ويذهبا بطريقتكم المثلى﴾[4].
وقال: ﴿إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلّا يوما﴾[5].

وجمع لفظة طريق «طرق» أما لفظة طريقة فجمعها «طرائق». قال تعالى: ﴿وأنا منا الصالحون، ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا﴾[6].

الطريقة عند الصوفية:

الطريقة عند الصوفية هى السيرة المختصة بالمتصوفة السالكين إلى الله، فهى سفر إلى الله تعالى «والسالك أو المريد هو المسافر، فعلى المسافر أن يسلك طريق القوم وأن يجتازها مرحلة بعد مرحلة، أما من أدركته عناية الله فجذبته العناية إلى الله جذبا فهذا ما يسمونه المجذوب الذى طويت له الطريق طيًّا فى سفر خاطف بفضل الله ومنته»[7].

ويقول صاحب كتاب ظهور الحقائق فى بيان الطرائق: «والطـريقة عند أهل الحقيقة عبارة عن

---

(١) سورة الجن آية ١٦.
(٢) سورة النساء آية ١٦٨.
(٣) سورة الأحقاف آية ٣٠.
(٤) سورة طه آية ٦٣.
(٥) سورة طه آية ١٠٤
(٦) سورة الجن آية ١١.
(٧) كتاب أبو الحسن الشاذلى الجزء الثانى للأستاذ على سالم عمار ص ٢٤.

مراسم الله تعالى وأحكامه التكليفية التي لا رخصة فيها، وهى المختصة بالسالكين إلى الله تعالى مع قطع المنازل والترقى والمقامات»[٨].

وقد سئل المؤلف عن معنى السير إلى الله تعالى ما هو فأجاب: «إنه سير حقيقى ومعنوى بتزكية النفس والجوارح عن منكرات الأخلاق والأعمال، وبذلك يقرب العبد من حضرة الله قربًا معنويًا، وكلما كان أزكى وأطيب، كان أدنى وأقرب. وثم سير آخر إلى الله تعالى ألطف من هذا وأدق، ولكن لا يصلح ذكره إلا مع من انتهى فى السير المذكور أولا أوَ قارب الانتهاء»[٩].

ونجد أنه حينما نشأ التصوف الإسلامى فى أواخر القرن الثانى الهجرى وما بعده، استمرارا لحركة الزهد الإسلامية الأولى، نجد هذا الاصطلاح أعنى «الطريقة» يتخذ مدلولا خاصًّا، فهو يعنى عند صوفية القرنين الثالث والرابع الهجريين المذكورين فى «الرسالة القشيرية»[١٠] مجموعة الآداب والأخلاق والعقائد التى يتمسك بها طائفة الصوفية. ويذكر القشيرى أيضا كلمة طريق بمعنى منهج الإرشاد النفسى والخلقى، الذى يربى به الشيخ مريده، فيروى عن أبى على الدقاق قوله: «الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق لكن لا تثمر، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نفسها فهو عابد هواه لا يجد نفاذا»[١١].

فإذا كنا مع الإمام أبى حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ «نجده يفهم الطريق الصوفى على نحو لا يختلف كثيرا عن النحو الذى فهمه عليه صوفية القشيرى. وأبو طالب المكى يقول: إن طريق الصوفية عبارة عن تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة، وقطع العلائق كلها، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولى لقلب عبده المتكفل له بتنويره بأنوار العلم. وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانب السالك، وتصفية، وجلاء، ثم استعداد وانتظار[١٢]، ويعنى الغزالى كمن سبقه ببيان قواعد السلوك[١٣] على نحو متصل، مثل علاقة المريد بالشيخ، وقواعد العزلة والخلوة والذكر وما إليها، وهو يصف مقامات السلوك وأحواله على اختلافها فى كتبه التى ألّفها فى التصوف، وعلى الأخص إحياء علوم الدين.

ويرى البعض أن مجيء الإمام الغزالى كان «من العوامل الهامة التى غيرت من مجرى التصوف الإسلامى، فقد أرسى الغزالى قواعد التصوف السنى، الذى يعنى بالجانب العلمى التربوى فى العالم الإسلامى، ورفض أنواع التصوف الأخرى المسرفة كتصوف الحلاج القائم على فكرة الحلول، وتصوف البسطامى الذى يعلن فيه الاتحاد. وسرعان ما ظهر المعجبون بالإمام الغزالى فى اتجاهه هذا

---

(٨) ظهور الحقائق فى بيان الطرائق للسيد عبد الله بن علوى بن حسن العطاس ص ١٧.

(٩) ظهور الحقائق فى بيان الطرائق للعطاس ص ١٨.

(١٠) بحث الدكتور التفتازانى بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة: المجلد ٢٥ جـ ٢ ديسمبر ١٩٦٣. ظهر فى ١٩٦٨

(١١) الرسالة القشيرية طبعة القاهرة ١٣٣٠ هـ ص ٢، ص ٣، ص ٧.

(١٢) إحياء علوم الدين للغزالى جـ ١ ص ١٦، ١٧ وما بعدها ط القاهرة ١٣٣٤ هـ

(١٣) الإحياء جـ ٣ ص ٥٢ وما بعدها ص ٥٦، ٦٤ وما بعدها

من كبار سيوخ الصوفية، نذكر منهم الشيخ الجيلانى المتوفى سنة ٥٦١ هـ والرفاعى المتوفى سنة ٥٧٨ »[١٤].

ونلاحظ بعد ذلك شدة تيار الطريق وازدهاره بشكل واضح فى القرن السابع الهجرى والقرون التالية له.

ومما سبق عرضه لبيان معنى الطريق يتضح لنا أن هذا «اللفظ العربى الذى يعنى السبيل قد أخذ معنيين اصطلاحيين متعاقبين فى التصوف الإسلامى، فهو فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين – الثالث والرابع الهجريين عبارة عن منهج النفس الأخلاقى، يدبر عمليًا ضروب السلوك الفردى. وهو بعد القرن الحادى عشر الميلادى – الخامس الهجرى قد أصبح عبارة عن جملة مراسم التدبير الروحى المعمول به من أجل المعاشرة فى الجماعات الإخوانية الإسلامية المختلفة، التى بدأت تنشأ منذ ذلك الحين.

وانتهت الطريقة إلى أن أصبحت تدل على المعاشرة القائمة على الرعاية الإسلامية العادية، وعلى سلسلة من الوصايا الخاصة، لكى يصبح الإنسان مريدًا، ويتلقى المريد البيعة أو التقليد أو الشد أمام طائفة من الشهود ذوى المراتب من شيخ السجادة والمرشد، والمقدم والنقيب والخليفة[١٥].

وهذا ما انتهت إليه الطريقة منذ القرنين السادس والسابع الهجريين، والقرون التالية لهما، فوجدنا الطريقة عهدًا بين شيخ ومريده على التوبة والاستقامة، والدخول فى طريق الله وذكره دائمًا، والعمل بآداب وأصول الطريقة التى يتبعها المريد، مع القيام بأوراد وأحزاب شيخ الطريقة فى المواعيد التى يحددها له، وهذا ما سنتناوله فى كتابنا هذا إن شاء الله تعالى، حيث نلقى الضوء على المنهج المتبع فى الانتساب للطرق الصوفية، ومراتب الطريق ومراسيمه ونظمه، وملامح وخصائص الطرق الصوفية.

المنهج المتبع فى الانتساب إلى الطرق الصوفية بمصر:

يحدثنا صاحب جامع الأصول عن كيفية الأخذ والانتساب إلى الطريق فيقول: «اعلم أن الأخذ والانتساب إلى الطرق على أربعة أقسام: أحدها: أخذ المصافحة والتلقين للذكر، ولبس الخرقة والعذبة للتبرك أو للنسبة أيضا فقط، وثانيها: أخذ رواية، وهو قراءة كتبهم من غير حل لمعانيها، وهو يكون للتبرك أو للنسبة أيضا فقط، وثالثها: أخذ دراية وهو حل كتبهم لإدراك معانيها لذلك فقط. ورابعها: أخذ تدريب وتهذيب وترق فى الخدمة بالمجاهدة للمشاهدة والفناء فى التوحيد والبقاء، وهو المراد العزيز وجوده، وعلى هذا المعول أكثر الطرق. ويصح الانتساب أيضًا بالإتباع والمشاركة، ولو فى شىء يسير مع المحبة لهم، كتلاوة حزب من أحزابهم، ولذا قال الشاذلى: من قرأ حزبنا هذا فله ما لنا وعليه ما علينا[١٦].

---

(١٤) الدكتور التفتازانى: محلة كلية الآداب مجلة ٢٥ ص ٦٠.

(١٥) دائرة المعارف الإسلامية مادة طرق صوفية ص ١٧٢، ١٧٣ كتبها لويس ماسينيون.

(١٦) من بحث: عن الطرق الصوفية فى مصر للأستاذ الدكتور التفتازانى بمجلة كلية الآداب مجلد ٢٥ ص ٦٩.

ومن ذلك نلاحظ أن «المنهج المتبع الآن فى كل الطرق الصوفية، هو أخذ العهود على المريدين بعد استتابتهم عن المعاصى، وبعد أخذ العهد على المريد يمضى فترة فى الطريقة حتى يكمل، فيجيز شيخه المباسر الذى هو خليفة الطريقة، فيطلب عندئذ من شيخ الطريقة إعطاء هذا المريد إجازة الطريق، وهى شهادة تحتوى تاريخ الطريقة وأسانيدها، وتشهد بأن هذا المريد أصبح قادرًا على إرشاد غيره من المريدين وإعطائهم العهود»(١٧).

والملاحظ أن هذه الطريقة لأخذ العهود على المريدين، هى نفس الطريقة المتبعة تقريبًا فى القرن السابع الهجرى. فكما أوضحنا سابقًا أن الطريقة انتهت فى القرنين السادس والسابع الهجريين والقرون التالية لهما، إلى أن أصبحت عهدًا بين شيخ ومريد على التوبة والاستقامة.

غير أنه بعد القرون التالية للقرن السابع الهجرى، قد زاد على ذلك العهد الشفهى تلك الشهادة المطبوعة التى تشهد بأن المريد أصبح قادرًا على إرشاد غيره من المريدين، وعلى إعطائهم العهود أو ما يسمى بإجازة الطريق.

مراتب الطريق(١٨):

مراتب الطريق أربعة: «لا يضع السالك قدمه فى ثان، ولا يدخل فى واحدة، حتى يعمل ما قبلها وهى: مرتبة التوبة، ومرتبة الاستقامة، ومرتبة التهذيب، ومرتبة التقريب.. أما الأولى فإن التوبة أصل كل مقام وحال، وأول المقامات، وهى بمثابة الأرض للبناء فمن لا توبة له لا حال ولا مقام له.. وأما الثانية: فهى مرتبة الاستقامة على الطاعة، واجتناب المخالفات، وإقامة الأوراد من جميع الطاعات، والدعاء فى جميع الحالات، واتباع المراد، وإيثار السداد. والثالثة: التهذيب، وله أربعة أركان: الصمت، والعزلة، والصوم، والسهر، وكل واحد منها يدفع عدوًّا، فالشيطان سلاحه الشبع، وسجنه الجوع، والهوى سلاحه الكلام، وسجنه الصمت، والدنيا سلاحها لقاء الخلق، وسجنها العزلة، والنفس سلاحها النوم وسجنها السهر»(١٩).

---

(١٧) جامع الأصول للكشمخوى ص ٦١، ٦٢ بتصرف.

(١٨) هذه مراتب الطريق من الناحية النظرية أما مراتب الطريقة فهى عامة كالآتى:

- المريد. (يسمى أحيانا درويشا)
- الخليفة
- خليفة الخلفاء (وهو يرأس جماعة الخلفاء)
- نائب البندر (ويرأس خلفاء البندر)
- نائب المركز (ويرأس خلفاء قرى المركز)
- نائب المحافظة (ويرأس جميع خلفاء المحافظة)
- شيخ عموم الطريقة.

النقباء: ومراتب النقباء عادة كالآتى.

١ – نقيب خدم ثم نقيب للقهوة ثم نقيب للطعام ثم نقيب لمجلس الذكر ثم نقيب للسجادة ثم نقيب للشيخ ثم خليفة.

ومن الملاحظ أن مراتب الطريقة هذه مراسيم ونظم استحدثت بعد القرن السابع الهجرى.

(١٩) جامع الأصول للكشمخوى من ص ٧٨ إلى ٨٣ باختصار.

ثم يقول الكشمخوى: «واعلم أن الإفراط من الصمت مضر بالحكمة، والإفراط من السهر مؤذ للحواس، والإفراط من الخلوة يؤدى إلى الاختلاط، لكن خير الأمور أوسطها، وهو مع ذلك يجاهد نفسه إلى أن يزيل أخلاقه الذميمة من العجب والرياء، والكبر والحسد، والبخل والحقد، واليأس والقنوط من رحمة الله، وحب الجاه، واتباع الهوى، والتذلل للدنيا، والشماتة والجبن، والتهور والغل والغش، فهذه وأمثالها من صفات القلب، ومغارس الفواحش فيه، ومنابت الأعمال المحظورة»[٢٠].

أما المرتبة الرابعة فهى: «مرتبة التقريب، وبعد أن يدخل السالك الصادق إلى الخلوة بشروط، ويداوم الذكر ولا يتركه ساعة حتى يصير الذكر له بمثابة النفس يجرى من غير اختيار ولا تقصد.. فإذا حصل له هذا اتسعت له ميادين الله ومرافق أسراره»[٢١].

هذا هو المنهج المتبع للانتساب للطريق، ثم مراتب الطريق. غير أننا نلاحظ أنه مما أساء إلى الطرق الصوفية تلك الرخص والإجازات التى تمنح لكل من هب ودب، ولهذا نجد أن الكثير من هؤلاء الأتباع لم يحفظوا عهدًا ولا ذمة، فنلمس أن «البعض يلجأ إلى التلصص فى الدخول إلى زمرة الصوفية، عن طريق الحصول على إجازة من شيخ معتمد فى الطريق، وهذه الإجازة تصريح له بتربية المريدين فى هذه الطريقة، وما إن يحصل عليها حتى يسخرها فى سبيل أهوائه ومطامعه، فيبيع دينه بدنياه ابتغاء عرض زائل، وحياة تافهة حقيرة كلها غش وخداع.

أمثال هؤلاء من السفلة كانوا سببًا فى تشويه معالم الطريق، وانصراف الناس عنها، فالذى هاجم الصوفية إنما هاجم هؤلاء الأدعياء، وظن أنهم يمثلون كل الصوفية والصوفية من هؤلاء براء»[٢٢].

مراسيم الطريق الصوفى ونظمه:

بعد أن تناولنا مراتب الطريق، نقدم صورة لمراسيم الطريق الصوفى، حتى تتضح الملامح النظامية والشكلية للطرق الصوفية.

والمراسيم التى سأتحدث عنها الآن مع كونها خاصة بإحدى الطرق الصوفية، تكاد تكون نفس مراسيم الطرق الصوفية الأخرى الموجودة فى مصر. وهذه المراسيم معظمها، إن لم يكن كلها، عرفت بعد القرن السابع الهجرى حينما حاول خلفاء الطريق وضع مراسيم ونظم لأتباعهم فى الطريق.

ويصور لنا مراسيم الطريق الصوفى المرحوم السيد الغنيمى التفتازانى والد الأستاذ الدكتور أبو الوفا التفتازانى شيخ الطريقة الغنيمية بمصر، وشيخ مشايخ الطرق الصوفية من خلال حديث له مع أحد محررى مجلة «الدنيا»[٢٣].

يقول السيد الغنيمى التفتازانى: «أول ما بدأت به حياتى الصوفية أنى كنت نقيبًا للخدم -

---

(٢٠، ٢١) جامع الأصول للكشمخوى ص ٨٣، ٨٤.

(٢٢) من قادة الفكر الصوفى السيد إبراهيم الدسوقى للأستاذ عز الدين خلف الله ص ٢٦٣.

(٢٣) ذكر الحديث ونقله: الأستاذ محمد عبد المنعم حفاجى فى كتابه الصوفى المجدد ص ٥٠ إلى ٥٢.

الأحذية - أتولى حراستها للذاكرين، ثم نقيبًا للقهوة، وأزاول عملها وسقياها، ثم نقيبًا للطعام أعمل بيدى فى طهيه وأحمله إلى الآكلين، وأصب على أيديهم الماء بعد أن يفرغوا منه، ثم نقيبا لمجلس الذكر أفتتحه وفق أصوله قعودًا وقيامًا، وأختتمه فى النهاية على حسب ما تقتضيه روح الطريقة من نظم، ثم نقيبًا للسجادة أحملها فى المواكب، وأقف خلفها بعصاى عدد قيام الحضرات، ثم نقيبًا للشيخ أتولى بنفسى خدمته فى طعامه وشرابه، وفى نضو الأضوار عن ملابسه، ثم أذنت منه بعدئذ بالتسليك، وتلك هى مرتبة الخلافة الصوفية. ومن ثم دعيت إلى الخلوة حتى أستكمل النهوض بتعاليم الطريق جميعًا، فإن الخلوة واجب لا يعزب أحد الخلفاء عن أدائه، وإنه لا يدهشك أن تعلم بأن حلقاتها لا تتم إلا فى سنوات ثلاث، فيختلى الإنسان فى العام الأول أربعين يومًا، ويختلى فى الثانى أحد عشر يومًا، ويكتفى فى العام الثالث بثلاثة أيام.

التنظيمات الإدارية للطرق الصوفية:

أسس صلاح الدين الأيوبى خانقاه[٢٤] سعيد السعداء، الذى يعد أول خانقاه أقيم للصوفية بمصر، كما يعد أول تنظيم إدارى للطرق الصوفية.

وبعد ذلك نلاحظ أن أهم العصور التى اهتمت بالتنظيمات الإدارية للطرق الصوفية فى مصر هو العصر المملوكى، حيث انتظمت فيه الصوفية فى جماعات مرتبة داخل الخانقاوات التى أنشئت بكثرة فى هذا العهد. «ومن مظاهر تنظيم الصوفية فى العصر المملوكى كيفية تقدم المريد للجماعة، ثم وصوله إلى درجة النقابة فالخلافة، ثم تحدثه عن أتباعه ومريديه واتصاله بهم، ثم اتصال الشيخ بالجميع حتى يسهل عليه بث ما يريده من تعاليم، وتلقين ما يراه من أوامر وأحيط ذلك كله بسياج طاعة الشيخ»[٢٥].

وقد تطورت بعد ذلك التنظيمات الإدارية للطرق الصوفية فى العصور التالية[٢٦] حتى أصبحنا نجد فى العصر الحديث أن شيخ مشايخ الطرق الصوفية يعين بقرار من رئيس الدولة.

وهذه التعقيدات والتنظيمات الشكلية والإدارية المختلفة لم يعرفها أصحاب الطريق فى القرن السابع الهجرى فكان الطريق على ما قلنا عهدًا بين شيخ ومريد يريد أن يصحبه فى طريق الله فيعاهد المريد شيخه على التوبة والإنابة إلى الله وذكره.

(٢٤) أصل كلمة خانقاه فارسية تطلق على المبانى التى تقام لايواء الصوفية الذين يخلون فيها للعبادة وقد انتشرت هذه المبانى منذ القرن الحادى عشر، وفى العهد العثمانى سميت هذه المبانى (تكايا) وخصصت لإيواء الدراويش الذين ينقطعون للنسك والعباده.

(٢٥) بحث «الطرق الصوفية» للدكتور التفتازانى بمجلة كلية الآداب. مجلد ٢٥ ص ٦٤.

(٢٦) تطورت التنظيمات الإدارية للطرق الصوفية فى مصر فى القرون التالية من أهمها أنه «أصبح للطرق الصوفية منذ القرن ١٩ الميلادى أو ما قبله بقليل: مشيخة عامة لصاحبها التكلم على جميع الطرق، وأصبح لكل طريقة شيخ ولكل شيخ خلفاء فى القرى، ونواب فى المراكز والمديريات ولكل خليفة مريدون والشيخ يدير أمر الخلفاء، والخليفة أمر المريدين من حيث إرشادهم ومراقبتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر. وعرف رئيس الصوفية بشيخ مشايخ الطرق الصوفية.

المرجع السابق ص ٦٦. نقلا عن الخطط التوفيقية وتاريخ الجبرتى والنجوم الزاهرة.

ملامح الطرق الصوفية وخصائصها:

ملامح الطريق الصوفى على ما ذكرنا:

١ - سيخ.

٢ - ومريد.

٣ - وعهد بينهما.

أما وأهم خصائص الطرق الصوفية فهى:

١ - الذكر.

٢ - السماع.

٣ - الأحزاب والأوراد.

٤ - الموالد.

ملامح الطريق الصوفى

أولا - الشيخ:

الشيخ بمثابة الأستاذ للمريد. فالمريد كالطالب والطالب لا يستطيع أن يتقدم فى دروسه بدون موجه ومرشد (ولا يستطيع الفرد - فى نظر الصوفية أن يسلك هذا الطريق بمفرده، لأنه طريق صعب متشعب المسالك كثير المنحنيات ملىء بالصعاب، يتربص بسالكيه أعداء أسداء فى حاجة إلى جهاده، ومن هؤلاء الأعداء: الشيطان والنفس والهوى - لذلك لابد لمن يسلك هذا الطريق الصعب من مرشد أو هاد يأخذ بيده. هو الشيخ[٢٧].

فالشيخ هو الذى يحدد لمريده طرق الوصول إلى الله ويساعده على السير. والشيخ المسلك هو «الذى سلك الطريق على يد شيخ واصل، فترقى فى المقامات من مقام التوبة إلى مقام المشاهدة... ثم عاد بعد اعتلاء تلك المقامات لقيم الشريعة وسلك الناس فى مراحل الطريقة، ويفتح لهم بإذن الله أبوابا ومنافذ يشرفون منها على أضواء الحقيقة[٢٨].

ويقول شهاب الدين السهروردى «ولابد للمريد من شيخ مرسد إلى الحق يرشده ويلقنه الذكر ويلقى فى روعه النور، فإن تلقين الشيخ يلقح باطن المريد ويسرى فيه كأنما يلقح من سراج، فعلى المريد اختيار الشيخ الصالح المشهود له بالعلم والمعارف واتقاء المحارم»[٢٩].

---

(٢٧) السيد أحمد البدوى للدكتور سعيد عاشور ص ١٨٣.

(٢٨) المدخل إلى التصوف للمنوفى ص ٦١.

(٢٩) عوارف المعارف للسهر وردى ص ٧٠.

وقال ابن عطاء الله السكندرى «من لم يكن له شيخ يوصله إلى سلسلة المتابعة فهو فى الطريق لقيط لا أب له، وفى المعرفة دعى لا نسب له»(٣٠).

أما عن الشروط والمواصفات المطلوبة فى الشيخ فيحدثنا عنها الإمام الجنيد بوضوح ويقول: «لا يستحق أن يكون شيخا حتى يأخذ حظه من كل علم شرعى، وأن يتورع عن جميع المحارم، وأن يزهد فى الدنيا، وألّا يشرع فى مداواة غيره إلّا بعد فراغه عن مداواة نفسه، وحتى يكون على علم يهدى به العباد فإذا مرض مريده بسبب شبهة فى علم التوحيد داواه، وإذا تحير فى مسألة من مسائل الفقه أفتاه، ويشترط أن يكون لديه القناعة بالغنى عن الناس، وأن يخاف ويخشى من المعاصى والأدناس، وأن يلازم العمل بالكتاب والسنة.. يزن أقواله وأفعاله بميزان الشريعة والطريقة فإن رأيت منه سيئا مخالفًا للشرع فاتركه حتى وإن كان ذا حال صحيح، فما عليك فى رده بحكم الشرع من بأس ولا تتخذه مرشدا»(٣١).

ومن ذلك فإن أهم شروط الشيخ الذى يلقى المريد إليه نفسه أن يكون «ذا ذوق صريح، وهمة عالية، وحالة مرضية، وبصيرة نافذة. فمن كان فيه خمسة لا تصح مشيخته: الجهل بالدين، وإسقاط حرمة المسلمين، والدخول فيما لا يعنى، واتباع الهوى فى كل شىء، وسوء الخلق من غير مبالاة»(٣٢).

وعلى ذلك نجد أن الشيخ «لا يقتصر على لبس الزى والهيئة وإرخاء العذَبة وحضور الولائم، وتقول له نفسه من حين حصل لك الاعتقاد والتلامذة: أنت بخير كبير. وكلما كثر أتباعه ومعتقدوه اغتر وحمد الله، وكلما قلّوا انقبض واغتم وسخط فى الباطن على الله. بل لا ينبغى الالتفات لهذه الأمور بوجه من الوجوه، فشأن الفقير دوام الاقبال على الله باطنا وظاهرا بأنواع القربات والعبادات، فهو فى غفلة عن أحواله الظاهرة وهذا أهل حضرة السلطان ليس لهم نظر فى حال مجالسته إلى ظاهرهم، ولا إصلاح عمامتهم، ولا وسخ ثيابهم، ولا إلى سجادة يجلسون عليها، ولا غير ذلك من أحوال الغافلين عنه»(٣٣).

«وواجب الشيخ أن يتعرف على أحوال مريديه ويتفقدهم ويتابع ظروفهم. ومن ناحية أخرى ينبغى عليه ألا يتفاخر بالمشيخة، أو لقب شيخ، هذا كلام صحيح ليس فيه كذب بخلاف لفظ السيادة والمشيخة فقد لا يكون سيدا ولا شيخا عند الله تعالى فيقع الفاعل له ذلك فى الكذب. هذا الذى ينبغى للشيخ أن يظنه بنفسه دائما فيحصل من لم يعطه على ذلك. وأما التلميذ فهو مأمور بالأدب معه فلا يناديه باسمه فقط من غير لفظ سيادة أو مشيخة أو نحوها. ولا بألقابه المذمومة وإن كان حقا»(٣٤).

وينبغى على الشيخ مراعاة كرامة مريده فها هو ذا سيدى أبو العباس المرسى رضى الله عنه من دقته

---

(٣٠) بداية الطريق للمنوفى ص ٦٩.

(٣١) الرسالة القشيرية ص ٩٠.

(٣٢) جامع الأصول ص ٥٣، -٥٤.

(٣٣) الأنوار القدسية فى آداب العبودية للشعرانى ص ٣٤.

(٣٤) المرجع السابق ص ٣٤.

فى مراعاة الكرامة الإنسانية للمريدين، أنه كان يكره للأشياخ إذا جاءهم مريد أن يقولوا له: قف ساعة، ويقول. إن المريد يأتى إلى الشيخ بهمته المتوقدة فإذا قيل له، قف ساعة، طفئ ما جاء به»(٣٥)

ثانيا – المريد:

إذا كان الشيخ يمثل الزاوية الأساسية فى الطرق الصوفية فإنه بدون وجود مريدين لهذه الطرق ما قامت ولا كانت هناك طرق صوفية.

والمريد هو سالك الطريق الذى يسير فى الطريقة حسب إرشادات شيخه فيسلك طريقه كما يرسمه له شيخه حتى يصل إلى غايته.

ويمكن أن نلخص خطوات المريد نحو الطريق فى خطوات ثلاث تبدأ بالتوبة ﴿وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾. النور – آية ٣١.

الخطوة الثانية هى أخذ العهد من الشيخ بطاعة الله ورسوله والسير فى الطريق.

والخطوة الثالثة هى التلقين وهو «تعليم الشيخ للمريد كيفية الذكر، نطقًا وبدءا فى مرحلته الأولى، ويتجدد التلقين كلما قطع المريد مرحلة من مراحل القرب من الله سبحانه وتعالى»(٣٦).

ومن ذلك يتضح لنا أن أهم واجبات المريد نحو شيخه طاعة أوامر شيخه. قال أبو الحسن الشاذلى: «عليك أيها المريد بالعكوف على أعتاب شيخك، فإنك لو علمت ما انطوى عليه الشيخ ما برحت عن أبوابهم ولأتيتهم سعيًا على الوجه»(٣٧).

وواجب المريد ألا يكتم أى سر عن شيخه بل ينبغى عليه أن يذكر له كل ما يجول بخاطره من أسرار وخطرات وهموم ومشكلات فهو طبيبه ومداويه.

وقد ينتقد رجال التصوف والطرق الصوفية من أجل ذلك. وقد تفسر إطاعة المريد إطاعة عمياء لشيخه وإخباره بكل أحواله وأسراره بأن فى ذلك محوًا لشخصية الفرد وضعفًا وانحلالاً لمقوماتها وقضاء على إرادته وحريته واختياره.

وقد عبر عن ذلك بعضهم بقوله: «الصوفية كثيرا ما يشبهون هذه الصلة بصلة الطبيب بالمريض، والمرض داء نفسى دفين، فلا تجوز المقارنة بوسائل التربية الحديثة، وإنما بالمحلل النفسى وفى العلاج النفسى تقوم مثل هذه العلاقة حين يسلم له المريض قياده ويطلعه على كل أسراره، ولا يقدم على أمر حتى يستأذنه، كل ذلك لضرورة العلاج الذى يمتد سنين، ويستند كل من النظامين إلى فكرة الإيحاء الغيرى التى تقتضى من جانب المريد أو المريض قابلية تامة للتصديق أو الاستهواء. وتتشابه الطريقتان كذلك فى الاستناد إلى حتمية الثنائية إذ لا يتسنى العلاج إلا بوجود طرفين: محلل ومريض،

---

(٣٥) كتاب أبو العباس المرسى للدكتور الإمام الأكبر للشيخ عبد الحليم محمود ص ١٨.

(٣٦) السيد البدوى للإمام الدكتور عبد الحليم محمود ص ١٨.

(٣٧) المفاخر العلية لابن عياد ص ٧٧.

أو شيخ ومريد، كذلك يبدو التماثل شديدًا، إذا علمنا أن الصوفية كانوا على وعي بفكرة اللاشعور واستحالة إدراك المريض إلى مكوّناته مع ماله من أثر فى السلوك(٣٨).

ولتوضيح ذلك نقتبس نصًا للجنيد: إن أمراض الأبدان يعبر عنها المريض بما يجد من ذاته واصفًا ما حل به من بلائه. أما علل القلوب فإن المريض مقصر عن بلوغ نعته لذلك نختلف عن الوصف لما هنالك... فالطبيب الخبير البصير يكشف لأهل الأمراض عما وجدوا وينبئهم عن زوال ما فقدوه حتى كأن الموصوف بعبارة اللسان منظور إليه بحقيقة العيان، من أجل ذلك كله كان الطبيب أعلم بداء السقيم من نفسه وأحق أن يصف له من الدواء ما يكون سببًا لبرئه(٣٩).

وينبغى أن نفهم أنه «ليس هناك ما يبرر إرجاع هذه الصلة إلى مبدأ الاعتراف عند بعض المذاهب المسيحية، فالاعتراف المسيحى متصل بأصل من أصول الدين، أما الاعتراف الصوفى فهو جزء من نظام أخلاقى ولا صلة له بأية مسألة اعتقادية»(٤٠).

وواجب المريد عدم الاعتقاد بعصمة الأولياء والمشايخ لأنهم ليسوا أنبياء، يقول القشيرى ناصحًا: «لا ينبغى للمريد أن يعتقد فى المشايخ العصمة. بل الواجب أن يذرهم وأحوالهم فيحسن بهم الظن ويراعى الله تعالى وحده فيما عليه من الأمر - والعلم كافيه فى التفرقة بين ماهو محمود وماهو معلول»(٤١).

ولقد ترك مشايخ الطرق الصوفية للمريد حرية اختيار الشيخ والطريقة التى يرغبها فإذا ما تم له اختيار الطريقة وشيخها ينبغى الالتزام به والسير على نهجه وخطاه.

ويضع لنا الشيخ الحداد فى رسالته (آداب سلوك المريد) بعض آداب المريد مع شيخه فيقول: «إذا أردت - أيها المريد - من شيخك أمرًا أو بدا لك أن تسأله عن شىء فلا يمنعك إجلاله، والتأدب معه عن طلبه منه، وسؤاله عنه، وتسأله المرة والمرتين والثلاث فليس السكوت عن السؤال والطلب من حسن الأدب . اللهم إلا أن يشير عليك الشيخ بالسكوت أو يأمرك بترك السؤال. فعند ذلك يجب عليك امتثاله، وإذا منعك الشيخ عن أمر أو قدم عليك أحدًا فإياك أن تتهمه ولتكن معتقدًا أنه قد فعل ما هو الأنفع والأحسن لك»(٤٢) ويقول أيضًا: «وإذا وقع منك ذنب أوجد عليك غضب الشيخ بسببه فبادر بالاعتذار إليه من ذنبك حتى يرضى عنك، وإذا أنكرت قلب الشيخ عليك، كأن فقدت منه بشرًا كنت تألفه أو نحو ذلك، فحدثه بما وقع لك من تخوفك تغير قلبه عليك بشىء أحدثته فتتوب عنه، أو لعل الذى توهمته لم يكن عند الشيخ وألقاه الشيطان إليك ليسوءك به»(٤٣).

(٣٨) الفلسفة الأخلاقية للأستاذ الدكتور أحمد صبحى ص ٢٤٨.

(٣٩) ذكره الأستاذ الدكتور صبحى فى كتابه الفلسفة الأخلاقية ص ٢٤٨ عن «رسائل الجنيد» تحقيق الأستاد الدكتور على حسن عبد القادر. طبعة لندن سلسلة [جب] التذكارية الكتاب رقم ٢٢ ص ١٠، ١٢.

(٤٠) التصوف: الثورة الروحية فى الإسلام ص ٢٦٨ للأستاذ الدكتور أبو العلا عفيفى.

(٤١) الرسالة القشيرية جـ ٢ ص ٧٤٣.

(٤٢) قوت القلوب الجزء الأول ص ١٩٤.

(٤٣) رسالة آداب سلوك المريد للشيخ الحداد ص ٣٠.

وأيضا من أهم آداب المريد مع سيخه الإنصات لكل ما يقوله، وحسن الظن بشيخه وأن يكون مستعدًا دائمًا فى كل الأحوال لخدمة شيخه.

يقول أبو طالب المكى فى قوت القلوب «اعلم أن المريد لا بد له من خصال سبع: الصدق فى الإرادة وعلامته إعداد العدة، ولابد له من السبب إلى الطاعة، وعلامة ذلك هجر قرناء السوء، ولا بد له من المعرفة بحال نفسه. وعلامة ذلك استكشاف آفات النفس، ولابد له من مجالسة عالم بالله، وعلامة ذلك إيثاره على ما سواه، ولابد له من توبة نصوح، بذلك يجد حلاوة الطاعة ويثبت على المداومة. وعلامة التوبة قطع أسباب الهوى، والزهد فيما كانت النفس راغبة فيه. ولابد له من طعمة حلال لا يذمها العلم، وعلامة ذلك الحلال المطالبة به، وحلول للعلم فيه فيكون بسبب مباح وافق فيه حكم الشرع، ولابد له من قرين صالح يؤازره فيه على ذلك، وعلامة القرين الصالح معاونته على البر والتقوى، ونهيه إياه عن الإثم والعدوان»(٤٤) .

وينصح الشعرانى المريد حتى يصبح فى طريق الصوفية ويسير على نهج إسلامى سليم ليس به ابتداع وألّا يدخل فى طريق القوم إلا بعد تضلعه من علم الشريعة والحديث، وإلا فيخلف عليه الزندقة والابتداع.. ومن شأنه أن يقرأ شيئًا من عقائد السنة قبل دخوله فى طريق الفقراء ليصح اعتقاده مما يتوهمه غالب الخلق(٤٥).

وبهذا يصبح المريد مريدًا صادقًا يسير على نهج إسلامى ويتبع الطريق المستقيم والطريقة المثلى ويهتدى بنور شيخه وأستاذه الأمين.

ثالثا – العهد:

إذا كان الطريق يتشكل ويتكون من شيخ ومريد فإن الذى يربط بينهما العهد والبيعة، والعهد: هو أوثق رباط بين رجلين تحابا فى الله وتعاهدا على طاعته.. إنها بيعة لله، وفى لله، وبالله.

قال تعالى **﴿لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم، فأنزل السكينة عليهم، وأثابهم فتحا قريبا﴾** آية ١٨ – الفتح.

وقال رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام البخارى رضى الله عنه من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه – وهو أحد النقباء ليلة العقبة – أن رسول الله ﷺ قال: وحوله جماعة من أصحابه «بايعونى على ألّا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا. ولا تزنوا. ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا فى معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئا ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه. فبايعناه على ذلك».

---

(٤٤) قوت القلوب الجزء الأول ص ١٩٤.

(٤٥) الأنوار القدسية فى آداب العبودية للشعرانى ص ١٢٣، ١٢٤.

ويقول تعالى ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾ آية ١٠ - الفتح.

والعهد والمبايعة للشيخ معناه: الأخذ والمصافحة، ومبايعة لرسول الله ﷺ فكل بيعة حصلت بعد بيعة الرسول ﷺ هى فى الحقيقة تجديد لبيعته، والآية الكريمة السابقة توضح أن بيعة الرسول هى بيعة لله على ما ذكرنا. ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما﴾ ١٠ - الفتح.

والبيعة عقد إلزامى يلزم المتعاقدين بكل ما فى بنود البيعة، والبيعة أشد وأوثق من الإيمان ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا﴾ ٩٢ - النحل.

ومهما تعددت صور وكيفيات أخذ العهود لكل طريقة، إلا أنها تتفق فى أن واجب المريد الذى يرغب فى أخذ العهد عن شيخ ينبغى على هذا الشيخ أن يأمره بالتطهر من الحدث والخبث ليتهيأ لقبول ما يلقيه عليه، ويتوجه إلى الله تعالى. ويسأله القبول ويتوسل إليه فى ذلك بسيدنا ونبينا محمد ﷺ، لأنه الواسطة بينه وبين خلقه، ويضع يده اليمنى على يده اليمنى.. ثم يقول للمريد بعض سور القرآن وآيات المواثيق والعهود ويقول المريد مثلما يقول له شيخه.، ثم يقول له الشيخ: قل اللهم إنى أشهدك وأشهد ملائكتك وأنبياءك ورسلك وأولياءك أنى قد قبلته شيخا فى الله ومرشدًا وداعيًا [ثم يقول الشيخ]: اللهم إنى أشهدك أنى قد قبلته ولدا فى الله تعالى فاقبله وأقبل عليه وكن له ولا تكن عليه وانظر غايتك إليه(٤٦).

أهم خصائص ومميزات الطرق الصوفية

أولا - لبس الخرقة:

إذا كان الطريق على ما بينا يقوم على شيخ ومريد بينهما عهد، فإن أهم خصائص الطريق لبس المرقعة أو الخرقة الصوفية.

ويكاد يجمع أصحاب الطرق الصوفية المختلفة أنهم أخذوا الخرقة من فلان عن فلان فى سلسلة عنعنة طويلة تنتهى إلى الإمام على كرم الله وجهه.

يقول الهجويرى: وقد أمر مشايخ هذه الطريقة المريدين بأن يتحلوا بالمرقعات ويتزينوا بها، وفعلوا هم أيضا ذلك. لتكون لهم علامة بين الخلق، ويكون الخلق رقباء عليهم، فإذا خطوا خطوة على خلاف، فإنهم يطلقون فيهم لسان الملامة، وإذا أرادوا إتيان المعصية فى تلك الثياب. فإنهم لا يستطيعون النجاة من الخلق(٤٧).

(٤٦) ظهور الحقائق الطاس ص ٣٠.

(٤٧) كشف المحجوب للهجويرى ص ٢٤٥ .

ثم يقول: وفى الجملة: المرقعة زينة لأولياء الله عز وجل. يعز بها العوام ويذل بها الخواص، وعز العوام هو أنهم حين يرتدونها يحترمهم الخلق، وذل الخواص هو أنهم حين يرتدونها ينظر إليهم الخلق بعين العوام، ويلومونهم بذلك فهى لباس النعم للعوام، وجوشن البلاء للخواص، لأن أكثر العوام يكونون فيها مضطرين حين تقصر أيديهم عن عمل آخر، ولا تكون لهم آلة أخرى لطلب الجاه، فيطلبون بها الرياسة، ويجعلونها سببا لجمع النعم، ثم إن الخواص يقولون بترك الرياسة ويؤثرون الذل على العز. فتكون لهؤلاء ولأولئك نعماء(٤٨).

ويقول ابن زروق فى كتاب قواعد التصوف: لباس المرقعة أعذر على دفع الكلف، وأذهب للكبر، وأقرب للحق، مع الاقتداء بعمر رضى الله عنه إذ لبسها مع وجود غيرها لصلاح قلبه، ألا تراه حين ألبس غيرها قال: (أنكرت نفسى)(٤٩).

ويعتمد الصوفية فى لبس الخرقة على حديث نبوى، ويقولون إنه سنة عن النبى ﷺ، فالهجويرى مثلا يقول(٥٠):«إن لبس المرقعة شعار المتصوف، ولبس المرقعات سنة، ومن هنا قال الرسول عليه الصلاة السلام(٥١): «عليكم بلباس الصوف تجدون حلاوة الإيمان فى قلوبكم(٥٢)».

وأرجو أن أكون مصيبًا، وألا أكون مغاليًا حين أقول: إن هذا الحديث الذى رواه الحاكم فى «المستدرك» واهى الضعف، وذلك لأن الحبيب المصطفى ﷺ كان يرتدى الصوف وغيره، كما لا أتصور أن لبس الصوف يجعل فى قلب المسلم حلاوة الإيمان فهناك ملايين من البشر يرتدون الصوف ولا إيمان عندهم ولا يشعرون، أو يستشعرون حلاوة الإيمان فى قلوبهم.

فإذا لم يكن المريد يملك الإيمان الحقيقى فإنه لن يشعر قط بحلاوته، وتكون خرقة الصوف مجرد خرقة الصوف لا غير، لا معنى ولا جوهر لها، ولهذا يقول الصوفية: وشروط لبس المرقعة كلُبس الكفن، لأنهم يقطعون الأمل من لذة الدنيا ويطهرون قلوبهم من راحتها، ويبقون عمرهم كله على خدمة الحق جل جلاله، ويبرأون تماما من الهوى، ومن ثَم يعرى الشيخ المريد بإلباسه الخرقة، فهو يقوم بحقها، ويجتهد تماما فى أداء هذا الحق ويحرم على نفسه رغباتها(٥٣).

وقال الإمام السهروردى- قدس الله روحه- فى عوارف المعارف: «لبس الخرقة ارتباط بين السيخ وبين المريد، وتحكيم من المريد للشيخ فى نفسه، والتحكيم سائغ فى الشرع بمصالح دنيوية، فلماذا ينكر المنكر لبس الخرقة على طالب صادق فى طلبه؟، ويقصد شيخًا بحسن ظن وعقيدة يحكّمه فى نفسه لمصالح دينية، وليرشده ويهذبه، ويعرفه، طريق المواجيد ويبصره بآفات النفس، وفساد الأعمال،

(٤٨) المرجع السابق.
(٤٩) قواعد التصوف لابن رزوق ص ٨٨.
(٥٠) كشف المحجوب للهجويرى ص ٢٤١.
(٥١) رواه الحاكم فى المستدرك عن أبى امامة (شرح الجامع الصغير جـ٢ ص ١٠٧).
(٥٢) لم أجده فى الكتب الستّة وقد ذكره الحاكم فى المستدرك وتعقبه البيهقى فى شعب الإيمان.
(٥٣) كشف المحجوب للهجويرى ص ٢٥٢.

ومداخل الله، ويسلم نفسه إليه، ويستسلم لرأيه، واستصوا به، فى جميع تصاريفه، فيلبسه الخرقة إظهارًا للتصرف فيه، فيكون لبس الخرقة علامةً للتفويض والتعليم، ودخوله فى الشيخ كدخوله فى حكم الله وحكم رسوله، وإحياء سنة المبايعة مع رسول الله ﷺ»[٥٤].

ويقول صاحب ظهور الحقائق :«إذا أراد الشيخ أن يلبسه – أى يلبس المريد – الخرقة، فليتطهر ويأمره بالتطهر، ثم توضع الخرقة بين أيديهما، ويقرأ الفاتحة ويلبسها الشيخُ بيده المريدَ قاصدًا بذلك الإنابة عن الله تعالى ورسوله، ثم يذكر له نيتها كأن يقول ألبسكها كما ألبسنى إياها شيخى فلان إلى آخره»[٥٥].

وكما قلنا إن مشايخ الطرق يرفعون سلسلة خرقتهم للإمام على رضى الله عنه حتى أن العلامة ابن خلدون يقول فى مقدمته بدون لف أو دوران: «إن الصوفية نقلوا نظامهم عن التشيع، حتى أن الصوفية لما أسندوا لباس خرقة التصوف ليجعلوه أصلا لطريقتهم ونحلتهم رفعوه إلى على رضى الله عنه»[٥٦].

وبالطبع فإن كلام العلامة ابن خلدون به مبالغة شديدة فإنها تأثيرات ضعيفة لا ترقى إلى درجة أن يقول الأستاذ العلامة أنهم نقلوا نظامهم الصوفى عن التشيع.

وحديث ابن خلدون سيجرنا بالطبع إلى الحديث عن صلة التصوف بالتشيع.

صلة التصوف بالتشيع:

يلاحظ بعض الباحثين أن هناك التقاءً فى كثير من الأقطار بين التشيع والتصوف، إذ الدين لدى الفريقين طاعة رجل، فالمرجع فى أحكام الدين لدى الشيعة هو الإمام كما أن من لم يكن له شيخ على حد تعبير البسطامى فشيخه الشيطان، ومصدر العلم لدنى أو إلهى لدى الفريقين، وقد أثبت الشيعة العصمة لأئمتهم كما أثبت الصوفية الحفظ لشيوخهم[٥٧]، ثم استقى الصوفية عن الشيعة فكرة الباطنية وأركانها من الغوث والقطب والأوتاد والأبدال والنجباء، وفى ذلك يشير ابن خلدون إلى أن الصوفية المتأخرين قد خالطوا الاسماعيلية وأشرب كل واحد منهم مذهب الآخر واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم[٥٨].

ويحدثنا بعضهم عن الصلة بين التصوف والتشيع[٥٩] فيقول: «والواقع أن الصلة وثيقة بين التشيع والتصوف، فعلىٌّ هو معبود الشيعة، وهو إمام الصوفية، أليس هو الذى أشار إلى العارفين حين قال لكميل بن زياد: أولئك الأقلون عددا الأعظمون عند الله قدرا، هجم بهم العلى على حقيقة الأمر

---

(٥٤) عوارف المعارف للسهروردى ص ٧٥ وظهور الحقائق ص ٢٢

(٥٥) ظهور الحقائق للعطاس ص ٣١

(٥٦) مقدمة ابن خلدون ٤١٣ وذكر النص أيضا الأستاذ الدكتور سعيد عاشور فى كتابه عن السيد البدوى ص ٢٥

(٥٧) الصوفية وأصحاب الطرق على الخصوص نفوا العصمة عن شيخ الطريق.

(٥٨) بحث عن التصوف: ايجابياته وسلبياته للاستاذ الدكتور أحمد صبحى بمجلة الفكر العربى ص ٣٧٥.

(٥٩) التصوف الاسلامى فى الأدب والأخلاق: الجزء الثانى للدكتور زكى مبارك ٣٣، ٣٤.

فباشروا حقيقة اليقين(٦٠) وقد حدثوا أن الجنيد أخذ الطريقة عن خاله سرى السقطى، وكان أخذها عن معروف الكرخى، ومعروف الكرخى أخذها عن على بن موسى الرضا»(٦١).

ويذكر أن «طبيعة الأشياء توجب أن يقترب التشيع والتصوف، فالشيعة انهزموا فى ميدان السياسة، والصوفية انهزموا فى ميدان الحياة(٦٢)، والاشتراك فى الهزيمة يقرب بين النفوس... ومما يقارب بين المذهبين أن الشيعة والصوفية يؤمنون بالأسرار ويبحثون عن النجاة فى العوالم الغيبية، ولذلك تشابهت أوهامهم وظنونهم وأمانيهم، وتقاربهم فى مذاهبهم المعيشية والاجتماعية، وصرت ترى لديهم سمائل مشتركة فى تناول الأشياء وفهم الحياة والناس»(٦٣).

ورأينا أن التأثيرات الشيعية ضعيفة فى التصوف خصوصا فى تصوف أصحاب الطرق الصوفية كما قلنا، وهذه التأثيرات الشيعية الضعيفة فى التصوف وفى تصوف الطرق الصوفية على الأخص مبعثها إلى أن كل مشايخ الطرق الصوفية فى مصر ينتهى نسبهم إلى الإمام على(٦٤) المثل الأعلى للشيعة والصوفية، وإذا كان حب الإمام على رضى الله عنه يسهل عند البعض إبراز آثار شيعية فى الفكر الصوفى، فإن المسلمين جميعا يشاركون الشيعة فى حبهم الإمام على وآل البيت جميعا. فقد آخى النبى ﷺ بينه وبين الإمام على رضى الله عنه ثم إن عليا رضى الله عنه زوج ابنته البتول السيدة فاطمة الزهراء ووالد ريحانتى رسول الله ﷺ الحسن والحسين.

ألم يقل رسول الله ﷺ فيما ذكره – البخارى ومسلم – فى حديث الغدير «من كنت مولاه فهذا على مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» وقال رسول الله ﷺ: «إن عليا منى وأنا منه وهو ولى كل مؤمن» [حديث صحيح] وقول على نفسه: (فو الذى برأ النسمة إنه لعهد النبى إلىّ لا يحبنى إلا مؤمن ولا يبغضنى إلا منافق)(٦٥).

وقال رسول الله ﷺ: «على أخى فى الدنيا والآخرة» [رواه الطبرانى فى الكبير] وقال رسول الله ﷺ: «على مع القرآن والقرآن مع على لن يتفرقا حتى يردا على الحوض» [رواه الحاكم فى المستدرك عن أم سلمة].

إن المسلمين سنة وشيعة يتشاركون فى حبهم العظيم للإمام على كرم الله وجهه وكون الصوفية يجعلون على رأس سندهم وقمة سلسلتهم الإمام على كما يفعل الشيعة لا يجعلنا نغالى فى الأمر فنتهم الصوفية بأنهم أخذوا نظامهم فى التصوف عن التشيع.

الحق أن رأى العلامة ابن خلدون ومن نحا نحوه فى هذا فيه كثير من المغالاة الزائدة.

(٦٠) نقلها المرحوم الدكتور زكى مبارك عن رسائل إخوان الصفا جـ١ ص ٢٩٨.
(٦١) النجوم الزاهرة جـ٨ ص ١٦٩.
(٦٢) هذه فكرة خاطئة سنناقشها فى موضعها المناسب من هذا الكتاب.
(٦٣) التصوف الاسلامى فى الأدب والأخلاق جـ٢ ص ٣٥.
(٦٤) عدا طريقة واحدة هى الطريقة النقشبندية فينتهى نسب مشايخها إلى أبى بكر الصديق
(٦٥) ضحى الإسلام للأستاذ المرحوم أحمد أمين جـ٢ ص ١٢٢.

ثانيا - الذكر:

إذا كانت الخرقة من خصائص الطرق الصوفية ومميزاتها الظاهرة، فإن الذكر أيضا من أهم تلك الخصائص والمميزات.

وآيات القرآن الكريم تبين فى إشراق تام فضل الذكر.. يقول العلى القادر فى كتابه العزيز: ﴿فاذكرونى أذكركُمْ﴾(٦٦) ويقول: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾(٦٧) ويقول: ﴿يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا. وسبحوه بكرة وأصيلا﴾(٦٨) ويقول: ﴿والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما﴾(٦٩).

وفى الحديث القدسى الذى رواه البخارى ومسلم (أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حين يذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه، وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا وإن اقترب إلى ذراعا اقتربت إليه باعا، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة)(٧٠).

وأخرج الحاكم عن البراء مرفوعا: (من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير عشر مرات فهو كعتق نسمة)(٧١).

وأخرج ابن جرير فى تفسيره عن قتادة قال: (افترض الله ذكره عند أشغل ما تكونون، عند الضراب بالسيوف. فقال: ﴿يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون﴾. (آية ٤٥ - الأنفال).

سند الصوفية فى تلقين ذكر الله تعالى:

أخرج الإمام الحافظ جلال الدين السيوطى بعدة أسانيد أن الإمام على كرم الله وجهه قال: سألت رسول الله ﷺ: فقلت يا رسول الله دلنى على أقرب الطرق إلى الله عز وجل، وأسهلها على العباد، وأفضلها عند الله تعالى؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا على: عليك بمداومة ذكر الله تعالى سرا وجهرا» فقال على رضى الله عنه: كل الناس ذاكرون، وإنما أريدك أن تخصنى بشىء، فقال رسول الله ﷺ: «يا على: أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى، (لا إله إلا الله)، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع وضعن فى كفة، و (لا إله إلا الله) فى كفة لرجحت»، ثم قال رسول الله ﷺ. «يا على: لا تقوم

---

(٦٦) الآية ١٥٢ من سورة البقرة.

(٦٧) الآية ٢٨ من سورة الرعد.

(٦٨) الآيتان ٤١، ٤٢ من سورة الأحزاب.

(٦٩) الآية ٣٥ من سورة الأحزاب.

(٧٠) متفق عليه من حديث أبى هريرة.. رواه البخارى ومسلم وذكره الإمام الشهيد حسن البنا فى كتاب المأثورات ص ٧.

(٧١) من كتاب أعمال الفكر فى فضل الذكر لجلال الدين السيوطى صفحة ١٠، ١١.

الساعة، وعلى وجه الأرض من يقول (لا إله إلا الله)» فقال علي: كيف أذكر يا رسول الله؟، فقال رسول الله ﷺ: «غمض عينيك واسمع مني (لا إله إلا الله) ثلاث مرات، ثم قل أنت (لا إله إلا الله) ثلاث مرات وأنا أسمع، فقال ﷺ: لا إله إلا الله ثلاث مرات مغمضًا عينيه، رافعًا صوته وعلي يسمع: ثم قال علي رضى الله عنه»(٧٢).

وقال شداد بن أوس كنا عند النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «هل فيكم غريب؟ يعني من أهل الكتاب، قلنا: لا، يا رسول الله، فأمر بغلق الباب، وقال: ارفعوا أيديكم، وقولوا لا إله إلا الله، فرفعنا أيدينا وقلنا: لا إله إلا الله، ثم قال: الحمد لله، اللهم إنك بعثتني بهذه الكلمة، وأمرتني بها، ووعدتني عليها الجنة، إنك لا تخلف الميعاد، ثم قال: ﷺ: ألا أبشروا فإن الله قد غفر لكم»(٧٣).

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن فوائد الذكر نستطيع أن نقول مع الإمام القشيري: ذكر الله بالقلب سيف المريدين، به يقاتلون أعداءهم، وبه يدفعون الآفات التي تقصدهم، وإن البلاء إذا أكل العبد. فإذا فزع بقلبه إلى الله يحيد عنه في الحال كل ما يكرهه..، وقال ذو النون المصري: من ذكر الله تعالى ذكرًا على الحقيقة، نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضا من كل شيء(٧٤)، ويقول الشعراني: أجمعوا - يقصد أهل الطريق - على أن الذكر إذا تمكن من القلب صار الشيطان يصرع إذا دنا من الذكر كما يصرع الإنسان إذا دنا من الشيطان، فيجتمع عليه الشياطين فيقولون: ما باله. فيقال: إنه دنا من ذاكر فصرع(٧٥).

وعلى ذلك فقد اعتمد سند تلقين الصوفية لمريدهم على سند تلقين الرسول ﷺ (لا إله إلا الله) جماعة وفرادى.

والذكر من أهم الوسائل إلى الوصول إلى الله تعالى، يقول القشيري في رسالته: «الذكر ركن قوي في طريق الوصول إلى الحق سبحانه وتعالى بل هو العمدة في طريق القوم، ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر»(٧٦).

ويقول الفخر الرازي: «فائدة الذكر إزالة الظلمة البشرية، فحضرة الربوبية منبع الأنوار، فلا جرم كان الاشتغال بحضرة ذي الجلال يفيد وصول أنوار الربوبية إلى باطن القلب، فتزول به ظلمات البشرية عن القلب والروح»(٧٧).

ويعبر التستري عن خلاصة درسه الأول في حديثه عن الذكر بأنه: «العلم بأن الله يراك فتشاهده،

---

(٧٢) رواه النسائي وابن حبان والحاكم والغزالي في الأحياء جـ١ ص ٣٠٥.

(٧٣) عن يعلى بن شداد رواه أحمد وفيه راشد بن داود وقد وثقه غير واحد به ضعف وبقية رجاله ثقات (مجمع الزوائد: جـ١٠ ص ٨١).

(٧٤) الرسالة القشيرية ص ٤٦٦.

(٧٥) الأنوار القدسية في آداب العبودية للشعراني ص ١٢٥.

(٧٦) الرسالة القشيرية ص ٢١٢.

(٧٧) لوامع لواقح البيانات للفخر الرازي ص ٢

قريبًا منك ومن قلبك. وتفضله على نفسك وعلى جميع أحوالك»[٧٨].

ويتحدث التسترى عن ثلاثة أنواع من الذكر: النوع الأول: ذكر باللسان، والثانى: ذكر بالقلب. أما النوع الثالث: فهو ذكر الخاصة، وهو الذكر الموصل. والنوعان الأولان يدخلان فى نظر التسترى فى دائرة (المقطوع)، والثالث وحده هو المباشر الموصول الذى لا يقدر عليه إلا النخبة الممتازة فى الحياة الروحية، إن هذا النوع الخاص من الذكر هو واجب «كلية القلب» بوقوفه مستسلمًا فى حضرة الله الدائمة[٧٩].

وذكر الله دائمًا ذكرًا حقيقيًا يجعل الذاكر يستغرق بكليته فى الله، فإذا ذكر الصوفى الله استغرق فيه بكليته، وحضر مع الله بجمعيته، فلم يشتغل بما سواه، ولم يغفل عنه حتى يستولى جلال الله على قلبه بعد أن غاب الذاكر فى ذكره، حينئذ ينكشف له بصحة وبال الغفلة، ويمحى من قلبه أثر كل علاقة وعلة، لأن تعلق القلب بالله يجعله فارغًا عن كل ما سواه، فالذّكر وسيلة لتخلية القلب عن كل هم، أو بالتعبير الفلسفى وسيلة لانفصال الذات عن كل موضوع خارجى، أو عن التعلق برغبة ما[٨٠].

وللذكر جانبان: «جانب سلبى يفرغ فيه القلب من كل هم» فما من زاد يتزوّد به السالك لمكابدة الأهواء، ومجاهدة الشهوات مثل الذكر، وما من وسيلة لتطهير القلب من كل هم إلا بالذكر، وذلك هو الجانب الروحى فيه، وهو الجانب الإيجابى[٨١].

وإذا أردنا[٨٢] أن نكون صورةً صحيحةً عن التدرج الطبيعى للتطور السيكولوجى لظاهرة الذكر، وجدنا أنه يبدأ من القاعدة إلى القمة، ومن الظاهر إلى الباطن، فى نفس الوقت.. من القاعدة إلى القمة بكبح النفس ونوازعها، ثم إزالة آثارها وترك القلب أو البصيرة أو الروح تحلق فى الملأ الأعلى، ومن الظاهر إلى الباطن باختراق حجب القلب فى كليته التى تقابل تمامًا ما يطلق عليه «يونج». اللاشعور المطلق، أو Collective unconsious ومعنى ذلك: أنه يمكن أن نرى فى الطور الناضج للذكر جانبى الفناء والبقاء، أو الموت والحياة، موت الآثار الفردية الخاصة بالإرادة المعنية بالأنانية، وحياة الروح التى تعيش مباشرة مع الله: أى أن هناك إخلاءً لعناصر معينة، وإحلالاً لأخرى مكانها حتى تعتاد النفس حياتها الروحية الرتيبة، التى تنقلب بعد ذلك إلى مجرد تلق من مصدر أسمى، إذ أنه ليس بها ما يمثل هذا الفرد بعينه، بل فيها ما ينطق أو ما يصدر عن الله فقط، وعلى ذلك يمكننا أن نفهم عبارات صوفية تتحدث عن الذكر، ويعرف ذلك لدى بعض صوفية القرن الثالث الهجرى «بالغيبة بالمذكور عن الذكر».

---

(٧٨) من التراث الصوفى: سهل عبد الله التسترى: الدكتور محمد كمال جعفر جـ١ ص ١٩٣.

(٧٩) من التراث الصوفى: سهل عبد الله التسترى: للدكتور كمال جعفر. الجزء الأول ص ١٩٣، ١٩٤.

(٨٠، ٨١) الفلسفة الأخلاقية فى الإسلام. الدكتور صبحى ص ٢٥٣.

(٨٢) التصوف طريقًا ومذهبًا: للدكتور محمد كمال جعفر ص ٢٢٧.

أنواع الذكر:

للذكر عدة أنواع: منه، ما هو ثناء على الله، مثل، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ومنه، ما هو دعاء مثل،: «ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا»، ومنه، ما هو مناجاة، مثل، موقف المصلى فى الصلاة، فإن الصلاة مناجاة. ومنه، ما هو للرعاية فى الدنيا، مثل، طلب حماية الله، والنصر على الأعداء والشيطان، ومنه، ما هو للرعاية الأخروية كطلب زيادة الدرجات[٨٣].

ويعتبر ابن عطاء الله السكندرى الصلاة على النبى ﷺ نوعًا من الذكر فيقول[٨٤] قال تعالى فى كتابه العزيز: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾، ومن هنا فإنا نعتبر الصلاة على النبى ذكراً وفى الحديث الشريف «الصلاة على النبى نور»[٨٥].

أحكام الذكر:

ينبغى إخراج كلمة (لا إله إلا الله) من مخارجها الصحيحة السليمة، ونطقها نطقًا لغويًا سليمًا، فأخص وأدل أذكار الصوفية هى لفظ الجلالة (الله) و«لا إله إلا الله»، وينبغى على المريد نطقها نطقًا سليمًا.،. فأحكام الذكر «تتلخص فيما نص عليه الفقهاء وهى إخراج الكلمة، وضبط نقطها اللغوى، وهى موضع الصدق والعزيمة، ويلزم ذلك المتعلم والتشديد عليه، وأما التخفيف وعدم مراعاته العزيمة مع إرادة وجه الله وموضع صدق النية والإخلاص بنهوض السر والاتجاه إلى الله وحده دون سواه فذاك رخصة للعوام، على قدر طاقتهم تيسيرًا لهم، فالعزيمة للخواص والرخصة للعوام، لأننا إذا شددنا على العوام حرمناهم من فضل الذكر، وفى الحديث الشريف «يسروا ولا تعسروا».

أدب الذكر:

ذكر العارفون آدابًا كثيرة للذكر أهمها وأولاها بالرعاية[٨٦]:

١ – الخشوع والتأدب، واستحضار معانى الصيغ، ومحاولة التأثر بها، وملاحظة مقاصدها وأغراضها.

٢ – خفض الصوت ما أمكن ذلك مع اليقظة والهمة الكاملة حتى لا يشوش على غيره.

وقد أشارت الآية الكريمة إلى هذه الآداب فقال تعالى: ﴿واذكر ربك فى نفسك تضرعًا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين﴾[٨٧].

---

(٨٣) مفتاح الفلاح لابن عطاء الله السكندرى ص ٣.

(٨٤) المرجع السابق ص ٢٨:

(٨٥) هناك صيغ: استعملها أصحاب الطرق ذكرت بعضها عند الحديث عن تراثهم.

(٨٦) أتمنى من أتباع الطريق ملاحظة ذلك ملاحظة جيدة.

(٨٧) الآية ٢٠٥ من سورة الأعراف.

٣ - موافقة الجماعة إن كان الذكر مع جماعة، فلا يتقدم عليهم، ولا يتأخر عنهم، ولا يبنى على قراءتهم، بل إن حضر وقد بدأوا، ابتدأ معهم من أول صيغة، ثم قضى ما فاته بعد انتهائه، وإن تأخر عنهم فى أثناء القراءة، قرأ ما فاته وأدركهم، ولا يبنى على قراءتهم أصلًا، لئلًا يكون بذلك قد حرف القراءة، وغيرّ الصيغ وذلك حرام اتفاقًا.

٤ - النظافة فى الثوب والمكان، ومراعاة الأماكن المحرَّمة والأوقات المناسبة.

٥ - الانصراف فى خشوع وأدب، مع اجتناب اللغط واللغو اللذين يذهبان بفائدة الذكر وأثره.

أما الإمام الشعرانى فقد لخص فى كتابه الأنوار القدسية آداب الذكر(٨٨) قال: إن الأشياخ عددوا للذكر ألف أدب ثم قالوا: ويجمع هذه الآداب كلها عشرون أدبًا للذكر، من لم يتحقق بها فبعيد عليه الفتح، خمسة منها سابقة على الذكر، واثنا عشر حالاً للذكر، وثلاثة بعد الفراغ من الذكر.

فأما الخمسة السابقة فأولها: التوبة النصوح.،. الثانى: الغسل أو الوضوء كلما أراد الذكر، الثالث: السكون والسكوت ليحصل له الصدق فى الذكر، وذلك أن يشغل قلبه بالله، الله، الله بالفكر دون اللفظ، حتى لا يبقى خاطر مع الله، ثم يوافق اللسان القلب، يقول: (لا إله إلا الله) «يفعل ذلك كلما أراد الذكر.. الرابع: أن يستمد عند شروعه فى الذكر بهمة شيخه بأن يشخصه بين عينيه ويستمد من همته ليكون رفيقه فى السير.

الخامس: أن يرى استمداده من شيخه هو استمداده حقيقة من رسول الله ﷺ لأنه واسطة بينه وبينه.

أما الآداب الاثنا عشر التى ينبغى على الذاكر اتباعها حال الذكر فنختار منها أهم هذه الآداب.

الأول: الجلوس على مكان طاهر.

الثانى: أن يضع راحتيه على فخذه، واستحبوا جلوسه للقبلة إن كان يذكر وحده، وإن كانوا جماعة تحلقوا.

الثالث: تطييب مجلس الذكر بالرائحة الطيبة.

الرابع: يغمض العينين، وذلك أن الذاكر إذا أغمض عينيه تسد عليه طرق الحواس الظاهرة شيئًا فشيئًا، وسدها يكون سببًا لفتح حواس القلب.

الخامس: أن يتخيل الشخص شيخه بين عينيه ما دام ذاكرًا، وهذا عندهم من آكد الآداب، لأن المريد يترقى منه إلى الأدب مع الله والمراقبة له.

السادس: أن يختار من صيغ الذكر لفظة (لا إله إلا الله)، فإن لها أثرًا عظيًما عند القوم لا يوجد فى غيرها من سائر الأذكار، فإن فنيت شهواته وأهويته كلها فحينئذ يصلح أن يذكر الله تعالى بلفظ

(٨٨) الأنوار القدسية للشعرانى ص ٣٦ وما بعدها بتصرف محدود.

الجلالة فقط، من غير نفى، وما دام يشهد شيئًا من الأكوان فَذِكْر الله تعالى بالنفى والإثبات واجب عليه فى اصطلاحهم.

السابع: تفرغ القلوب من كل موجود حال الذكر سوى الله يقول: لا إله إلا الله: فإن الحق تعالى غيور لا يحب أن يرى فى قلب الذاكر غيره، ولولا أن للشيخ مدخلًا عظيمًا فى تأديب المريد، ما ساغ للمريد أن يتخيل شخصه بين عينيه لا فى قلبه، وإنما شرطوا نفى كل موجود من الكون ليتمكن له تأثير قول: لا إله إلا الله بالقلب، ثم يسرى المعنى إلى سائر الجسد، وأجمعوا على أنه يجب على المريد أن يذكر بقوة تامة بحيث لا يبقى منه متسع ويهتز من فوق رأسه إلى أصبع قدميه، وهى حالة يستدلون بها على أنه صاحب همة.

وأما الثلاثة الآداب التى بعد الذكر فهى :

١ – أن يسكت بعد سكون وتخشع، ويحضر مع قلبه مترقبًا لوارد الذكر.

٢ – أن يذم نفسه مرارًا بقدر ثلاثة أنفاس إلى سبعة أنفاس وأكثر حتى يدور الورد فى جميع عوامله فتنور بصيرته، وتقطع عنه خواطر النفس والشيطان وتكشف عنه الحجب، وهذا كالمجمع على وجوبه عندهم.

٣ – منع شربه الماء البارد عقب الذكر، فإن الذكر يورث حرقة وهيجانًا وسوقًا إلى المذكور الذى هو المطلوب الأعظم من الذاكر، وشرب الماء يطفئ تلك الحرارة.

هذه هى أهم آداب الذكر، وهناك بعض الملاحظات التى نلمسها فى أذكار الطرق الصوفية فمثلًا (يلاحظ أن لكل طريقة نوعًا من الأذكار والأوراد والأحزاب يرددها المريدون سواء فى مجالسهم أو فيما بينهم وبين أنفسهم)(٨٩).

وسنتحدث عن الأحزاب والأوراد فى مكانها المناسب من هذا الكتاب إن شاء الله.

الإمام ابن تيمية ومجالس الذكر

أنكر الإمام ابن تيمية مجالس الذكر فى جماعة، وعدها بدعة وقال: إنه لم يكن على عهد الرسول ﷺ أو صحابته مجالس ذكر. وقال إن كان هناك مجالس ذكر حقيقية فهى مجالس تعليم القرآن، ومدارسة الحديث والفقه والإرشاد والتوجيه لما فيه صالح المجتمع فى الدنيا والآخرة.

وللرد على العلامة الجليل الإمام ابن تيمية رحمه الله نقول: إن النبى ﷺ والمسلمين فى صدر الإسلام كانوا مسغولين بتأسيس الدولة الإسلامية، ونشر دين الله فى كل مكان، ومحاربة الكفار والمرتدين، فلم يكن هناك وقت عندهم لمجالس الذكر فى جماعة، فلما تم نصر الله، وانتشر الإسلام شرقًا وغربًا، وبدأ تأثير الحضارات الأخرى فى الثقافة العربية، واشتغل فريق من المسلمين بالثروة والجاه وحب الزينة

(٨٩) الحياه الروحية فى الإسلام للمرحوم الأستاذ الدكتور مصطفى حلمى ص ٥٦.

اعتزل فريق آخر زينة الحياة الدنيا، واتجه إلى زهدها مثل الحسن البصرى، وكان يدرس للناس فى المسجد ويفقههم فى أمور دينهم ودنياهم وتطور الأمر وأصبح له مجلس ذكر، وهو يعد أول مؤسس لمجالس الذكر.

وقد يكون الإمام العظيم ابن تيمية مجافيًا للحق فى اعتباره مجالس الذكر بدعة، فها هو ذا رسولنا الكريم ﷺ يقول: «ما من قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده». وقال أيضًا ﷺ: «يقول الرب يوم القيامة سيعلم الجمع من أهل الكرم: فقال: ومن أهل الكرم يا رسول الله، قال: أهل مجالس الذكر فى المساجد»(٩٠).

وأخرج الترمذى ومسعد وابن أبى شيبة وأحمد والنسائى وابن حبان عن معاوية رضى الله عنه: أن النبى ﷺ، خرج على حلقة من أصحابه، فقال ما أجلسكم؟ قالوا جلسنا نذكر الله ونحمده فقال: أتانى جبريل فأخبرنى أن الله يباهى بكم الملائكة.

من ذلك كله نستطيع أن نقول بوضوح: إن مجالس الذكر ليست بدعة أبدًا كما قرر الإمام ابن تيمية رضى الله عنه، وإنما هى ارتفاع بالإنسان فوق الماديات وسمو لروحه، وجلاء لقلبه، وطهر لنفسه.

وقد يكون مما حمل الإمام الفاضل ابن تيمية على إنكاره مجالس الذكر أنه وجد على أيامه تلك الحلقات الغريبة عن مجالس الذكر الحقيقى التى ابتدعها بعض المنتسبين إلى الطريق ظلمًا، ويوجد مثله الكثير حتى يومنا هذا.

ويحذر الباحثون من حركات الذكر البهلوانية التى يصطنعها ويجيدها بعض مدعى التصوف، وتلك الأصوات العالية التى ترتفع من الأفواه ولا تتجاوز الحناجر إلى ما وراءها، إنما يراد بالذكر أن يكون المؤمن على صلة دائمة بالله فى عباداته وفى عمله، وفى خلوته، وحين يكون مع الناس. فهذا الذكر هو الذى يجعل المؤمن يستحى من ربه فلا يغفل عن مراقبته، ولا يجرؤ على معصيته، ولا يقصر فيما أوجب عليه، وهو فى حالاته كلها ممتلىء القلب بالخشوع لله والامتثال له والحياء منه(٩١).

إن ما أود أن أقوله حقيقة، إن طريقة الذكر أصبحت تسىء إلى التصوف والطرق الصوفية، بل فى رأيى أنها الآن الشرخ الواضح الذى أحدثه الأدعياء من المريدين والأتباع فى الطرق الصوفية فنحن نرى مثلا حلقات الذكر بالألحان والإيقاعات والدف والبندير والصياحات الغريبة التى شوهت ذكر الله تعالى، حتى أننا رأينا أن طريق الذكر تعنى الشكل الإيقاعى الذى يكون عليه إنشاد ذكر الله. وهو إيقاع جماعى للفظة الجلالة، و(لا إله إلا الله) أو (الله حى) ويتخللها إيقاعات وألحان أخرى لقصائد دينية.

كما رأينا حين دراسة طريقة الذكر فى الطرق الصوفية أن الطريقة قسمان: أحدهما يسمى الأرضية،

---

(٩٠) رواه الترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة وأبى سعيد.

(٩١) مجلة منبر الإسلام (عدد شعبان ١٣٨٦ هـ) ص ١١٢ مقالة الأستاذ الدكتور مصطفى زيد وذكرها الأستاذ الدكتور شلبى فى كتابه الحياة الاجتماعية فى الفكر الإسلامى ص ٢٠٥.

وهو أن تجعل أبياتا من الشعر ملحنة تلحينا موزونا ثم يقاس عليها تلحين (لا إله إلا الله)، أو أن يلحن الذكر وتقاس على تلحينه أبيات من الشعر، فينشد الرئيس لحن الأبيات من صيحات نغم الذكر، ويردد الذكر من سجاحات تلك النغم، أى قراءتها. والقسم الثانى أن يجعل اللحن فى الأبيات فقط وأن يحتفظ بأزمنة النغم حتى لا يخرج المنشد عن الإيقاع، ويستعمل فى هذه الطريقة آلات الإيقاع الدف والبندير والتصفيق.

وهكذا أصبحت طريقة ذكر الله تعالى.. إنشادًا على إيقاعات وألحان يهتز ويتمايل على دقاتها الأتباع والإخوان الأدعياء مما أساء للطرق الصوفية إساءة بالغة وأصبحت طريقة ذكر الطرق الصوفية ثغرة ينفذ منها أعداء التصوف.

إن الذكر بهذه الطريقة المنحرفة ليس ذكرًا لله تعالى، وإنما مجرد رقص وهز للأجساد والأرداف، يمثل انحرافًا خطيرًا عن الطريقة المثلى لرواد الطرق وأصحابها الأجلاء، الذين لم يأمروا أتباعهم قط بعمل هذه الحركات المستنعة وإنما أمروهم بذكر الله ذكرًا سليمًا صحيحًا، وعلموهم آداب الذكر وألزموهم باتباعها، ولكن الدخلاء على الطريق شوهوا صورة الذكر الجميل، وأضافوا إليه وجرحوه...، وأصبح الذكر الذى هو أصل زينة الطريق فرصة استغلها أعداء التصوف، والطرق الصوفية.

وإنها لدعوة صريحة خالصة لوجه الله تعالى لمريدى وأتباع الطرق الصوفية: ينبغى ألا يكون ذكر الله بهذا التشويه المشاهد والمعروف.

وإذا كنا حقيقة نحتاج إلى ثورة روحية تبدأ من عمق العمق، فإن المؤلف يناشد حوالى خمسة ملايين مصرى يمثلون أكبر حزب، وأكبر دائرة فى مصر أن يطهروا الطريق مما حسب عليه ومن هؤلاء الدخلاء عليه من المرتزقة والمنتفعين وهم أعداء الطريق بحق.

وبالطبع فإن الحديث عن الذكر يجرنا إلى الحديث عن السماع.

ثالثا - السماع:

يقصد بالسماع الغناء والموسيقى - وهى الضابط للإيقاع - وإنشاد الشعر والمنظومات، والغناء والرقص والتمايل وهى من أقسام السماع وبالطبع: إذا كان السماع بهدف اللعب بالغرائز والشهوات فهو منهى عنه، وخاصة رأى أئمة المسلمين المجتهدين هو التحرز من السماع والإقلال منه خوفا من أن يؤدى إلى شرور النفس وفسادها، أما الإباحة، فللمستمع الذى تتوفر فيه الرغبة فى الطاعات وتذكره بما أعده الله لعباده المتقين من الدرجات فى الجنة[٩٢].

فأبو حنيفة النعمان رضى الله عنه يجعل السماع من الذنوب، وكذلك صح عن مالك رضى الله عنه إنكار السماع وكراهته، والشافعى رضى الله عنه يجعله للعوام مكروها، ولا يلحقه بالمحرمات، بل كان يجعله مما يسقط المروءة، والإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ينهى عنه من حيث الورع.

---

(٩٢) أبو الحسن الشاذلى. للأستاذ على سالم عماد حـ ٢ ص ١٥٢.

ويوضح هذه الآراء الشيخ عبد القادر الأربلى صاحب كتاب حجة الذاكرين ورد المنكرين(٩٣) السماع عند (الشافعية): هو مكروه، ويشبه الباطل، وترد شهادة محله، (وعند المالكية): يجب على ولاة الأمور زجرهم ومنعهم وإخراجهم من المساجد إن كانوا يفعلون فى المسجد، وعند الحنابلة لا يصلى خلفهم ولا تقبل شهادتهم، وعقد النكاح على يدهم فاسد، ويقولون: إن سعيد بن المسيب مشى ودار وسقط فى حال الذكر فى عقد رسول الله ﷺ فقال ﷺ: اذبحوه، فقصدوا ذلك ثم قال: لا تذبحوه ولكن ألقوا عليه بهذا العمود لا أبرح من مكانى هذا حتى أجدد إيمانه، ويقولون: أول من أحدث الرقص (السامرى) حين اتخذ لهم العجل هكذا قال الطرطوشى، ويقيسون ويشبهون دورانهم وفعلهم على فعل المشركين ودورانهم فى أيام كفايتهم، ويستدلون بحديث من تشبه بقوم فهو منهم.

وقد ذكرنا من قبل رأى إمام الحنفية وقلنا: إن أبا حنيفة النعمان رضى الله عنه لم ينكر السماع فقط بل جعله من الذنوب.

ويقول الإمام العز بن عبد السلام وهو أحد فقهاء القرن السابع الهجرى: إن السماع ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١ – منها ما هو حرام محض: وهو لأكثر الناس من الشباب. ومن غلبت عليهم شهواتهم ولذاتهم، وملكهم حب الدنيا، وتكدرت بواطنهم، وفسدت كل مقاصدهم، فلا يحرك السماع منهم إلا ما هو الغالب عليهم، وعلى قلوبهم من الصفات الذميمة سيما فى زماننا هذا(٩٤)، وتكدر أحوالنا، وفساد أعمالنا.

٢ – ومنها ما هو مباح لمن لاحظ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن واستدعاء السرور والفرح، أو يتذكر غائبا أو ميتا فيثير حزنه فيروح بما سمعه.

ومنها ما هو مندوب: وهو لمن غلب عليه حب الله تعالى والشوق إليه، فلا يحرك السماع منه إلا الصفات المحمودة، وتضاعف الشوق إلى الله سبحانه وتعالى(٩٥)، وبعد ذلك يقول الإمام العز بن عبد السلام: ومجمل القول فى ذلك أن من سمع فظهرت عليه صفات نفسه، وتذكر به حظوظ دنياه، فاستثار بسماعه وسواس هواه، فالسماع عليه حرام محض، ومن سمع فظهر له ذكر ربه وخوفه من ذنبه وذكر آخرته، فأتيح له ذلك الذكر شوقًا إلى الله تعالى وحبًّا فيه ورجاءً لوعده وخوفًا من وعيده فسماعه ذكر من الأذكار مكتوب فى صحائف الأبرار(٩٦).

وقد كتب الشيخ عبد الغنى النابلسى الحنفى أحد فقهاء القرن التاسع الهجرى رسالة عن الموسيقى والغناء التى استدل بها القائلون بالتحريم – على فرض صحتها – مقيدة بذكر الملاهى، وبذكر الخمر، والقينات والفسوق والفجور، ولا يكاد حديث يخلو من ذلك، وعليه كان الحكم عنده فى سماع الأصوات والآلات المطربة أنه إذا اقترن بشىء من المحرمات، أو اتخذ وسيلة للمحرمات، أو أوقع فى

(٩٣) حجة الذاكرين ورد المنكرين للشيخ عبد القادر الأربلى – طبعة جريدة الإسكندرية سنة ١٢٩٩. ص ٥.

(٩٤) القرن السابع الهجرى: وهو شبيه بما يحدث الآن فى معظم ما نسمعه

(٩٥، ٩٦) كتاب حل الرموز ومفاتيح الكنوز أو «بين الشريعة والحقيقة» للعز بن عبد السلام ص ٢٨، ٢٩ على التوالى

المحرمات، كان حرامًا. وأنه إذا سلم من كل ذلك كان مباحا فى حضوره وسماعه وتعلمه، وقد نقل عن النبى ﷺ، ثم عن كثير من الصحابة والتابعين والأئمة والفقهاء أنهم كانوا يسمعون ويحضرون مجالس السماع البريئة من المجون والمحرمات(٩٧).

والمرحوم الشيخ محمود شلتوت ذكر هذا التلخيص لتلك الرسالة وعلق عليه بقوله: إن هذا يوافق تماما فى المغزى والنتيجة الأصل الذى قررناه فى موقف الشريعة بالنسبة للغناء والموسيقى، وعلى هذا فسماع الآلات أو الأصوات الجميلة لا يمكن أن يحرم باعتباره صوت آلة أو صوت إنسان. وإنما يحرم إذا استعين به على محرم أو اتخذ وسيلة إلى محرم أو ألهى عن واجب(٩٨).

ويقول صاحب كتاب التمكين فى شرح منازل السائرين: «وحكم السماع سرعا: يتبع ما تعلق به، إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا، فإن كان المقصود بالسماع حب الله تعالى والتبتل إليه والازدياد من الإيمان به والتحبب إليه. فأنعم به من سماع ا، وإن كان السماع مثيرًا للهوى موقظًا لغرائز النفس. ويراد به غير المقصود منه فهو فى مثل هذا المقام فتنة ويحرم»(٩٩).

وهذا هو رأينا الذى نقول به. فإذا كان هدف السماع مجرد اللهو والتسلية واستغال النفس، وانبساطها وسرورها، وفسادها وتقوية الغرائز وامتدادها والتذاذها، فالسماع مكروه محرم، أما إذا كان السماع بعيدًا عن المجون بريئًا من اللهو يرجو منه صاحبه سمو روحه، وارتفاع نفسه بهمته فهو ليس مكروها.

وإذا استعرضنا آراء الصوفية فى السماع فسنجد أن الصوفية كانوا يفتون فيه حسب مفاهيمهم ومشاربهم فى الورع، فمنهم من عده بدعة ضارةً وتحريضًا على الرذيلة فقال بإنكاره. ومنهم من جعل الحكم عليه بحسب ظروفه ومناسباته وأثره، فإن كان الأثر محمودا أجازه وإن كان الأثر سيئا أنكره ونهى عنه، ومنهم. من جعله مندوبًا وقال بإطلاقه(١٠٠).

ورأى الإمام القشيرى أن السماع مباح فى الجملة إذا لم يقصد إلى محظور أو مذموم أو ينخرط فى سلك اللهو.

ويقول الطوسى: «وأهم ما امتاز به الصوفية، هو التحرز فى السماع وهم يكرهون السماع إذا تطرق الغرض منه إلى الفساد والمخالفة واللهو وترك الحدود»(١٠١).

وقد سئل بعض الصوفية عن السماع منهم أبو سليمان الدارانى فقال: وكل قلب يريد الصوت

---

(٩٧) الحياة الاجتماعية فى التفكير الإسلامى: للاستاذ الدكتور أحمد شلبى ص ١٧٥

(٩٨) الفتاوى: للمغفور له الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت ص ٤١٣، ٤١٤، وذكره الاستاذ الدكتور أحمد شلبى فى كتابه الحياة الاجتماعية فى التفكير الإسلامى ص ١٧٥.

(٩٩) التمكين فى شرح منازل السائرين للهروى ص ٥٠.

(١٠٠) كتاب أبو الحسن الشاذلى: لعلى سالم عمار. الجزء الثانى ص ١٥٢.

(١٠١) اللمع: للطوسى ص ٢٧٣، ٢٧٦.

الحسن، فهو ضعيف يداوى، كما يداوى الصبى إذا أريد أن ينام، ثم قال أبو سليمان: إن الصوت لا يدخل فى القلب شيئا. وإنما يحرك من القلب ما فيه(١٠٢).

وسئل ذو النون عن السماع فقال: «وارد حق يوصل القلوب إلى الحق. فمن أصغى إليه بحق تحقق. ومن أصغى إليه بنفسه تزندق»(١٠٣).

ومن الصوفية المعارضين للسماع أبو الحارث الأولاسى، يقول الأولاسى:

«رأيت إبليس – لعنه الله– فى المنام على بعض البلد وأنا على سطح، وعلى يمينه جماعة وعلى يساره جماعة وعليهم ثياب نظاف، فقال لطائفة منهم: قولوا.. فقالوا، وغنوا، فاستفزعنى طيبه أى طيب قوله حتى هممت أن اطرح نفسى من السطح، ثم قال: ارقصوا فرقصوا أطيب ما يكون، ثم قال لى: أيا أبا الحارث. ما أصبت شيئا أدخل به عليكم إلا هذا» (١٠٤).

وقيل رأى بعضهم النبى ﷺ فى المنام فقال: الغلط فى هذا أكبر، يعنى به السماع(١٠٥).

ومن الصوفية القائلين بالسماع الشبلى الذى قال حين سئل عن السماع: السماع ظاهره فتنة، وباطنه عبرة، فمن عرف الإشارة حل له استماع العبرة. وإلا فقد استدعى الفتنة، وتعرض للبلية(١٠٦).

وقال بعضهم: السماع لطيف غذاء الأرواح لأهل المعرفة، لأنه وصف يدق عن سائر الأعمال، ويدرك برقة الطبع لرقته، ويدرك بصفاء السر لصفائه ولطفه عند أهله(١٠٧).

وعن الكارهين للسماع وغير القائلين به يحدثنا الإمام الطوسى فيقول فى جمال زائد طائفة كرهت ذلك وزعمت أن الذى يتعرض لاستماع الرباعيات لا يخلو من أحد وجهين: إما هم قوم متلهون من أهل الدعاية والفتنة، أو هم قوم وصلوا إلى الأحوال الشريفة وعانقوا المقامات الرضية، وأماتوا نفوسهم بالرياضات والمجاهدات وطرحوا الدنيا وراء ظهورهم، وانقطعوا لله عز وجل فى جميع معانيهم قالوا: ولسنا نحن من هؤلاء ولا من هؤلاء فلا معنى لاشتغالنا بذلك، وترك ذلك أولى بنا. والاشتغال بالطاعات وأداء المفترضات واجتناب المحرمات يشغلنا عن ذلك(١٠٨).

ثم يتابع الطوسى حديثه فيقول: وقوم كرهوا ذلك للمريدين القاصدين والتائبين لعظم ما فيه من الخطر، إن استلذوا ذلك وتابعوا حظوظهم، فتنحل عند ذلك عقودهم، وتنفسخ عزيمتهم، ويركنوا إلى شهواتهم، ويتعرضوا للفتنة، ويقعوا فى البلبلة... وكرهت طائفة أخرى ذلك من جهة أن العامة لا تعرف

---

(١٠٢) الرسالة القشيرية. الجزء الثانى ص ٦٥٦.
(١٠٣) اللمع: للطوسى ص ٣٤٢
(١٠٤، ١٠٥) الرسالة القشيرية· جـ ٢ ص ٦٥٨.
(١٠٦) اللمع للطوسى: ص ٣٤٢ و٣٥٢ و ٣٧٢ و ٣٧٣، على التوالى.
(١٠٧، ١٠٨) اللمع للطوسى: ص ٣٤٢ و ٣٥٢ و ٣٧٢ و ٣٧٣، على التوالى.

مقاصد القوم العامة فيما يسمعون، فربما غلطوا فى مقاصدهم وزلقوا، فكرهوا ذلك شفقة على العامة، وصيانة للخاصة، وغيرة على الوقت الذى إذا فات لا يدرك. ويقول أيضا: وطائفة أخرى من أهل المعرفة والكمال كرهوا ذلك، لأن أحوالهم مستقيمة، وأوقاتهم معمورة، وأذكارهم صافية، وأسرارهم طاهرة، وقلوبهم حاضرة، وهمومهم مجتمعة، لم يخطر ببالهم خاطر ولا يجرى فى أفكارهم عارض إلا وهم مشرفون عليه يعلمون من أين مورده وإلى أين مصدره.. فهم مع الله تعالى ببواطنهم وإن كانوا مع الخلق بظواهرهم(١٠٩).

وللإمام الغزالى رأى قيم فى السماع حيث يقول: إن السماع قد يكون حرامًا محضًا. وقد يكون مباحًا. وقد يكون مكروهًا. وقد يكون مستحبًّا. أما الحرام: فهو لأكثر الناس من الشبان، ومن غلبت عليهم شهوة الدنيا، فلا يحرك السماع منهم إلا ما هو الغالب على قلوبهم من الصفات المذمومة..، وأما المكروه: فهو لمن لا ينزله على صورة المخلوقين، ولكنه يتخذه عادةً له فى أكثر الأوقات على سبيل اللهو، وأما المباح فهو لمن لاحظ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن، وأما المستحب فهو لمن غلب عليه حب الله تعالى، ولم يحرك السماع منه إلا الصفات المحمودة(١١٠).

وقد وضع الإمام الغزالى آدابًا خمسةً للسماع(١١١).

الأدب الأول: مراعاة الزمان والمكان والإخوان. قال الجنيد: السماع يحتاج إلى ثلاثة أشياء وإلا فلا تسمع. الزمان. والمكان. والاخوان. ومعناه أن الاشتغال به فى وقت حضور الطعام، أو صارف من الصوارف مع اضطراب القلب لا فائدة فيه، فهذا معنى مراعاة الزمان، فيراعى حالة فراغ القلب له، وأما المكان: فقد يكون شارعًا مطروقًا، أو موضوعا كريه الصورة، أو فيه سبب يشغل القلب فيجتنب ذلك، وأما الإخوان فسببه أنه إذا حضر غير الجنس من منكر السماع، متزهد الظاهر، مفلس من لطائف القلوب، كان مستقلا فى المجلس واشتغل القلب به، وكذلك إذا حضر متكبر من أهل الدنيا يحتاج إلى مراقبته وإلى مراعاته، أو متكلف متواجد من أهل التصوف يرائى بالوجد والرقص، وتمزيق الثياب فكل ذلك مشوش فترك السماع عند فقد هذه الشروط أولى.

الأدب الثانى: هو نظر الحاضرين أن الشيخ إذا كان حوله مريدون يضرهم السماع فلا ينبغى أن يسمع فى حضورهم، فإن سمع فليشغلهم بشغل آخر، والمريد الذى يستضر بالسماع أحد ثلاثة، أقلهم درجة: هو الذى لم يدرك من الطريق إلا الأعمال الظاهرة، ولم يسكن له ذوق السماع فلا ينبغى أن يسمع فى حضورهم، فإن سمع فليشغلهم بشغل آخر، فاشتغاله بالسماع اشتغال بما لا يعنيه، فإنه ليس من أهل اللهو فيلهو، ولا من أهل الذوق فيتنعم بذوق السماع، فليشتغل بذكر الله أو خدمته، وإلا فهو تضييع لزمانه.

---

(١٠٩) اللمع للطوسى ص ٣٧٣، ٣٧٤.

(١١٠) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى الجزء السادس طبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية بجمعية الجهاد الإسلامى سنة ١٣٥٦ هـ ص ١٩٩.

(١١١) المرجع السابق من ص ١٩٣ إلى ١٩٩ باختصار.

الثانى: هو الذى له ذوق السماع ولكن فيه بقية من الحظوظ والالتفات إلى الشهوات والصفات البشرية فربما يهيج السماع منه داعية اللهو والشهوة فيقطع عليه طريقه ويصده عن الاستكمال.

الثالث: أن يكون قد انكسرت شهوته وانفتحت بصيرته واستولى على قلبه حب الله تعالى، ولكنه لم يحكم ظاهر العلم، ولم يعرف أسماء الله تعالى وصفاته وما يجوز عليه وما يستحيل، فإذا فتح باب السماع ونزل المسموع فى حق الله تعالى على ما يجوز وما لا يجوز، فيكون ضرره من ذلك الخاطر الذى هو كفر أعظم من نفع السماع.

قال سهل رحمة الله عليه: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل، فلا يصلح السماع لمثل هذا، ولا لمن قلبه بعد ملوث بحب الدنيا وحب المحمدة والثناء، ولا لمن يسمع لأجل التلذذ والاستطابة بالطبع، فيصير ذلك عادة له ويشغله ذلك عن عباداته ومراعاة قلبه، وينقطع عليه طريقه، فالسماع مزلة قدم يجب حفظ الضعفاء منه.

الأدب الثالث: أن يكون مصغيًا إلى ما يقول القائل، حاضر القلب، قليل الالتفات إلى الجوانب متحرزًا عن النظر إلى وجوه المستحقين، وما يظهر عليهم من أحوال الوجد، مشتغلًا بنفسه ومراعاة قلبه، ومراقبة ما يفتح الله تعالى من رحمته فى سره، متحفظًا عن حركة تشوش على قلوب أصحابه بل يكون ساكن الظاهر هادئ الأطراف، متحفظا عن التنحنح والتثاؤب، ويجلس مطرقا رأسه، كجلوسه فى فكر مستغرق بقلبه، متماسكا عن التصفيق والرقص، وسائر الحركات على وجه التصنع والتكلف والمراءاة ساكنًا عن النطق فى أثناء القول بكل ما عنه بد، فإن غلبه الوجد وحركه بغير اختيار فهو فيه معذور غير ملوم، ومهما رجع إليه الاختيار فليعد إلى هدوئه وسكونه، ولا ينبغى أن يستديمه حياء من أن يقال: انقطع وجده على القرب، ولا أن يتواجد خوفًا من أن يقال هو قاسى القلب، عديم الصفاء والرقة.

الأدب الرابع: ألَّا يقوم ولا يرفع صوته بالبكاء وهو يقدر على ضبط نفسه، ولكن إن رقص أو تباكى فهو مباح إذا لم يقصد به المراءاة.

والأدب الخامس: موافقة القوم فى القيام إذا قام واحد منهم من وجد صادق من غير رياء وتكلف، أو قام باختيار من غير إظهار وجد، وقامت له الجماعة، فلابد من الموافقة، فذلك من آداب الصحبة، فالموافقة فى هذه الأمور من الصحبة والعشرة، إذ المخالفة موحشة ولكل قوم رسم، ولابد من مخالفة الناس بأخلاقهم، كما ورد فى الخبر لاسيما إذا كانت أخلاقا فيها حسن العشرة، والمجاملة وتطييب القلب بالمساعدة، وقول القائل: إن ذلك بدعة لم يكن فى الصحابة، فليس كل ما يحكم بإباحته منقولا عن الصحابة رضى الله عنهم، وإنما المحذور ارتكاب بدعة تعارض سنة مأثورة، ولم ينقل النهى عن شىء من هذا.

ولكن من الملاحظ أنه بالرغم من أن بعض كبار الصوفية – كالإمام الغزالى – قد وضعوا الآداب للسماع إلا أن بعض الأتباع حطموا كل قيد حول السماع واستتزادوا منه، واهتموا به اهتماما كبيرا، بل نراهم قد نبغوا فى هذا الفن ووضعوا له الأصول والقواعد.

ولقد رأينا بعد ذلك أتباع الطرق الصوفية قد انسلخوا تماما عن أصول الطريق الصحيح وابتدعوا وتأولوا.

وسنكشف فى هذا الكتاب إن شاء الله كشفًا هامًا، وهو أن بعض أصحاب الطرق مثل: الشاذلى، والرفاعى، والدسوقى، قد أنكر السماع لأتباعه، ومع ذلك فإن المريدين والإخوان نسبوا إليهم إباحة السماع كذبًا، ثم إن بعض هؤلاء الأتباع أساءوا للطريقة بسماعهم المزرى، بتمايله، ورقصه وتشنجه العنيف واهتزازه الغريب المشوه.

والحق أنا نلمس طرقًا كثيرةً تنشد الأدوار الموسيقية بمذاهبها المختلفة، فى مجالسها الصوفية حتى أنه أصبح للتغنى فى مجالس الصوفية طريقة خاصة وضحها بعضهم حيث يقول(١١٢): إن الصوفية درجوا منذ القديم على أن يبدءوا مجالس الذكر: (لا إله إلا الله)، وتعرف عندهم بالأرضية، ويأخذ (الرسيم) الذى هو رئيس المجلس فى التدرج بالذاكرين أثناءها من الراست (الرصد) إلى الدوكه إلى السيكا، إلى الجهركاه، إلى الحجازى، ثم الرهاوى، فالكردى، فالبياتى فالصبا(١١٣)، ومن هنا تبدو مقدرة الرئيس فى نقل الذاكرين من نغمة إلى نغمة، كما تبدو مقدرة المنشدين فى متابعتهم للأنغام والإنشاد، والغالب فى الإنشاد على الأرضية أن يكون من كلام الصوفية كقولهم:

إلهى توسلنا بجاه محمد ... نبيك وهو السيد المتواضع
أنلنا مع الأحباب رؤيتك التى ... إليها قلوب الأولياء تسارع

إلى آخر القصيدة، ثم ينفرد رئيس المنشدين بعد الوصول إلى نغمة الرصد، أو إلى النغمة التى ينتهى عندها إنشاد القصيدة بالاستغاثة أغثنا أدركنا يا رسول الله ثم يقول الموال من نفس النغمة، فالأبيات التى سينشدها عند قيام المجلس من نفس النغمة أيضا ينشدها على الأرض مقطعة، وعند قيام الذاكرين يكرر الأبيات بالطريقة المألوفة، ثم ينفرد بعد ذلك بالمقطعات والقصائد والرقائق وما إليها من كلام الصوفية، وقد يستبيح بعضهم أن ينشد الأدوار الموسيقية بمذاهبها وورودها المعروفة على مجالس الذكر.

وقد أصبحت حلقات ذكر الله تعالى سماعًا موسيقيًا وإيقاعات رتيبة، فوجدنا بعض أبناء الطرق الصوفية، قد ولعوا بالنقر والضرب والعزف والغناء، حتى رأيناهم قد لعبوا دورا كبيرًا لمسناه بوضوح فى تاريخ الحركة الفنية فى مصر.

وهكذا ابتعدت الطرق الصوفية عن أصولها الحقيقية التى نادى بها ورسمها أصحابها الأجلاء لأتباعهم.

ولهذا فإننى أطالب وأوصى رجال المجلس الأعلى للطرق الصوفية، أن يعملوا على تنبيه الطرق

---

(١١٢) مقالة عن السماع للمرحوم التفتازانى نشرها بمجلة المعرفة عدد يونية ١٩٣١ م.

(١١٣) كل هذه الألفاظ مصطلحات موسيقية ومن هنا نعرف كيف امتلأت مجالس الصوفية بالايقاعات والنغمات الموسيقية المختلفة.

خصوصًا ما نراه فى بعض (الحضرات) من صور غريبة عن الإسلام من هز وغناء وموسيقى وصياح وهرج رهيب.

وما نراه من صور السماع السيىء داخل الموالد فذاك أفظع وأنكى، فما يحدث فى الموالد شيء عجيب.

رابعا - المـوالد:

من أهم ما ترتب على قيام الطرق الصوفية فى مصر ظهور وانتشار تلك الموالد المتعددة للاحتفال بذكرى شيوخ الطرق الصوفية وأولياء الله الصالحين:

وإذا كانت الموالد تقام لإحياء ذكرى رجالات الإسلام وأعلامه، فالمفروض أن تكون مناسبات تدعيم وتجديد للقيم الإسلامية والروحية، لا أن تكون بهذه الصورة المشوهة التى تصحب وتستصحب إقامة الموالد، وتعد ورقةً رابحةً فى يد أعداء الطرق الصوفية، وليس العيب فى إقامة المولد، بل هو عيب التنظيم والإعداد.

وواجب مشايخ الطرق الصوفية فى مصر أن يعملوا على تطهير تلك الموالد مما يشوبها، أو شابها من هؤلاء الأدعياء، الذين شوهوا صورة الطريق الناصعة لدرجة أن بعض أهل مصر يتصور تصورًا خاطئًا أن التصوف فى الطرق الصوفية يعنى، موالد وخرق، وعمامات حمراء، أو خضراء، أو سوداء أو شعور طويلة وحركات حواة وقبض على الثعابين، وطبول ورقص وغناء غريب.

وحقيقة أن معظم التجمعات الكبيرة تحوى مثل هذه الظواهر، إلا أننا نوصى بأن يعمل المسئولون بوزارة الأوقاف والأزهر الشريف والمجلس الأعلى للطرق الصوفية، على ترشيد هذه الموالد وتنظيمها بحيث تكون بحق إحياءً لذكرى رجال الإسلام وأقطابه وتدعيمًا للقيم الروحية السليمة.

ومن العجيب حقا أن ما يحدث الآن فى الموالد، هو ما كان يحدث فى الموالد القديمة خصوصا القرنين العاشر والحادى عشر الهجريين(١١٤).

وقد يكون أيضا مما ساعد على تعدد الموالد وانتشارها، تلك الأضرحة الكثيرة المنتشرة فى كل مكان فى أرض مصر.

وأود أن أشير هنا إلى ناحية أخرى وهى: كما أن أتباع الطرق الصوفية تعودوا إقامة القبور الفخمة،

(١١٤) مثلا هاهو ذا الجبرتى يصف ما كان يحدث فى مولد العفيفى «ينصبون خياماً كثيرة وصواوين ومطابخ وقهاوى، ويجتمع العالم الأكبر من أخلاط الناس، وخواصهم، وعوامهم، وفلاحى الأرياف، وأرباب الملاهى، والملاعب، والعوازى، والبغايا، والقرادين، والحواة، فيملئون الصحراء والبساتين، فيطئون القبور ويبولون، ويتغوطون، ويزنون، ويلوطون، ويلعبون، ويرقصون، ويضربون بالطبول والزمور، ليلاً ونهاراً، ويجتمع لذلك الفقهاء العلماء، ويقتدى بهم الأكابر من الأمراء والتجار والعامة من غير إنكار، بل يعتقدون أن ذلك قربة وعبادة، ولو لم يكن ذلك لأنكره العلماء، فضلاً عن كونهم يفعلونه، فالله يتولى هدانا أجمعين».
تاريخ الجبراتى طبعة ١٣٢٢هـ ص ٢٢٥ جـ ١

لمشايخهم الكبار، والاحتفال بموالدهم، فإن الشيعة أيضا يشاركونهم فى ذلك، وذلك لا يعنى بالطبع أننى أوافق الدكتور الشيبى حين يرى، أن مسألة زيارة قبور الأولياء والاحتفال بموالدهم ظاهرةً شيعية الأصل حيث يقول: «إن تقديس القبور وزيارتها كانا وقفًا على الشيعة الذين كانوا يقصدون قبر الحسين من قديم مما هو معروف عند الشيعة حتى الآن»(١١٥) وإنما أقول: إنها ظاهرة مشتركة بينهما دون أن أقول إن أحدهما أخذ هذه الظاهرة عن الآخر.

وأخيرا.. لعل مما ساعد على الاعتقاد فى الموالد وانتشارها تلك الكتابات الغريبة، التى كتبها مروجو الكرامات، أمثال الشيخ يوسف النبهانى صاحب كتاب كرامات الأولياء، الذى يقول: إن من كرامات سيدى أحمد البدوى، ما ذكره سيدى الشيخ محمد الشناوى رضى الله عنه قال: إن شخصا أنكر حضور مولده (مولد البدوى) فسلب الإيمان، فلم يكن فيه شعرة تحن إلى دين الإسلام، فاستغاث بسيدى أحمد رضى الله عنه، فقال بشرط أن لا تقول (يقصد ألا تنكر القول بالموالد)، فقال: نعم، فرد عليه نوب إيمانه، ثم قال له: وماذا تنكر علينا؟ قال: اختلاط الرجال والنساء، فقال له سيدى أحمد رضى الله عنه: ذلك واقع فى الطواف، ولم يمنع أحد منه، ثم قال: وعزة ربى ما عصى أحد فى مولدى إلا وتاب وحسنت توبته، وإذا كنت أرعى الوحوش والسمك فى البحار، وأحميهم من بعضهم، أفيعجزنى الله عز وجل عن حماية من يحضر مولدى؟(١١٦).

وهذه الحكايات الغريبة، جعلت الأتباع وغيرهم يتسابقون إلى حضور مولد هؤلاء المشايخ أصحاب الكرامات الكبيرة..، وهذا يجعلنا نتوقف ويجرنا لإلقاء الضوء على الكرامة:

الكرامة.. وأقسامها:

الكرامة هى الأمر الخارق لما تعود عليه البشر أن يجدوه مقبولاً عقلًا ومطابقًا لقوانين ونظم الطبيعة والحياة، غير أن هذا الأمر الخارق لما تعود عليه البشر لا يقترن بدعوى النبوة ولا إيحاء لها، ولا سحر دجال، وإنما يخص الله أولياءه العارفين بها، وهو القادر الفعال لما يريد.

وقد يفهم من تعريفى للكرامة أننى من القائلين والمؤيدين لكرامات الأولياء، ولا أستطيع أن أقرر الآن ذلك قبل إلقاء الضوء على المشكلة، وإن كنت أقول: إن أعظم كرامة يهبها الله لمخلوق من مخلوقاته، هى كرامة الهداية والتوفيق فى حياته وأعماله قال القشيرى: «واعلم أن من أجل الكرامات التى تكون للأولياء دوام التوفيق للطاعة والعصمة عن المعاصى والمخالفات»(١١٧).

وقد قسم ابن عربى فى الفتوحات المكية الكرامات إلى قسمين:
١ – حسية. ٢ – معنوية.

---

(١١٥) الصلة بين التصوف والتشيع للدكتور الشيبى ص ٣٦٠.
(١١٦) كرامات الأولياء للشيخ يوسف النبهانى ص ٣١٠.
(١١٧) بستان العارفين للإمام أبى زكريا النووى ص ٦٠.

أما الكرامات الحسية، فهى كرامات العامة مثل: المشى على الماء، وطى الأرض والاطلاع على الكوائن، والإخبار بالماضى والحاضر والمستقبل، أما الكرامات المعنوية، فهى كرامات الخاصة من عباد الله، وهى كرامة العمل بشريعة القرآن والتمسك بها.

ونفس هذا التقسيم للكرامة نجده عند ابن عطاء الله السكندرى فى لطائف المنن(١١٨).

الكرامة... بين مؤيديها ومنكريها:

يرى بعض الباحثين(١١٩)، أن هذه المشكلة من المشكلات الكبرى التى يختلف فيها علماء المسلمين اختلافًا بينا..، فبينما نجد المعتزلة يرفضون القول بحدوث مثل هذه الخوارق فى الطبيعة(١٢٠)، نجد الأشاعرة وجميع أهل السنة يسلمون بوقوعها(١٢١)، وكل فريق منهم يدعم رأيه بأدلة من الكتاب والسنة وبأدلة عقلية خالصة أيضا.

فالمعتزلة مثلا من أبرز المنكرين للكرامة...، يقول المناوى فى الكواكب الدرية(١٢٢): إن المعتزلة أنكروا الكرامة محتجين بأمور:

الأول : أنها توجب القياس المبنى بغيره لعدم تميزها عن المعجزة فلا تدل المعجزة على النبوة.

الثـانى: أنها تفضى إلى السفسطة لاقتضائها انقلاب الجبل ذهبا أبريزًا والبحر دمًا عبيطا ونحو ذلك.

الثالث: أنه لو ظهر لولى كرامة لجاز الحكم له بمجرد دعواه أنه يملك حبة بر أو فلسًا واحدًا بغير بينة لظهور كرامته المؤذنة بعلو درجته عند الله، المانعة لكذبه سيما فى تافه، وهو باطل بإجماع المسلمين المؤيد بقول إمام المرسلين «البينة على من ادعى واليمين على من أنكره».

الـرابع: أن ظهورها يوجب نقض العادة لتكثرها بتكثر الأولياء عن كونه خارقًا فيصير عادة.

الخامس: أنها تَسُدّ باب إثبات النبوة، لاحتمال كون المعجزة إكراما لا تصديقا فيطوى بساط النبوة رأسا.

السادس: أنها تخل بجلال كمال الأنبياء لمشاركة الأولياء لهم فى ذلك.

الســابع: أنها لا تتميز عن السحر.

ويرد المناوى على كل حجة من هذه الحجج ردًا غير قوى فى كثير من الأحيان فيقول:

(فأجيب عن الأول بأن المعجزة تقارن دعوى النبوة والكرامة لا تعارضها، بل يجب قرنها بالانقياد إلى النبى وتصديقه والسير على منهاجه فلا التباس.

(١١٨) لطائف المنن لابن عطاء الله السكندرى ص ٤٤.

(١١٩) ابن عطاء الله السكندرى للدكتور أبو الوفا التفتازانى ص ٧٢.

(١٢٠) مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير لفخر الدين الرازى: طبعة القاهرة ١٣٢٤هـ حـ ٥ ص ٤٦٣.

(١٢١) الفرق بين الفرق لعبد القادر البغدادى: طبعة القاهرة ص ٣٣٤.

(١٢٢) الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية لعبد الرؤوف المناوى ص ٨، ٩ صححه وعلق عليه محمود حسن ربيع

وعن الثانى بأن ذلك لا يقتضى سفسطة، على أن التجويزات العقلية لا تقدح فى العلوم العادية.

وعن الثالث بأن الكرامة لا توجب للولى ولا تصديقه فى كل أمر، وقد سئل شيخ الطريق الجنيد.. أيزنى العارف؟ فقال: وكان أمر الله قدرا مقدورا، وهب أن الظن حاصل بصدقه فى دعواه لكن الشارع جعل لثبوت الدعوى منهجًا مخصوصًا ورابطًا معروفًا لا يسوغ العدول عنه، ألا ترى أن كثيرا من الظنون التى تكاد تقرب من اليقين، لا يجوز الحكم بها لخروجها عن الضوابط الشرعية.

وعن الرابع بأن كثرتها تكون استمرارًا لنقض العادة فلا نسلم كونها خروجا عنه، والكرامة وإن توالت على الولى حتى ألفها واعتادها، لا تخرجه عن طريق الرشاد ووجه السداد.

وعن الخامس بأن المقارنة للدعوى تفيد القطع بالصدق عادة.

وعن السادس بأن الكرامة تفيد جلالة قدر الأنبياء حيث بلغت أممهم ذلك ببركة الاقتداء بهم فلا إخلال.

وعن السابع بأنها تفارقه، وتتميز عنه بأنها لا يجدى فيها التعلم والتعليم، ولا تمكن المعارضة، ولا تجامع شره النفس، ولا تكون بمزاولة أعمال مخصوصة بخلافه، ثم يقول المناوى: «إن أهل القبلة اتفقوا على أن الكرامات لا تظهر على الفسقة، الفجرة، بل على الموفقين البررة، وبذلك لاح الطريق إلى أن معرفة الأنبياء لا تفسد، فإن الولى ينقاد للنبى الذى ظهرت المعجزة على يديه ويقول: معشر الناس هذا نبى الله فاتبعوه، ويكون أول منقاد»[١٢٣].

والعجيب أن المناوى ذكر فى كتابه الكواكب الدرية كرامات أسطورية وقعت لبعض الصالحين، جمعها من كتب المناقب والطبقات، من هذه الكرامات: (إحياء الموتى، وكلام الموتى وانقلاب الأعيان لهم، وانطواء الأرض لهم، وكلامهم للحيوان والنبات، والجماد، وإبراء العلل، والأمراض، وطاعة الحيوان لهم)[١٢٤].

وهكذا وقع المناوى فى المحظور، فلم يفرق بين المعجزة الخاصة بالأنبياء وبين كرامة الأولياء..، هناك حدود تقف عندها الكرامة..، إنه بذلك يضفى على الولى معجزات الأنبياء متخفيا بأن الولى يعمل بإذن الله، ويحيى الموتى بإذن الله.. وما كان معجزة لنبى لا يجوز أن تصبح كرامة لولى، وعلى هذا «فلا يجوز أن يقع على يد ولى قلب العصا حية، أو فلق البحر، أو إحياء الموتى، أو إنزال المائدة، أو نزول القرآن، أو انشقاق القمر، أو نبع الماء بين الأصابع، أو جميع المعجزات التى أجراها الله على أيدى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم تحديا لأممهم وتصديقا لنبوتهم[١٢٥].

وعلى ما يقول الأستاذ مصطفى اللبان، يجب ألا تصادم الكرامة العقل، فليس معنى خرق العادة أن يكون الخارق مستحيلا..، إذ أن المعجزات والكرامات تجرى على أسباب لو كشفها الله تعالى لعباده لرأوها سهلة مفهومة، ولعلموها أنها تجرى على سنن كونية خفية[١٢٦].

(١٢٣، ١٢٤) الكواكب الدرية للمناوى ص ٨ و٩ و١١ و١٢ على التوالى.

(١٢٥، ١٢٦) كتاب كرامات الأولياء رضى الله عنهم للأستاذ مصطفى أحمد الرفاعى اللبان ص ٥، ٦ على التوالى

وكما صرحت من قبل إننى لا أنكر الكرامة فقد قال تعالى لمريم: ﴿وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا﴾* ومريم لم تكن نبية.

وقوله تعالى: ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا، قال يا مريم أنّى لك هذا قالت هو من عند الله﴾**، وحديث النبى ﷺ فى قصة جريج الراهب..، وجريج هذا لم يكن نبيا.، وحديث المصطفى ﷺ: «إن فى أمتى مكلمون ومحدثون»..، كل ذلك وغيره يؤكد وجود الكرامة. فنحن لا ننكرها، وإنما ننكر الخزعبلات التى امتلأت بها كتب الأتباع وكتب المناقب.

عوامل انتشار الكرامات والتفسير النفسى لها:

يرى بعض الباحثين أنه قد تكون ظروف المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الهابطة، والتى عاشها المجتمع المصرى منذ القرن السابع الهجرى وما تلاه من قرون ضعف، وانقسام، وتفكك سياسى، واجتماعى ساعد على ذيوع كثير من الكرامات حول شيوخ الطرق الصوفية، (ولقد وجد حول كل ولى من أوليائه المتقين مجموعة من المنتفعين الذين يعيشون على حساب سمعة ذلك الولى أو الشيخ حيا وميتا، وهؤلاء يهمهم أن يظهروا شيخهم فى صورة القادر على كل شىء، فما من كربة إلا وهو قادر على تفريجها، وما من غمة إلا ويستطيع كشفها..، وهكذا يقصد أصحاب الحاجات شراء الشيخ، وأتباعه، بما يقدمونه من صدقات ونذور فى مقامه، فإذا رضى الشيخ عنهم، فإن طلبهم مجاب، وحاجتهم مقضية[١٢٧].

ومن ذلك فإن من مصلحة خلفاء المولى وأنصاره وأتباعه تصوير وليهم بصورة القادر على صنع المعجزات، .ومن هنا كان افتراؤهم عليه، ونشر حكايات كاذبة فى معظم الأحيان عن قدرات وليهم الخارقة، على شفاء المرضى، وقضاء الحاجات وقص كرامات لا أساس لها من الصحة.

وإذا نظرنا للكرامة من الناحية النفسية، نجد أن الكرامة بعد ذلك ليست عسيرة على التحليل السيكولوجى حتى يبدو اللامعقول مستساغًا مقبولاً، فحين تفشى الظلم، وانقطع أمل الناس فى الإصلاح من حكام الظاهر، منذ أواخر عصر المماليك[١٢٨]، ساد الاعتقاد بين مريدى التصوف (بحكومة الباطن) إذ يحكم الكون ويتحكم فى البلد أولياء من أقطاب وأبدال ونقباء، فعوض لهم الخيال آلام الواقع ومكنه فى نفوسهم، وغالبا ما يكون حكام الباطن من الفقراء أصحاب الحرف[١٢٩].

---

* سوره مريم آية ٢٥

** سورة آل عمران آية ٣٧.

(١٢٧) كتاب السيد البدوى للأستاذ الدكتور سعيد عاشور ص ١٤٤، ١٤٥.

(١٢٨) وأيضاً فى أوائل عصر المماليك منذ القرن السابع الهجرى.. وإن كانت الكرامات حول الأولياء ظهرت بوصوح وتعشت بصورة رهيبة فى أواخر عصر المماليك.

(١٢٩) بحث للأستاذ أحمد صبحى بمجلة عالم الفكر الكويتية أعداد يولية، أغسطس، سبتمبر سنة ١٩٧٥ المجلد السادس العدد الثانى وعنوان البحث: التصوف: إيجابياته وسلبياته

ويقول المرحوم الدكتور زكى مبارك: «والاعتقاد فى الكرامات عزاء كبير للفقراء فهم يخلقون لأنفسهم دنيا من المجد الموهوم يعوّضون بها ما ضاع عليهم من حظوظ الحياة، ومن المؤكد أن هذه الوساوس لا تسود إلا فى عصور الضعف السياسى والاقتصادى: حين تصبح الأمة وهى فارغة الأيدى من سلطان الجاه المال، ومن ذلك رأينا المسلمين فى عصور قوتهم لا يعرفون غير الواقع، مع أن الصلاح كان من أغلب الصفات عليهم[١٣٠]، ثم رأيناهم فى عصور الانحطاط يصدقون كل شىء ويلقون زمامهم إلى كل مخلوق، عساهم ينسون ما هم فيه من شظف العيش ونكد الشقاء»[١٣١].

ويبدو لنا أنه مما ساعد على انتشار الكرامات حول الأولياء أن عقلية الشعب المصرى تستريح، وتميل إلى الاعتقاد فى الأولياء وكراماتهم اعتقاداً متأصلاً راسخاً فى فكرهم منذ أزمان بعيدة، ويبدو أيضاً أن هناك عناصر قديمة الجذور متأصلة فى نفسية الشعب المصرى، تجعلها تؤمن بهذه الخرافات، حول قدرة الأولياء على التصرف فى الأكوان، وعمل المستحيل، كما يقال.

ويظهر أنه «كانت هناك عناصر من الديانات الفرعونية وغير الفرعونية تتصل بنفوس الشعب، من الخضوع للكهنة، والإذعان لسيطرتهم، ثم كان صنيع الفاطميين فى إثارة تلك المشاعر عند المصريين بما أذاعوا من دعايات وتعاليم وسموها بسمة الدين، وبما أبدوا من مهارة فى ربط عقلية الشعب بسكان الأضرحة والقبور، وتلمس الخير والبركة عند عتبات الشيوخ، وكان أن توالى على مصر كثير من المحن القاسية بوقوع المجاعات الساحقة، وفتك الأوبئة المروعة، فكان هذا كله مما هيأ عقلية الشعب للانحلال، وجعلها أطوع ما تكون لتقبل كل ما يقدم إليها، مما تتبين فيه روح الأمل والعزاء، وراحة الركون والاستسلام»[١٣٢].

لقد كانت نفسية الشعب المصرى مهيأةً تماماً لقبول الإشاعات وترويجها والتى امتلأت بها جنبات الوادى من أقصى الشمال من الإسكندرية وطنطا ودسوق، إلى أقصى الجنوب فى قنا والأقصر وأسوان، وساعد على ذلك ظروف المجتمع المتدهورة.

ولعل الذين كانوا يعملون على ترويج الأساطير حول شيوخ الطريق على دراية بنفسية الشعب وعقليته، ولهذا نجحوا فى تعميق وتأصيل وترويج هذه الإشاعات الأسطوريةحول أولياء الله الصالحين.

---

(١٣٠) وجهة النظر هذه تؤيد رأى أستاذنا الدكتور محمد كمال جعفر فى أن التصوف ازدهر وقوى فى ظل الحضارة الإسلامية فى أوج قوتها

(١٣١) كتاب التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق جـ ٢ للدكتور زكى مبارك ص ٢٨٤.

(١٣٢) كتاب السيد البدوى لمحمد فهمى عبد اللطيف ص ٨.

الفصل الثالث

نشاط الطرق الصوفية وآداب حضراتها

يذكر بعض الباحثين أن «التاريخ يسجل لبعض الصوفية المسلمين مواقف لا تنقصها الشجاعة إزاء نصح الحاكم، ورده عن ظلمه، فى عزة مدهشة قل أن توجد فى هذا العصر، وقد كان اتصال أغلب المتصوفة بالقاعدة الشعبية أوثق منه بالقمة، فكانوا أعرف الناس بآلام وآمال الناس، وأدى بعضهم دوره الاشتراكى الإنسانى فى مجال المواساة، والاسعاف، والانصاف، والإرشاد، ولم يقبع ويحجم إلا المتصوف ذو المزاج المريض»(١).

وسنرى بأنفسنا حين دراسة الطرق الصوفية فى مصر فى القرن السابع الهجرى، حين نتحدث عن أصحاب الطرق ومؤسسيها أمثال: أبى الحسن الشاذلى صاحب الطريقة الشاذلية، سنرى كيف شارك الشاذلى الشعب المصرى فى جهاده المستعمرين ووقوفه مع المجاهدين؟ بل ذهابه مع نفر من العلماء والفقهاء لميدان الوغى؛ ليبثوا فى الأبطال روح الجهاد وحلاوة الإيمان.

فالتصوف ليس ضعفا وانعزالا وقوقعة «إنه الجهاد فى أعلى ذراه. والعلم فى أصفى موارده، والخلق فى أعلى مثله، والإيمان فى أسمى أنواره وإشراقاته، لقد كان التصوف الإسلامى طوال أيام تاريخنا المضىء المنتصر هو القوة الملهمة للفداء والتضحية، وهو الروح الصانعة للعزمات والوثبات، وهو الدرع الذى يحمى أخلاقنا ويصون عقائدنا، ويحول بيننا وبين التحلل والتفكك والفناء»(٢).

وكما ذكرت نشرة مشيخة الطرق الصوفية «أنه الخلاصة الزكية لكل دعوة ربانية، وأنه الصدق والأمانة والوفاء والإيثار والنجدة والكرم ونصرة الضعيف، وإغاثة الملهوف، والتعاون على البر والتقوى...، وأنه الصيحة الرهيبة فى وجه الطغيان والاستبداد والعدوان..، إن الجبرتى ليحدثنا: أن هزيمة الحملة الفرنسية على مصر، إنما كانت على أيدى رجال المقاومة الشعبية من أبناء الطرق الصوفية وشيوخها الذين جعلوا من الأزهر والأحياء الشعبية فى القاهرة حصونا لا تقتحم ومشاعل للثورة لا تخمد لهيبها».

ونحن نلمس أن «حياة معظمهم كانت برهانًا أكيدًا يضاف إلى الشواهد التاريخية المتتابعة على صدق التجربة الإنسانية، وعلى إبطال كون الإنسان مجرد ظاهرة مادية عابرة، وأن التصوف لكى يضع تجربته الحية موضع المشروعات النظرية يلجأ أحيانا إلى استعارة أنماط من هذه وتلك كوسيلة تعبير، كما

(١) التصوف- طريقا ومذهبا.. للأستاذ الدكتور جعفر ص ٣٣.

(٢) التصوف الإسلامى: رسالته. نشرة مشيخة عموم الطرق الصوفية ١٤ ديسمبر سنة ١٩٥٨ ص ٦ و ٨ و ٩ على التوالى.

لا ينكر أن الشخصيات الصوفية الممتازة شاركت فى الحياة العملية وأفسحت صدرها لأوجه النشاط الثقافى فى شتى العلوم العملية والنظرية[٣]».

والصوفية الذين رأيناهم يستحقون هذا اللقب الجليل، «إذا ما تتبعنا حياتهم على مر القرون والعصور، لوجدناهم تميزوا منذ يومهم الأول فى البيئات الإسلامية بأنهم وحدهم الذين أخذوا أنفسهم فى المعاملات والأخلاقيات والتعهدات، بالقوى من العزائم، وعضوا على سنة نبيهم بالنواجذ، فالصغير لديهم، وما يراه بعضهم أرق من الشعرة، يرونه أضخم من الجبال الراسيات، لقد نهضوا بالفرائض ثم استمسكوا بالنوافل؛ ثم تطلعوا لما فوق النوافل والفرائض تطوعًا تعبديًا يبتغون به وجه الله جل جلاله»[٤].

أما هؤلاء البدعيون فهم ليسوا متصوفة على الإطلاق، «كون بعض مريدى الطرق من المشعوذين ينتسب إلى الطريق زورا، أو كون بعض المتعالين المارقين يصورهم للرأى العام بصور مخالفة لما جاء به الدين، لا يكون بحال مدعاة إلى إنكار الطريقة وأصولها وتعاليمها التى هى من لب الكتاب وخالص السنة»[٥] ولهذا فإنه، «لا يصرفنا اندساس بعض الناس الذين وسمهم التاريخ بأنهم متصوفة فى صفوف هؤلاء الصفوة، فلكل طائفة عوارها وبلاؤها»[٦].

الحق أن للطرق الصوفية أهمية بالغة فى الإسلام وذلك لأنها «تمثل الجانب العملى من التصوف، وهو جانب ارتبط بحياة المجتمعات الإسلامية وجماهير الناس فيها عبر عصور التاريخ ارتباطًا مباشرًا..، والتصوف فى حقيقته ليس نظريات نفسية أو أخلاقية أو ميتافيزيقية بقدر ما هو طريقة فى الحياة، ورياضة عملية تمارس من أجل هدف معين هو تحقيق الكمال الأخلاقى الذى دعا إليه الإسلام»[٧].

وقد نبه الإمام الغزالى إلى أنه لا يكفى أن تقرأ كتب الصوفية لتصبح صوفيا، إذ أن طريقتهم لا تتم إلا بعلم وعمل[٨].

ولعلك تدهش إذا علمت أن آراء كبار شيوخ التصوف لم يكتب لها البقاء فى العالم الإسلامى قرونا إلا من خلال الطرق العملية، التى أسسوها، والتى انتشرت فيها انتشارًا واسعًا، وهذا من دلائل عظمة شخصياتهم، وقدرتهم على القيادة الروحية للجماهير، وهذا أمر لم يتهيأ لغيرهم من كبار مفكرى الإسلام، وفلاسفته الذين آثروا منهج العقل وحده فى تقرير مباحثهم النظرية، فبقيت آراؤهم لهذا فى نطاق محدود، لا تتجاوز إلى قلوب الجماهير وعقولهم إلا فى النادر[٩].

---

(٣) التصوف. طريقا ومنهجا للأستاذ الدكتور كمال جعفر ص ٣٥، ٣٦.
(٤) أعلام التصوف: للأستاذ طه عبد الباقى سرور ص ٣٤، ٣٥.
(٥) مدارج الحقيقة فى الرابطة عن أهل الطريقة لإبراهيم حلمى القادرى ص ١٣.
(٦) التصوف طريقا للدكتور محمد كمال جعفر ص ٣١.
(٧) بحث الطرق الصوفية للدكتور التفتازانى مجلة الآداب جـ ٢ ص ٥٥.
(٨) المنقذ من الضلال: هامش الإنسان الكامل للجيلى ص ٣٠، ٣١.
(٩) البحث السابق بمجلة الآداب ص ٥٦.

وفى دفاع مفرط فى حرارته تذكر نشرة مشيخة عموم الطرق الصوفية فى مصر، أن هذه الطرق هى التى نشرت الإسلام وحملت رايته إلى كل مكان، وكسبت له الملايين، وأسست دولة المرابطين والموحدين، لنجدة الأندلس، ولحماية المغرب العربى من وثبات الأوربيين، وفتكات القراصنة الناهبين[١٠].

ويقول البعض فى معرض حديثنا عن نشر تعاليم الإسلام فى الصومال، لا يمكن أن نغفل جهود الطرق الصوفية فى هذا المضمار، فقد ساهمت هذه الطرق فى إنشاء المراكز الدينية التى تدرس فيها أصول الدين للصوماليين، ومازالت هذه الطرق إلى اليوم تتمتع بمكانة كبيرة، ونفوذ عظيم بين الصوماليين. وأكثر الطرق الصوفية انتشارًا فى الصومال، الطريقة (القادرية) وتليها (الصالحية)، ثم (الأحمدية) و(الرفاعية)[١١].

ولا شك عندنا أن الصوفية الأفذاذ استطاعوا، أن يحملوا الرسالة الإسلامية ومشوا بنورها إلى آفاق لم يمتد إليها نفوذ الإسلام، وتبلغها دعوته، ففتحها الصوفية وهيمنوا عليها بنجاح ساحق، حتى أن قبائل وشعوبًا فى آسيا وأفريقيا أسلمت كلها بفضل إخلاص رجال الطرق الصوفية ودعوتهم[١٢].

إن الحملة الشعواء التى يشنها البعض على أصحاب الطرق الصوفية، مبعثها الحقيقى هذه الفئة من المندسين فى الطريق، بالإضافة إلى سوء فهم البعض، الناتج عن تصور الطرق أنها موالد وطبول ودفوف ورايات ومواكب.

ولهذا فإن واجب الطرق الصوفية، أن تكشف عن المندسين بينها، ويا حبذا لو نشطت مشيخة الطرق الصوفية فى مصر وغيرها من بلاد الإسلام. فزودت رجالها بالإسلام وحملتهم الدعوة الإسلامية الحقة[١٣].

الحق أن جوهر الطريق أنقى مما يفعله بعض الأتباع باسم الطريق، ولقد وضع أصحاب الطرق الصوفية عدة أصول يسير عليها من ينتسب [إلى] طريقهم، وأضرب لذلك مثلا: بأصول الطريقة الحامدية الشاذلية[١٤] وهى إحدى فروع الطريقة الشاذلية الكبرى.

وقانون هذه الطريقة: يؤكد أن مقصد أهل الطريق الوصول إلى معرفة الله ونيل رضاه، والقيام بحقوق العبودية، وتحقيق الربوبية، والعمل بكتاب الله وسنة رسوله، والتبرؤ من كل بدعة مذمومة شرعًا، وذكر الله، وقراءة القرآن، والتعليم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولا يجوز لأحد أن يكون من أهل الإباحة بأن يدعى سقوط التكاليف، وإباحة المحرمات، فإن هذا من الزندقة التى وقع

(١٠) نشرة مشيخة الطرق الصوفية بمصر ص ٢٨.
(١١) كتاب الجمهورية الصومالية لعبد المنعم عبد الحليم ص ٥٠
(١٢) كتاب مكانة التصوف والصوفية فى الإسلام لمحمد عبد الشافى ص ١٦٦.
(١٣) التصوف الإسلامى بين الفلسفة والدين: لعبد الدايم الأنصارى ص ٣٢
(١٤) قانون طريقة السادة الحامدية الشاذلية لمؤسسها سلامة بن حسن الراضى ص ٣ وما بعدها.

فيها كثير من الناس، وادعوا الولاية، وينبغى على كل من انتسب إلى الطريق أن لا يجعلها مهنه يرتزق منها، بل عليه أن يلزم صنعة أو حرفة للارتزاق غير الطريق.

إن أصول الطرق الصوفية فى جوهرها كما أكدنا كثيرا دعوة إلى اتباع طريق الله أما عدا ذلك، فليس من أصول الطريق الصحيح.

ولقد وضع الأشياخ الأجلاء الأصول لأتباعهم حتى فى حياتهم الاجتماعية.

فمن أهم أصول الطرق الصوفية التى تظهر بوضوح فى الحياة الاجتماعية بين المريدين، والأسياخ، توادهم، وتزاورهم، ومحبتهم لبعض، وإعانة الفقراء منهم ومساعدتهم، والعمل على قضاء حوائجهم، ومشاركتهم بعضًا لبعض فى أفراحهم وأحزانهم.

ووضع الأشياخ آدابا اجتماعية عديدة، وتظهر هذه الآداب فى حضراتهم وأذكارهم، وطعامهم، فنحن مثلا: نلاحظ أن نقيب الحضرة وهو عادة نقيب النقباء عليه أن ينظم الحضرة، ويقوم على رأس الإخوان حال إقامة الحضرة، وعليه أن يقوم بما يلزم للإخوان وقت الذكر، أما نقيب النعال فعليه أن يتسلم نعال الإخوان ويصفها منتظمة.

وعلى نقيب الطعام أن يكون نظيف الثياب، مهذب الأخلاق، حسن العادة، كأن لا يضع يده على أنفه حال الخدمة، أو يأتى بما يستقذره الإخوان، وعليه أن يدعو إخوانه إلى الطعام بلطف، وأن يحذر كسر خواطرهم، فلا يقدم غنيا على فقير فالكل فقير إلى الله.

وعلى الأتباع إذا وجدوا الطعام قليلا أو غير فاخر، أن يتقبلوه بسرور ويعتبروه نفحة، ويجب على من يأكل أن لا يخط وقت الأكل، ولا أن يسعل أو يقهقه، أو يعطس، أو يتجشأ إلا بعد أن يلتفت عن الطعام، وإذا كان الإخوان كثيرين ينبغى أن يتناوبوا الأكل طائفة بعد طائفة.

وينبغى على نقيب الماء، أن يراعى نظافة الأوانى، ونظافة الماء وغيره، ويشم الأشياء التى يأتى بها ويشرب منها جرعة قبل توزيعها على الإخوان، حتى يعرف طعمها، فإذا كانت صالحة قدمها، وإلا أرجعها بلطف وعليه أن يكون مستعدا لطلب الماء منه فى كل وقت.

ووضع شيخ الطرق الصوفية للحضرات آدابًا خاصةً سموها آداب الحضرات، ومن أهم هذه الآداب: أنه لا يجوز إقامتها فى محل لا يليق، كالأمكنة القذرة والسيئة السمعة، وتكون الحضرة حلقات متداخلة، أو حلقة واحدة وفيها صفوف، ويجوز بسبب صحيح أن تكون كلها صفوفا.

وتبتدئ الحضرة عادة بالجلوس كهيئة الصلاة، ثم يفتتح من بيده الحضرة بقراءة الطريقة، وبعد القراءة يفتتح الذكر بذكر (لا إله إلا الله) من جلوس، ثم يقومون ليذكروا بعض أسماء الله الحسنى عدة مرات، كل حسب أوامر شيخها، ثم يجلسون كهيئة الصلاة، ثم يستريحون متربعين بأمر مَن بيده الحضرة، وقد يقرأ بعد ذلك بعض سور القرآن الكريم، أو ينشدون القصائد بأمر مَن بيده الحضرة، ثم تقرأ الفواتح، وبعد ذلك يقومون للمصافحة أو التقبيل.

ولا يجوز إن كان فى الحضرة، أن يلتفت أو يكثر الحركات، أو ينتقل من مكانه إلى مكان آخر، أو أن يتكلم، ويجب ألا يخرج من الحضرة لأى سبب إلا بعد استئذان أحد الخلفاء الذى يكون قريبا ممن بيده تنظيم الحضرة.

ومن أراد الدخول، أو العودة إليها فيستأذن أحد الخلفاء ليرشده إلى المحل الذى يجلس فيه، ولا يجوز شرب الماء عقب الذكر إلا بعد فترة لا تقل عن نصف الساعة.

ويحذر أصحاب الطرق أتباعهم من ذكر الله ذكرًا محرمًا، بل ينبغى عليهم أن يذكروا الله ذكرًا مطابقًا لما ورد فى الشرع الشريف.

وليحذر الذاكر من تقصير «لا» النافية، أو تطويل «هاء» إله، أو من همزة (إلا) أو مد همزة «الله»، ويشبك الإخوان أيديهم حال الذكر ويمنع وجود النساء والأطفال فى الحضرات، ولا يجوز الرقص والتثنى فى الذكر مطلقًا.

هكذا تكون الحضرات السليمة، نظافةً وطهرًا وتعاونًا وألفةً ومحبةً وذكرًا صحيحًا لله كما أمرهم بذلك أصحاب الطريق.

أما ما حدث من خروج على هذه التعاليم وتلك الآداب، فلا ذنب لرواد الطريق وأصحابه فى ذلك، وإنما كما ذكرنا كثيرا سببه دخول هؤلاء المتطفلين فى الطريق.

وإذا كانت «الحضرات» من أهم الآثار التى ترتبت على قيام الطرق الصوفية فإنه من خلال هذه «الحضرات» تقرأ عادة أوراد وأحزاب أصحاب هذه الطرق والتى تمثل تراث وإنتاج شيوخهم الأبرار.

ومن هذه الناحية ينبغى لنا أن نتحدث عن:

أحزاب وأوراد الطرق الصوفية:

من أبرز نشاطهم الملحوظ الذى امتلأت به كتب أتباع الطرق الصوفية أحزابهم وأورادهم المتعددة، والتى لا يزال يحرص أتباعهم عليها حرصًا شديدًا ويعتبرون أن ورد الشيخ وحزبه ألزم لوازم الطريق.

والحزب هو مجموعة من الأذكار والأدعية، وضعها الشيخ لأتباعه للذكر واستغفار الله لأول التوبة والإنابة والثناء عليه وشكره وحمده، والقصد من ترديد الحزب دوام حضور المريد مع الله تعالى، وعدم الغفلة عنه، ولقد جرى المعتدلون من الصوفية على صياغة أحزابهم بعبارات مسلسلة واضحة قريبة المدخل سهلة الفهم، ذات أثر فعال فى النفس، كما أن أجود الأحزاب ما تضمنت أكبر قدر من القرآن الكريم باعتباره أفضل الذكر، وأكبر قدر من المأثور الوارد كيما يتحقق وجه الأفضلية فيها، من جهة، وكيما تكون شارحة معبرة عن خصائص القلوب وصفائها من جهة أخرى[١٥].

---

(١٥) كتاب أبو الحسن الشاذلى جـ ٢ لعلى سالم عمار ص ١٧٤.

والفرق بين الحزب والورد «هو أن الورد يقرأ فى أوقات منتظمة، فيقال أوراد النهار وأوراد الليل، أما الحزب فليس لقراءته وقت مخصوص»[١٦].

وينبغى أن نلاحظ أيضا أن «كل ذكر أو دعاء بعد الفرائض يسمى وردًا إذا كان مربوطًا بوقت معين. والحزب والورد كلمتان مترادفتان فى المعنى مختلفتان فى اللفظ»[١٧].

وملحوظة أخرى: «فإذا كان الكلام يعبر دائما عن ضمير المتكلم، فالأحزاب تعبر عن ضمائر مؤلفيها وعن منقولاتهم وأذواقهم الروحية، وعن مبلغ ما وصلوا إليه من المقامات والأحوال والمعرفة، كما أنها تعبر فى عباراتها وأسلوبها وصياغتها عن مبلغ مكانة مؤلفيها الأدبية والفنية، من حيث اللغة والأدب والبيان، وتميز الأحزاب بعضها عن بعض بقدر ما يجتمع فيها من المتع العقلية التى هى حظ الحكيم، ومن الأذواق الروحية وحقائق الأسرار التى هى حظ العارف، ومن العبارات الأدبية التى هى حظ الأديب، ومن الخيال الخصب الذى هو حظ الشاعر الموهوب»[١٨].

أما صاحب قوت القلوب «أبو طالب المكى» فيقول عن الورد: «اعلم أن الورد اسم لوقت من ليل أو نهار يرد، على العبد متكررًا فيقطعه فى قربه إلى الله، ويرود فيه محبوبًا يرد عليه فى الآخرة، والقربة اسم لأحد معنيين: أمر فرض عليه أو فضل ندب إليه، فإذا فعل ذلك فى وقت من ليل أو نهار وداوم عليه، فهو ورد قدمه يرد عليه غدًا إذا قدم، وأيسر الأوراد صلاة أربع ركعات أو قراءة سورة من المثانى، أو سعى فى معاونة على بر أو تقوى»[١٩].

وقال المعتمر بن سليمان «ذهبت ألقن أبى عند الموت، فأومأ إلى بيده دعنى فإنى فى وردى الرابع، فسمى الحزب من أحزاب القرآن لوقت ما وردًا، فمن العلماء من كان يجعل الأوراد من أجزاء القرآن، ومنهم من كان يجعله من أعداد الركوع، وفوق هؤلاء علماء كانوا يجعلون الأوراد من أوقات الليل والنهار فإن قطع الوقت فى آية أو ركعة أو فكرة أو شهادة فذاك ورده[٢٠].

شرعية الأحزاب والأوراد:

وقد استدل الشيخ محمد زكى إبراهيم رائد العشيرة المحمدية[٢١]، على شرعية الأحزاب والأوراد بالأمور الآتية:

١ – أن النبى ﷺ سمع بأذنه من يدعو بغير المأثور عنه، ثم لم ينكر عليه لا تصريحًا ولا تلويحًا، ولا بالعبارة ولا بالإشارة.

---

(١٦) التصوف الإسلامى جـ ٢ للدكتور زكى مبارك ص ٧٩.

(١٧) كتاب أبو الحسن الشاذلى جـ ٢ لعلى سالم عمار ص ١٧١.

(١٨) كتاب أبو الحسن الشاذلى: جـ ٢ لعلى سالم عمار ص ١٧١

(١٩، ٢٠) ق قوت القلوب لأبى طالب المكى جـ١ ص ١٦٨

(٢١) مجلة المسلم: عدد جمادى الآخرة ١٣٨٨ العدد ١١ لسنة ١٨ ذكره السيد عطية خميس فى مقدمة حزب البر للشاذلى ص٢٣ و ٢٤.

٢ - أن النبى ﷺ أقر هذا الاجتهاد فى الدعاء وحبذه بثنائه وكافأ عليه، وبذلك ندب أو أباح على الأقل الاجتهاد فى الدعاء بنحو الأحزاب والأوراد وجعله سنة إقرارية أخذ بها الصحابة والتابعون وخاصة السلف رضى الله عنهم.

٣ - أنه بناء على ذلك يجوز لمن يستطيع، ولمن لا يستطيع التعبد بالمأثور أن يتعبد بغير المأثور، من أوراد وأحزاب ومدائح وموالد وغيرها من مؤلفات الصالحين.

وقد تكون لهذه الأحزاب والأوراد وظائف: منها أنها تيسر للمريد مسألة الدعاء.

إن أحزاب القرآن أولى للمسلم من كل أحزاب سائر الأقطاب ﴿إن لك فى النهار سبحًا طويلًا. واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلًا﴾(٢٢)، فلنسبحه تعالى من خلال كلماته البينات وآياته الصادقات.

وإذا كانت الحضرات والأحزاب والأوراد من أهم آثار الطرق الصوفية فإن للطرق دورًا آخر فى مجال آخر لا يستطيع أن يغفله الباحثون وهو:

دور الطرق الصوفية فى الغناء العربى:

لعب رجال الطرق الصوفية دورًا بارزا ظاهرًا قسماته فى الموسيقى والغناء العربى، وقد كان الصوفية بحق «أصحاب الفضل فى حفظ أصول الغناء العربى من الضياع، وذلك أنه بعد سقوط بغداد أمام هجمات التتار المخربة فى الشرق، وسقوط قرطبة أمام جحافل الصليبيين المدمرة فى المغرب، طوى كثير من مظاهر الحضارة الإسلامية فى مطاوى النسيان، وكان أن انقضت مجالس الغناء الساهرة: ونسى الناس كل شىء عن الغناء العربى وصناعته، والعلم بأصوله ومصطلحاته، وإنما بقيت هذه الأصول مذكورة فى تلك الأنغام التى تتردد فى مجالس الصوفية ومحافلهم، وفى التواشيح والموالد التى يغنيها المغنون والمنشدون فى الموالد والمواسم الدينية(٢٣).

ومن ذلك يتضح لنا الدور الهام والبارز للصوفية فى الفن والغناء العربى، وفى حفظ أصول الفن من الاندثار والضياع، وقد سبق لنا الإشارة إلى أن بعض مجالس الصوفية، تحولت من مجالس ذكر، إلى مجالس فنية يتردد خلالها التواشيح والأناشيد الدينية وغيرها، خصوصًا الأعياد الدينية والموالد، وإن كنا نعتبر ذلك مأخذًا يؤخذ عليهم، ذلك أن موقفنا من السماع معروف، وقد أشرنا إليه من قبل(٢٤).

---

(٢٢) سورة المزمل الآيتان ٧، ٨

(٢٣) كتاب الفن الإلهى: لمحمد فهمى عبد اللطيف ص ٥، الكتاب من سلسلة المكتبة الثقافية.

(٢٤) الحقيقة أن موقفنا من السماع تغيرّ بعد تحقيق أحاديث تحريم الغناء وقول ابن حزم الأندلسى عن تحريم الغناء. لا يصح فى هذا الباب شىء أبدا وكل ما ورد فيه موضوع، والله لو أسند جميعه أو واحد منه عن طريق الثقات إلى رسول الله ﷺ ما ترددنا فى الأخذ به مع ملاحظة أن حديث الإمام الجليل البخارى فى تحريم الغناء يُؤخذ به لأنه موجود فى البخارى أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى. أنظر هامش صفحة ١٤٥ من هذا الكتاب.

الفصل الرابع

فى نشأة الطرق الصوفية وتاريخها
مع إلقاء الضوء على مظاهر الاختلاف بينها
ونبذة عن أهم رواد وأصحاب الطرق الصوفية
فى القرن السادس الهجرى

نلاحظ - من الناحية التاريخية - أن الصوفية قد أخذوا «منذ النصف الثانى للقرن الثالث الهجرى، ينظمون أنفسهم طوائف وطرقًا يخضعون فيها لنظم خاصة بكل طريقة، وكان قوام هذه الطرق طائفه من المريدين يلتفون حول سيخ مرشد يسلكهم ويبصرهم على الوجه الذى يحقق لهم كمال العلم، وكمال العمل: فكان من هذه الطرق:السقطية نسبة إلى السرى السقطى، والطيفورية نسبة إلى أبى يزيد طيفور البسطامى، والجنيدية نسبة إلى الجنيد، والخرازية نسبة إلى أبى سعيد الخراز، والنورية نسبة إلى أبى الحسين النورى، والملامتية أو القصارية نسبة إلى حمدون القصار»(1).

ولكن هذه الطرق لم تستمر طويلًا، ومع ذلك فقد كانت اللبنة وحجر الزاوية والأساس الذى قامت عليه الطرق الصوفية فى القرنين السادس والسابع الهجريين.

وتمثل الطرق الصوفية الحركات العملية للتصوف الإسلامى، أو بمعنى أصح هى التصوف العملى الإسلامى.

ولقد كانت الطرق الصوفية فى نشأتها الأولى فى القرنين الثالث والرابع الهجريين، تدل على أحوال الصوفية وسلوكهم ثم أصبحت تدل فيما بعد - خصوصًا فى القرنين السادس والسابع الهجريين - على نظام من الرياضات الصوفية، تمتاز به كل طريقة، «وأصبحت لفظة طريقة» عند الصوفية المتأخرين تطلق على مجموعة أفراد من الصوفية، ينتسبون إلى شيخ معين، ويخضعون لنظام دقيق فى السلوك الروحى، ويحيون حياة جماعية فى الزوايا والربط والخانقاوات، أو يجتمعون اجتماعات دورية فى مناسبات معينة ويعقدون مجالس العلم والذكر بانتظام(2).

وفى خطط العلامة على باشا مبارك يقول: «إن معظم الطرق منسوب إلى الأقطاب الأربعة: سيدى عبد القادر الجيلانى، سيدى أحمد الرفاعى، وسيدى أحمد البدوى وسيدى إبراهيم الدسوقى رضى الله -

(1) الحياة الروحية فى الإسلام للدكتور مصطفى حلمى رحمه الله ص ١١٢

(2) المدخل إلى التصوف للدكتور أبو الوفا التفتازانى ص ٢٨٦.

تعالى عنهم أجمعين ونفعنا بهم، لأن لكل واحد منهم طريقة واحدة مخصوصة لا غير، وإنما تعددت ونسبت لغيره، بتعدد من أخذها عنه مباشرة، أو بواسطة، فنسبت إلى الآخذ وسميت فروعًا، نظرًا لتفرعها عن الأصل، وهناك طرق أخرى غير منسوبة للأقطاب الأربعة، كالسعدية، والنقشبندية لأبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه - والشاذلية المنسوبة لأبى الحسن الشاذلى، كالطريقة الخلوتية والمرغينية(٣).

وإذا كان لكل طريقة نظامها وقواعدها الخاصة بها التى تتبعها، لكن الطرق جميعا تكاد تتفق كما يقول (نيكلسون) فى النقاط الآتية(٤).

١ - الاحتفال بدخول المريد فى الطريق بطقوس دقيقة مرسومة، وقد يتطلب أحيانًا من المريد قبل الدخول فى الطريق، أن يمضى وقتًا طويلًا شاقا فى الاستعداد للدخول.

٢ - التزيى بزى خاص.

٣ - اجتياز المريد مرحلة شاقة فى الخلوة والصلاة والصوم وغير ذلك من الرياضات.

٤ - الإكثار من الذكر مع الاستعانة بالموسيقى والحركات البدنية المختلفة التى تساعد على الوجد والجذب.

٥ - احترام المرشد، أو شيخ الطريق إلى درجة تقرب من التقديس.

مظاهر الاختلاف بين الطرق الصوفية:

لعل أهم ما يميز كل طريقة عن الأخرى هو لون زيها وأعلامها، مثلًا علم البدوية وزيهم أحمر. والدسوقية أخضر، وكذلك الجيلانية والرفاعية أسمر، أما الشاذلية فأعلامهم مختلفة الألوان.

وإن «الخلافات التى كانت ولا تزال بين الطرق هى فى الرسوم العملية فقط، كالزى والأوراد والأحزاب التى يرددها الأتباع وما إلى ذلك، فهى أشبه شىء بمدارس تتحد غايتها فى التعليم الروحى، وتختلف وسائلها العملية فيه باختلاف المعلم الذى يجتهد فى أن يضع لتلاميذه قواعد ورسومًا خاصة، يرى أنها أفعل فى تعليمهم، والحقيقة أن الغاية القصوى من الطريق الصوفى عندهم جميعًا كانت ولا تزال تتمثل فى غاية خلقية، هى إنكار الذات والصدق فى القول والعمل»(٥).

وأهم ما يميز كل طريقة عن الأخرى هو حزبها، أو وردها الخاص بها على ما ذكرنا سابقًا.. ويقول فى ذلك الأستاذ الدكتور توفيق الطويل: «والظاهر أن أكبر ما يميز الطوائف وردها - كما يقول لين - فلكل طائفة ورد، أو حزب أنشأه شيخها، وحرص عليه أتباعه فى حياته وبعد مماته، يرددونه فى الأوقات التى حددها لهم، ويتلونه جماعة دون أن يتغيب عن تلاوته أحد منهم»(٦).

(٣) الخطط الجديدة لعلى باشا مبارك ص ٤٣٦، ٤٣٧ باختصار.

(٤) فى التصوف الإسلامى للأستاذ (رينولد نيكلسون) والترجمة العربية للأستاذ الدكتور أبو العلا عفيفى رحمه الله ص ٦٤، ٦٥ باختصار.

(٥) المدخل إلى التصوف للأستاذ الدكتور التفتازانى ص ٢٨٦

(٦) التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى للدكتور الطويل ص ٨٠

ويرى بعض الصوفية «أن الفوارق التى تميز الفرق بعضها عن بعض غير واضحة المعالم عندهم، فهم يرون أن الطرق كلها واحدة وأن أعظم الفوارق بينها قائم فى أشخاص شيوخها»[٧].

والحق أن فى اختلاف المسالك راحة للسالك على ما يقول ابن زروق فى كتابه: قواعد التصوف الذى يقول فيه: إن فى هذا الاختلاف «إعانة له – أى للمريد – على ما أراد من بلوغ الأرب، فلذلك اختلفت طرق القوم ووجوه سلوكهم، فمن ناسك يؤثر الفضائل بكل حال، ومن عابد يتمسك بصحيح الأعمال، ومن زاهد يفر من الخلائق، ومن عارف يتعلق بالحقائق، ومن ورع يحقق المقام بالاحتياط، ومن متمسك يتعلق بالقوم فى كل مناط، ومن مريد يقوم بعاملة البساط، والكل فى دائرة الحق بإقامة حق الشريعة والفرار من كل ذميمة وشنيعة[٨]

وقد يكون فى تعدد الطرق وتنوعها واختلافها فائدة للمريد، حيث يكون أمامه فرصة عريضة لاختيار الطريقة التى توافقه وتوائم طبعه، وحين الاختيار يكون الالتزام بنهج الطريقة التى اختارها.

تاريخ التصوف والطرق الصوفية بمصر:

أول من غرس بذور التصوف فى مصر، هو «ذو النون المصرى المتوفى سنة ٢٤٥ هـ؛ وكان يعد أول من تكلم من الصوفية عمومًا فى علوم المقامات والأحوال، وشاركه فى غرسها فى القرن الثالث الهجرى أيضًا، صوفيان آخران لها مكانتها، وهما أبو بكر الدقاق المصرى، وأبو الحسن بن بنان الحمال المتوفى سنة ٣٣٦ هـ، ومن أبرز رجالها أبو على الروذبارى المتوفى سنة ٣٣٢ هـ؛ وأبو الخير الأقطع التينانى المتوفى سنة ٣٤٣ هـ، وأبو القاسم الصامت المتوفى سنة ٤٢٧ هـ»[٩].

وهذا التصوف العملى بصورته الجمعية «لم ينشأ فى مصر قبل النصف الثانى من القرن السادس الهجرى، وقد سجل المقريزى تاريخ نشأته بعام ٥٦٩ للهجرة»[١٠]، وهو تاريخ إنشاء أول الخانقوات فى عهد صلاح الدين الأيوبى.

ومن أهم المدارس الصوفية التى ظهرت فى مصر خلال القرن السادس الهجرى، «مدرسة صوفية كبيرة بصعيد مصر، وهى المدرسة التى أسسها الشيخ عبد الرحيم القنائى المتوفى سنة ٥٩٢ هـ، ثم قام عليها من بعده صوفى له مكانته فى عصره، وهو الشيخ أبو الحسن الصباغ المتوفى سنة ٦١٣ هـ. والذى أخذ عنه كثيرون جدًّا من صوفية الصعيد فى ذلك العصر، وكان القرن السابع الهجرى فى مصر عصر ازدهار تصوف أصحاب الطرق، فقد وفد إلى مصر من العراق، الشيخ أبو الفتح الواسطى، وأقام بالإسكندرية وبشر بها بالطريقة الرفاعية»[١١].

---

(٧) التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى للدكتور الطويل ص ٨٤

(٨) قواعد التصوف لابن زروق ص ٣٤.

(٩) مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مجلة ٢٥ ص ٦١. بحث الدكتور التفتازانى.

(١٠) التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى للدكتور توفيق الطويل ص ٣٧ نقلًا عن خطط المقريزى جـ ٢٤ ص ٢٧٣.

(١١) مجلة كلية الآداب: بحث الدكتور التفتازانى ص ٦٢ مجلد ٢٥.

وأود أن أقول: إن الطريقة الرفاعية والجيلانية اللتين ظهرتا فى العراق فى القرن السادس الهجرى قد انتشرتا فى مصر فى القرن السابع الهجرى، والقرون التالية له.

وإذا كان للرفاعى والجيلانى دورهما الهام فى نشر حركة الطرق الصوفية فى كل مكان، فقد كانت هناك أيضا، شخصيات صوفية هامة لعبت دورًا كبيرًا فى الطرق الصوفية فكانت من هذه الشخصيات البارزة: أبو مدين التلمسانى، وعبد السلام بن مشيش، وأبو الفتح الواسطى، الذين ساعدوا على نشر حركة الطرق الصوفية.

وبالطبع فإنه قبل أن أشير إلى هؤلاء الصوفية الثلاثة، لابد لنا من وقفة مع الرفاعى، صاحب الطريقة الرفاعية، والجيلانى، صاحب الطريقة القادرية، لنتعرف عليهما وعلى طريقتيهما وأصولها ومبناهما.

أولًا – أحمد الرفاعى: صاحب الطريقة الرفاعية: ٥١٢ هـ / ٥٧٨ هـ

ولد الرفاعى بقرية حسن المعروفة بأم عبيدة من أعمال واسط، بالعراق، سنة ٥١٢ هـ ومات سنة ٥٧٨ هـ ودفن فى أم عبيدة فى قبته المشهورة...، وسيدى أحمد الرفاعى نسبة إلى جده السابع رفاعة واسمه الحسن، وكان قد هاجر من مكة لما كثر الجور على الشرفاء، ونزل بالمغرب، وأقام فى قبيلة من العرب، وظل نسله فى المغرب إلى أن هاجر أحد أحفاده – وهو السيد أبو الحسن والد الامام الرفاعى الكبير رضى الله عنه[١٢].

وخلف الرفاعى خاله الصوفى الكبير، الشيخ منصور البطائحى الربانى وأصبح للرفاعى أتباع كثيرون وأصبحت أم عبيدة مركزًا كبيرًا للطريقة الرفاعية.

وقد سمى الرفاعى «شيخ الطائفة البطائحية[١٣] وذلك لسكناه أم عبيدة من قرى البطائح، وهى بين البصرة وواسط[١٤].

وقد كان رضى الله عنه متبعا للقرآن والسنة، وتميزت شخصيته بالتواضع ودعوته للعمل، والتوكل على الله، وكان سمحًا، محبًّا للإنسان والإنسانية جمعاء.

فمثلا مما يدل على دعوته القوية لاتباع القرآن والسنة قوله فى كتابه البرهان المؤيد: أى سادة: كونوا مع الشرع فى آدابكم كلها ظاهرًا وباطنًا، أى سادة: منكم فقهاء وعلماء أيضا، ولكم مجالس وعظ، ودروس، تقرءونها، وأحكام شرعية تذكرونها وتعلمونها الناس.. بذلت نفسى، ولم أسلك طريقا

(١٢) الرفاعى للاستاذ الدكتور وصفى ص ٣٢.
(١٣) الفكر الشيعى والنزعات الصوفية حتى مطلع القرن الثانى عشر الهجرى للدكتور الشيبى ص ٣٢٢.
(١٤) نقلها الدكتور الشيبى عن البداية والنهاية لياقوت جـ ١٢ ص ٣١٢.
وكتاب الدكتور الشيبى ص ٣٢٢.

إلا سلكته وعرفت حصته بصدق النية، والمجاهدة، فلم أجد أقرب وأوضح وأحب من العمل بالسنة المحمدية، والتخلق بخلق أهل الذل والانكسار والافتقار(١٥).

وفى نص رائع يقول: أى سادة: عظموا شأن الفقهاء والعلماء كتعظيم شأن الأولياء والعرفاء، فإن الطريق واحد، وهؤلاء وراث ظاهر الشريعة، وحملة أحكامها الذين يعلمونها الناس، وبها يصل الواصلون إلى الله، إذ لا فائدة بالسعى والعمل على الطريق المغاير للشرع، ولو عبد الله العابد خمسمائة عام بطريقة غير شرعية، فعبادته راجعة إليه، ووزره عليه، ولا يقيم له الله يوم القيامة وزنا، وركعتان من فقيه فى دينه أفضل عند الله من ألفى ركعة من فقير جاهل فى دينه، فإياكم وإهمال حقوق العلماء، وعليكم بحسن الظن فيهم جميعًا، وأما أهل التقوى منهم العاملون بما علمهم الله فهم الأولياء على الحقيقة، فلتكن حرمتهم عندكم محفوظة(١٦).

من هذا يتضح لنا كيف كان الرفاعى متصوفًا سنيًا متشرِّعًا متحققًا لدرجة أنه كان يقول: «كل الآداب منحصرة فى متابعة النبى ﷺ قولاً وفعلاً وحالاً وخلقا » فالصوفى آدابه تدل على مقامه. زنوا أقواله وأفعاله وأخلاقه بميزان الشرع يعلم لديكم ثقل ميزانه وخفته»(١٧).

وكثيرا ما نصح أتباعه بقوله: «أى سادة: إياكم والدجالة، إياكم والشيطانية. إياكم والطرق التى تقود إلى كلا الوصفين(١٨).

ومن المعروف أن الصوفية أرباب أحوال، وقد يشطح بعضهم لشدة حاله «إلا الرفاعى رضى الله عنه وأرضاه، كان لشدة أدبه مع الله شديد التحكم فى نفسه، فلم يدلف أبدا أو يشطح فى كلامه، بل إن الإمام نقد الشاطحين أشد النقد ولم يقر الحلاج على قوله: «أنا الحق، أو ما فى الجبة غير الله، ونفى عنه الوصول»(١٩).

لقد كان الرفاعى حقا متمسكًا بالشريعة الغراء، داعيًا أتباعه إلى التمسك بها والسير على هداها.،، وهذا ينفى بالطبع تلك الفكرة الخاطئة، التى تعتبر أن فى اتباع الطرق الصوفية خروجا عن الأصول الشرعية لديننا الحنيف، فقد وجدنا التساوق فى دعوة الرفاعى لأتباعه المتصوفة فى التفقه فى الشريعة تفقههم فى الحقيقة، وفى دعوته لأتباعه إلى تعظيم وتقدير الفقهاء والعلماء كتقديرهم للأولياء، فإن الطريق واحد.

وكما كان الرفاعى داعيًا إلى اتباع الشريعة والعمل بالقرآن والسنة فقد تميزت هذه الشخصية الداعية إلى طريق الله بتواضع جم، وبساطة شديدة، يقول فى برهانه المؤيد: «ما دخل ساحة القرب من استصغر الناس واستعظم نفسه، من أنا، ومن أنت، أنا لست بشيخ، لست بمقدم على هذا الجمع،

---

(١٥) البرهان المؤيد للرفاعى: تحقيق صفوة السقا من صفحة ٥٤ إلى ٦١.

(١٦، ١٧، ١٨) البرهان المؤيد للرفاعى: تحقيق صفوة السقا من ص ٥٤ إلى ص ٦١.

(١٩) الرفاعى للدكتور وصفى ص ٥٩.

لست بواعظ، لست بمعلم، حشرت مع فرعون وهامان إن خطر لى أنى شيخ على أحد من خلق الله، إلا أن يتغمدنى الله برحمته فأكون كآحاد المسلمين»[٢٠].

ويصل به التواضع الأصيل لأن يقول: «كل الفقراء ورجال هذه الطائفة خير منى أنا أحيمد اللاشن، أنا لاشن اللاشن»[٢١].

يقصد أنه العبد المتواضع.

وإذا انتقلنا إلى مفتاح آخر من مفاتيح هذه الشخصية الصوفية المشرقة، نجده داعية لله والعرق والكسب الحلال، وهذا ينفى أن الطرق الصوفية دعوة للسلبية والكسل.

لقد كان الرفاعى يعمل بالاحتطاب، وأعمال أخرى متنوعة «حتى يضمن لقمة العيش التى تمكنه من عدم الاعتماد على أحد، وكان يشرط على كل من يستمع إلى درسه، أن يكون له عمل، فإن لم يكن، فليبحث، فإن عجز هيأ هو له أى حرفة يقتات منها، وإلا فلا يسلك فى طريقته.. إذ لا ينضم فى صفوفنا عاطل»[٢٢].

والرفاعى يعلنها صريحة قوية، طريقى: دين بلا بدعة، وهمة بلا كسل، وعمل بلا رياء، وقلب بلا شغل، ونفس بلا شهوة.

وكان من أبرز مفاتيح تلك الشخصية العظيمة: الحب، «فقد كان شعار حياته هو الحب، الحب الذى يملأ قلبه وروحه ووجدانه وآفاق حياته، وكان فانيًا فى محبته لله، ومن هذا الحب انبثق حبه للناس جميعًا، بل حبه لكل حى، من إنسان وحيوان ونبات، بل حبه للكون كله، لأن الكون لدى المتصوفة ليس جمادًا أو ليس مادة، بل هو كائن حى مدرك له إحساسه وشعوره وإيمانه وتسبيحه»[٢٣].

حقيقة أن من أشرق ما فى الإمام أحمد الرفاعى، حبه للناس جميعًا «وهو إلى جانب مسئولياته الثقافية والتعليمية، كان يبحث عن أتباعه ومريديه – واليتامى أبناء المسلمين، فإذا كان بأى واحد منهم حاجة، سعى إلى قضائها حتى ولو كان فى حاجة إلى توصيل المياه إلى منزله حملها هو له، وفى ذلك يقول رضى الله عنه عندما طلب منه يوما أن يجلس فى المسجد، وفى داره، معلمًا.. فقيها.. وأن يقوم غيره بما يفعل فأجاب: «إن تجارتى خدمة النساء والأرامل واليتامى، وأحب أن أشهد نفسى فى خدمتهم دائما، وإذا رأيت يتيما يبكى تهتز مفاصلى، وترتعد أعضائى، حنانًا له وشفقةً عليه وأخاف منه بكاءه»[٢٤].

يقول عنه الشعرانى: «وكان إذا سمع بمريض فى قرية ولو على بعد، يمضى إليه يعوده ويرجع بعد يوم أو يومين، وكان يخرج بالطريق ينتظر العميان حتى إذا جاءوا يأخذ بأيديهم ويقودهم، وكان إذا رأى

(٢٠) البرهان المؤيد: الطبعة المحققة بواسطة الأستاذ صلاح عزام ص ٢٥، ٢٧.

(٢١) المصدر السابق: الطبعة المحققة بواسطة صفوة السقا ص ٢٤.

(٢٢) الاقطاب الثلاثة للاستاذ صلاح عزام ص ٢٥.

(٢٣) نشرة مشيخة عموم الطرق الصوفية: التصوف الاسلامى ص ١٨.

(٢٤) الأقطاب الثلاثة للأستاذ صلاح عزام ص ٣٢.

شيخا كبيرًا، يذهب إلى أهل حارته ويوصيهم عليه، وكان رضى الله عنه لا يجازى قط السيئة بالسيئة»(٢٥).

هذا هو الطريق الحق كما رسمه الرفاعى، بل كان الرفاعى. رعاية كاملة لحقوق الله، والعمل بشريعته السمحاء، عمل وجهاد فى الحياة، تواضع وحب للبشر جميعا.

الرفاعى وتأثير الرفاعية فى الثعابين والحيوانات.

عرف الرفاعى بحنانه الشديد على الإنسان والحيوان.. وكان أشد ما يكون حدبًا ورعايةً وحنانًا على الحيوانات الضالة والمريضة.

فشدة الحدب ورقة القلب «هما من أميز خصائص الرفاعى، ومن هذه الصفة استمد كراماته المتعلقة بإخضاع الحيوان والتأثير فيه»(٢٦).

ويقول الدكتور وصفى: «أما ما يأتيه أبناء الطريق فى هذا السبيل فهو من مدد شيخهم، وذلك مع الإخلاص ونقاء السريرة، وهو يكون بقدر الاعتقاد فى الشيخ واستجلاء همته، والسبب فى ذلك: أن المريد يتطبع بطابع النقاء الشديد والصفاء الذى تكسبه إياه الطريقة الرفاعية، والقوة الروحانية، التى يكتسبها من رياضاتها إلا أنه يجب الاحتراس فى ذلك، لأن هذه الخوارق قد تترتب على تدخل شيطانى لينصرف السالك عن همته إلى اللهو»(٢٧).

ويحذرنا من ذلك فيقول: «ولذلك يحرم على المريد تجريب نفسه فى ذلك، أو الاسترسال فيه، وكل ما يطلب منه أن يكون موفقا من أن عزم شيخه، وحضور همته، سيجعله آمنا من ضرر الأفاعى ونحوها، وذلك إذا دعت الضرورة. وبقدر هذه الثقة تكون النتيجة بإذن الله.

وليس لهذه الخاصية استعداد معين سوى شدة الإخلاص والنقاء، فليس لها «شربة» كما يزعم بعض أهل البدع أو أدعية خاصة، ولا عزائم خاصة، فكل ذلك بدع محرمة شرعًا، ولهذا فإن المشيخة تحارب هذه الأمور منعًا من انشغال أبناء الطريق عن الله، حتى لقد تبرأ الإمام ممن يلعب بالأفاعى ونحوها»(٢٨)

ويقول لين: «إن الفعال العجيبة التى تنسب إلى الرفاعية كجلوسهم فى الأفران المتأججة وركوبهم الأسد وغير ذلك(٢٩)، لم تكن معروفة لدى منشىء هذه الطريقة، وقد استحدثت بعد الغزو المغولى، ومهما يكن من شىء فإن هذه الفعال لم تكن من بدع الرفاعى، لأن التنوخى الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى ذكر فعالا سبيهة بها»(٣٠).

---

(٢٥) طبقات الشعرانى ص ١٢٣.

(٢٦، ٢٧، ٢٨) كتاب الرفاعى للأستاد الدكتور وصفى ص ٣٢، ٤٣.

(٢٩) وصف هذه الفعال فى كتابه.

An account of the manners and customs of Egyptians. London 871

(٣٠) دائرة المعارف الإسلامية ص ١٤٨.

ويرى البعض أن أفراد هذه الطريقة يعمدون إلى «طعن أنفسهم بالمدى، وأكل النار، وازدراد الأفاعى، وغير ذلك من الأمور العجيبة التى يفسرون قدرتهم على فعلها بأن النفس وقد ملك عليها ذكر الله كل سبيل تصبح فى حالة غيبة تفارق فيها البدن، وتصعد إلى الملأ الأعلى، حيث تتصل ببارئها، ويصير البدن كأنه خلو من الحياة، فلا يحس ما يولده أكل النار وازدراد الأفاعى والطعن بالمدى من الآلام»(٣١).

ومن قبل أوردنا، رأى أحد أبناء الطريقة الرفاعية، الدكتوز وصفى فى ذلك حين ذكر أنه ليس لهذه الخاصة استعداد خاص سوى الإخلاص، والطهر، ثم أن الامام الرفاعى نفسه يبرأ ممن يتكسب من لعب الأفاعى واحترافه.

أصول الطريقة الرفاعية وكيفية الانتساب والدخول فيها:

تقوم الطريقة الرفاعية أولا: «على القول بصحة رواية الخرقة من جهة، وأن الشياخة فيها، أو المطبانية، إنما تؤخذ بالعهد والاستخفاف، من شيخ عن شيخ على غرار الطريقة البرهانية والسطوحية، ثم أنها تتفق فى الجانب العملى منها على ظاهر الكتاب والسنة.. أضف إلى ذلك اصطناع الخلوات والإكثار من الأدعية والأذكار وقراءة الأحزاب والأوراد»(٣٢).

وقد رسم الإمام الرفاعى لمريديه معالم الطريق للدخول «فقسم المريدين إلى مجموعات، على كل مجموعة شيخ يقوم بتعليمهم معالم الطريق، ويسمى أيضا الخليفة، ولكل مجموعة من المشايخ شيخ مشايخ، أو ما يسمى خليفة الخلفاء.

وعلى المريد حتى يسير على نهج الرفاعى أن يتبع تعاليمه ويعمل بما قاله الإمام الرفاعى «أى يا سادة أعينونى على أنفسكم بخمس خصال:

الأولى: سنة الرسول..

والثانية: موافقة السلف على حالهم..

والثالثة: لباس ثوب التعرية من الدنيا والنفس.

والرابعة: تحمل البلاء والاستسلام له.

والخامسة: لباس الوقار واجتناب الجفاء..، وعليك بلباس الرقعة فإنها لباس الذل والانكسار والتواضع»(٣٣).

وكان الرفاعى ينصح أتباعه دائما بقوله لهم كونوا مواظبين على الصلاة المفروضة،وابعدوا عن الحرام! وراعوا الآداب على مقتضى آداب الخالق، وامشوا على منهج الحق والطريق المستقيم، وتقيدوا

---

(٣١) الحياة الروحية فى الإسلام للأستاذ الدكتور محمد مصطفى حلمى ص ١٥٩

(٣٢) كتاب الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى للأستاذ الدكتور على صافى حسين ص ٢٨

(٣٣) كتاب الأقطاب الأربعة ص ٢٨ للاستاذ صلاح عزام .

بخدمة الفقراء إخوانكم والضيوف والغرباء والمساكين.. وعليكم بالأذان حسبة، فإن للمؤذنين درجة عالية عند الله»[٣٤].

وكما ذكرنا من قبل أن الطريقة الرفاعية انتشرت فى مصر فى القرن السابع الهجرى، وذلك حين وفد إليها أبو الفتح الواسطى فى مستهل القرن السابع وأقام بالإسكندرية وبشر بها.

والطريقة ليست وراثة ولا حرفة كما يقول الرفاعى فى برهانه المؤيد: «أى حبيبى، تظن أن هذه الطريقة تورث من أبيك، تسلسل من جدك، تأتيك باسم بكر وعمر، وتصر لك فى ونيقة نسبك، تنقش لك على جيب خرقتك، على طرف تاجك، حسبت هذه البضاعة ثوب شعر؟ وتاجًا وعكازًا وعمامةً كبيرةً؟ وزيا صالحًا، لا، والله. إن الله لا ينظر إلى كل هذا، ينظر إلى قلبك كيف يفرغ فيه سره، وبركة قربه، وهو غافل عنه بحجاب التاج، بحجاب الخرقة، بحجاب السبحة، بحجاب العصا، بحجاب المسوح، ايش هذا العقل الخالى من نور المعرفة، ايش هذا الرأس الخالى من جوهر العقل، ما عملت بأعمال الطائفة وتلبس لباسهم يا مسكين»[٣٥].

ولقد بنى الرفاعى طريقته «على الأدب والتمكين والسكينة والتواضع والذل والانكسار والرفق بالخلق، والازدراء بالنفس، وعدم الاعتراف لها بمقام، والتجرد من الدنيا وهى مقبلة عليه»[٣٦].

والطريقة الرفاعية «مبنية على الجهر بالذكر كالقادرية.. وقد غلب على الكثيرين من المنتسبين إلى هذه الخرقة التواجد عند السماع، والغيبوبة عند الذكر، وغلبة الأحوال عليهم»[٣٧].

طريقة الانتساب والدخول فى الطريقة الرفاعية[٣٨]:

أول الطريق، التوبة، وهذا لا يمنع من تكرار التوبة على طول الطريق، يقول الإمام الرفاعى رضى الله عنه: كلما جدَّد الفقير توبته فذلك لطف وإنعام يجود الكريم به.

والبيعة فى الطريقة الرفاعية تكون بأمر المرسد للمريد، بوضوء جديد، وبصلاة ركعتين بنية التوبة، ثم يجلس المرشد على السجادة، ويجلس المريد مقابلا له بالأدب والخضوع، لاصقا ركبتيه بركبتى المرشد مطرقا خاضعا لله تعالى حتى يتجرد من وساوس النفس ودسائس الشيطان، وعند ذلك يقرأ المرشد ثلاث فواتح سرا، ثم يقرأ الاستعاذة، وآية المبايعة ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهدعليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما﴾*ثم يقرأ ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله

(٣٤) المرجع السابق نفسه

(٣٥) البرهان المؤيد للرفاعى. تحقيق صلاح عزام ص ٣٦

(٣٦) كتاب أبو الحسن الشاذلى جـ ١ لعلى سالم عمار ص ١٢٩.

(٣٧) مخطوط سلسبيل الطرائق للإدريسى ص ١٧.

(٣٨) اعتمدنا فى كتابة مادة هذه الفقرة على كتاب «المعارف المحمدية فى الوظائف الأحمدية» للسيد عز الدين أحمد الصيادى الرفاعى من صفحة ١٢٠ إلى ١٤٧ وكتاب «الإمام الرفاعى» للأستاذ الدكتور مصطفى وصفى ص ٨٤ إلى ٩٦.

* سورة الفتح آية ١٠.

يعلم ما تفعلون﴾* ثم يقول: أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه من جميع الذنوب «ثلاثا».

ويتابعه المريد سرا بالاستغفار، ثم يمسك بيده اليمنى يد المريد ويلقنه الذكر وهو القول: لا إله إلا الله «ثلاثا»، فيقول المرشد ويردد المريد، ثم يلقنه العهد وهو: أشهد الله وملائكته ورسله وأنبياءه والحاضرين من خلقه أنى تائب الى الله مجتنب لمحارمه، مجتهد فى طاعته، منيب إليه، مواظب على خدمة الفقراء بحسب الطاقة، وأن الطاعة تجمعنا، والمعصية تحول بيننا، والعهد عهد الله ورسوله، وأن اليد يد أحمد الرفاعى، وهو شيخنا فى الدنيا والآخرة، والله على ما نقول وكيل». ثم يقول المرشد مخصصا نفسه: «العهد عهد الله، واليد يد الله، والبيعة بيعة رسول الله، والهدية هدية الشيخ الأعظم، قدوة الأولياء، شيخ مشايخ العرب والعجم، قطب الاقطاب، سلطان العارفين. شيخنا الشيخ أحمد الرفاعى الكبير قدس الله أسراره العليا «ثم يقرأ الفاتحة، ويقرأ ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾**. وقال بعض السادة الرفاعية: ثم يقول المرشد للمريد قم مريدًا بالطريقة الرفاعية ويقرءون الفاتحة لأهل العهد.

والانتساب إلى الطريق على وجهين: إما انتساب بركة، أو انتساب إرادة.

وانتساب البركة، هو أن يلتمس المريد من الشيخ وأهل الطريق البركة دون أن يلزم نفسه بالرياضات... أما انتساب الإرادة فهو يكون للسالك لأصول الطريق حسب رياضاته، وهو الذى يناط به الارتقاء فى مدارجه حسب التفصيل الآتى:

مدارج الطريق حسب الترتيب الحالى هى: المريد ، فالخليفة، فخليفة الخلفاء ، فالنيابة الكبيرة. وهذه المدارج إدارية بحتة.

أما المدارج الروحية فتسمى أسماء أخرى، فهى تبدأ بالمريد، ثم المقدم أو الجاويش، ثم النقيب، وهى نهاية الدرجات الروحية، وللانتقال من درجة إلى أخرى رياضة مخصوصة بها.

ولما كانت أسباب البلاء كله فى زلات اللسان من الغيبة، والنميمة، والسباب، فإن الطريق قد عنى بأن يشغل المريد عن ذلك بالذكر ويفرض خلوات دورية تطهر قلب المريد، وتعيد إليه الصفاء.

وفى مبدأ التحاق المريد بالطريقة المباركة، يكلفه المرشد ذكرا باسم «لا إله إلا الله» حسب طاقته، أى بأكثر ما يمكنه، وما تتحمله نفسه، وكذلك الصلاة على حضرة الرسول بأبسط صيغة كقول: صلى الله عليه وسلم، حسب طاقته أيضا، وبحيث يشغل سائر أوقاته بهذا الذكر، وبهذه الصلاة ما استطاع، ويقوم المريد أيضا «بخلوة المحرم» التى سيرد ذكرها، وهى لازمة لأبناء الطريق، على اختلاف درجاتهم، وذلك فى أوانها، كما يقوم بالرواتب بعد كل صلاة، وبعد ذلك يربط له عددًا معينا من ذكر (لا إله إلا الله) حسب حالته، وبدون أن يشق عليه مع استمراره على الرواتب بعد كل صلاة.

---

* سورة النحل آية ٩١.

** سورة إبراهيم آية ٢٧

وهذا الذكر، قد يكون خمسين بعد كل صلاة، ويصل فى المتوسط إلى خمسمائة، وقد يصل إلى ألفين وخمسمائة، بل ويجوز أن يكون لأكثر من ذلك، إذا لم يكن فيه ما يعطل سعيه للدنيا.، وإذا كانت حالته تستلزم كثرة الذكر، وهو بعد ذلك يداوم على الصلاة على حضرة الرسول ﷺ فى سائر أوقاته حسب طاقته، فإذا لمس من المريد إخلاصا نقله إلى الذكر باسم «الله»، وأقل العمل بها كما جاء فى قلادة الجواهر «ألفان وخمسمائة» بعد كل صلاة من الصلوات الخمس لمدة لا تقل عن ثلاثة أشهر، ويجب على الشيخ أن يترفق بمريده، إذا استدعت ظروفه ذلك

ومن الرواتب أيضا الصلاة على حضرة الرسول ﷺ بدون عدد مرسوم بصفة مطلقة بسيطة، أو بعدد مرسوم بعد كل صلاة: خمسين وهو أقل العمل بصيغة من الصيغ الرفاعية المذكورة بعد.

ويستمر على ذلك مدة لا تقل عن ثلاثة أشهر، وعند ذلك يجوز أن يتقدم المريد إلى رتبة الجاويش، أو المقدم، ويكون ذلك بعد اجتياز خلواتها، وهذه الخلوات أربع :

الأولى: ثلاثة أيام والابتداء فيها يكون يوم الأحد.
والثانية: ثلاثة أيام والابتداء فيها يكون يوم الاثنين.
والثالثة: أربعة أيام والابتداء فيها يكون يوم الثلاثاء.
والرابعة: خمسة أيام والابتداء فيها يكون يوم الأربعاء.

ويفصل بين كل منها عشرة أيام.

وشرط الأكل فيها، ألا يأكل المتريض إلا فى الصباح والمغرب، ولا يزيد فيها على ما يسد الرمق، وبشرط ألا يدخل طعامه شيئا ذا روح، وأن يكون المتريض محجوبا، عن الناس تماما، فى مكان مخصوص طاهر، لا يدخله أحد ولا يدخله عياله، وإذا خرج لقضاء حاجة فليخرج تحت ستر من غير انحراف إلى طريق آخر، وأن يشتغل بالذكر المربوط للرياضة الأولى، وهى (يا حميد) بعدد، أقله ثلاثة آلاف مرة، عقب كل صلاة مع آداب الذكر، وعليه أن يتهجد بالليل باثنتى عشرة ركعة، وأقل العمل أربع ركعات، وبعد كل فريضة يصلى على حضرة النبى ﷺ ثلاثًا وعشرين مرة ويختم بالفاتحة، وذلك مع إتقان الوضوء والصلاة والسنن غاية الإتقان، وفى الرياضة الثانية يكون ذكره (يا رحيم) أقله أربعة آلاف مرة مع ما تقدم وفى الرياضة الثالثة (يا وهاب) أقله خمسة آلاف مرة.

والذكر المربوط للرياضة الرابعة بعد كل صلاة «يا قدوس» أقله ستة آلاف مرة.

وبعد خروجه من الرياضة الرابعة يكون ذكره «ذو الجلال والإكرام» كل يوم ألف مرة، ويبقى على هذه الحالة إلى أن تصدر للمرشد إشارة بأن يعينه فى المرتبة التالية، وهى مرتبة النقيب.

والرياضات المربوطة للسالك بعد دخوله هذه الرتبة خمس:

الأولى: أربعة أيام والابتداء يوم الخميس.
والثانية: خمسة أيام والابتداء يوم الجمعة بعد الصلاة.

والثالثة: ستة أيام والابتداء يوم السبت.
والرابعة: سبعة أيام والابتداء يوم الأحد.
والخامسة: ثمانية أيام والابتداء يوم الاثنين.
ويفضل أن يكون بين كل منها خمسة أيام.

والطعام المعين للسالك فى تلك الرياضات الخمس خبز الشعير، والملح، والزيت بحسب طاقته من القلة.

ويكون الطعام المذكور صباحا ومساء موزونا بقدر واحد.

والأسماء التى تقرأ فى هذه الرياضات هى:
فى الأولى: (يا حق) أربعة آلاف مرة.
وفى الثانية: (يا حنان) خمسة آلاف.
وفى الثالثة: (يا حليم) ستة آلاف.
وفى الرابعة: (يا حى) سبعة آلاف.
وفى الخامسة: (يا حافظ) ثمانية آلاف.

فإذا أتم السالك هذه الرياضات الخمس أمره المرشد بذكر الاستغاثة وهى «سبحانك لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين» فى كل يوم بعد كل صلاة خمسمائة مرة.

ويبقى على هذه الحالة إلى أن تصدر إشارة للمرشد من طرف السلسلة الرفاعية المباركة، بتقريب السالك، فيدخله المرشد فى خلوة التهذيب، وهى واحد وأربعون يوما، وشروطها: صيام الأيام المذكورة، ويكون الفطور والسحور فيها على خبز الشعير، وماء السكر، واللوز، أو الفول السودانى، بوزن واحد، ويكون فى الليل بعد قراءة الورد، وذكر العشاء، أقله ساعتان وأكثره أربع ثم يظل متهجدا حتى الفجر، ويذكر الله، ويصلى الصبح، ويبدأ بالورد الشريف، والاسم المربوط لهذه الخلوة، هو «يا حميد» فى اليوم والليلة الأولى ألف مرة، وفى كل يوم يزيد الذكر ألف مرة، إلى ختام الليلة الأخيرة، فيكون واحدًا وأربعين ألف مرة.

وبعد خروجه يأمره بذكر مناجاة الطالبين، وهو: «ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا» بعد كل صلاة خمسمائة وسبعة وخمسين مرة، ويبقى على هذه الحالة إلى أن تظهر للمرشد إشارة من طرف السلسلة الرفاعية المباركة فيرقيه إلى الرتبة التالية، وهى رتبة الخليفة: وهى تجيز إعطاء العهد الرفاعى الكريم.

والورد المربوط لهذه الدرجة هو سورة الاخلاص، كل يوم مائة مرة، وسورة سبح اسم ربك الأعلى سبع مرات، والصلوات على حضرة النبى ﷺ مائة مرة، (ولا إله إلا الله) مائة مرة، والحزب أو الورد الذى تحصل فيه الرخصة من جانب المرشد من أحزاب حضرة الإمام الكبير، ويقول فى ليلة الجمعة على الخصوص منفردا «أستغفر الله العظيم» مائة مرة، والصلاة على سيدنا محمد بصيغة «اللهم صل

على سيدنا محمد النبى الأمى الطاهر الزكى صلاة تحل بها العقد، وتفك بها الكرب، وعلى آله وصحبه وسلم» مائة مرة، وسورة الفاتحة سبع مرات، وذلك مع قراءة فاتحة للرابطة الرفاعية المباركه.

وعلى صاحب هذه الرتبة «الخليفة»، حتما خلوة سبعة أيام كل سنة، وابتداء الدخول فيها من اليوم التالى لعاشوراء، ويكون الطعام فيها خاليا من كل ذى روح والذكر فيها:

اليوم الأول: «لا إله إلا الله» ثلاثة عشر ألف مرة، وعلى رأس كل مائة هذا الدعاء المبارك، اللهم اغرس فى قلبى شجرة (لا إله إلا الله) وأظهر على لسانى ينابيع حكمة (لا إله إلا الله)، واحفظنى يارب من كل سك، وكفر ورياء ومن مكر الماكرين وحسد الحاسدين، وعداوة المعادين، ومن شر نفسى، وشيطانى، وهواى بعناية ووقاية (لا إله إلا الله).

وذكر اليوم الثانى: «الله»، سبعة وعشرون ألف مرة.، والدعاء «اللهم اسقنى من خمر المشاهدة، وأغرقنى فى بحر المراقبة، وفهمنى دقائق المعرفة، وحقائق الحقيقة لأكون منك خائفا وبك عارفا».

وذكر اليوم الثالث: «وهاب» اثنان وثلاثون ألف مرة، ودعاؤه اللهم ارزقنى مواهبك الربانية موهبة أطلع ببركتها على مخفيات الرموز ومعميات الكنوز تجلى عين بصيرتى بكحل موهبتك يا وهاب.

وذكر اليوم الرابع: «حى» خمسة وثلاثون ألف مرة «ودعاؤه» «اللهم أحينى حياة طيبة أذوق بها حياة الحب، وطعم سراب القرب، فأكون بك حيا ولك وليا فأموت بك تقيا. وأحيا بك مرضيا. يا حى».

وذكر اليوم الخامس: «مجيد» ثمانية وثلاثون ألف مرة، ودعاؤه «اللهم مجد قدرى بحبك، وسرف مرتبتى بقربك، حتى أكون بحبك ممجدا وبقربك مؤيدا. وأطلع على دقائق المجد، ورقائق المدد والمجد، وألبس من تيجان المجد والسعد بفضل براهين مجدك يامجيد.

وذكر اليوم السادس: «معطى» أربعون ألف، وثلثمائة مرة. ودعاؤه اللهم أعطنى من فضلك عطاء وفيا أتقرب بسببه لأبواب محبتك، وأكون من أهل حضرتك، وأشاهد أسرارك القدسية فأفوز بعطية جودك الوفية «يا معطى».

وذكر اليوم السابع: «قدوس» خمسة وأربعون ألف مرة، ودعاؤه «اللهم قدس سرى، وروحى بسر سرك وبروح روحك، وأوصلنى لمنازل الأنس، واسقنى من مشارب القدس، فيكون سرى بك مقدسًا مطهرًا من كل عيب ودنس عرض، أو وهمى بثبوتى، أو خاطرى ببركة قدسك يا قدوس».

خلوة السبعة «المحرم»:

وإلى جانب هذه الخلوات المخصوصة بمختلف الدرجات، على كل الإخوان فى الطريق الرفاعى، وكل من أخذ العهد، أن يقوم بخلوة سبعة أيام، ابتداء من اليوم التالى من عاشوراء، وهى حتم لازما. باتفاق جميع المراجع مع كل من أخذ الطريق الرفاعية، والتمس لأهلها من المريدين والإخوان، وسروطها صيام السبعة الأيام المذكورة، وأن يكون الصائم على وضوء دائم، ولا ينام فى تلك الأيام

السبعة مع عياله بفراش قطعا، ولا يأكل من ذى روح، وأن يحفظ لسانه من التكلم بكلام الدنيا، وأن يربط قلبه فى الله بسائر أوقاته وخلواته مع استحضار همة المرشد.

والذكر المربوط للإخوان بهذه الخلوة هو «يا وهاب» مائة مرة بعد كل صلاة ثم مائة مرة «اللهم صل على سيدنا محمد النبى الأمى الطاهر الزكى، وعلى آله وصحبه وسلم، «مع الفاتحة عند البدء والختام لسيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولصاحب الطريق - رضى الله عنه - والسلسلة الرفاعية المباركة ولشيخه ولإخوانه المسلمين أجمعين.

وقد قال الإمام الرفاعى: «إن خلوة السبعة سبب الفيض للسالك، والمريد الصادق فى كل سنة، من جهة السلسلة الرفاعية..، ومن لم يستطع أن يقوم بالخلوة على وجه الكمال، فلا أقل من أن يقوم بسائر سروطها، ويستعيض عن البعد عن الناس بحفظ لسانه وقلبه.

ولعل هناك اشتراكا فى خلوة السبعة أيام (المحرم) عند الرفاعية، وعند الشيعة، فإذا كانت الخلوة المحرمية تعنى، أن على الرفاعى أن يعتكف سبعة أيام، أولها الحادى عشر من شهر المحرم، فإن الحادى عشر من محرم الحرام هو اليوم الثانى، لقتل الشهيد الإمام الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما، (فهذه الأيام السبعة التى يقضيها المريد الرفاعى، تعنى إظهار الحزن الشديد على الحسين، كما يفعل الشيعة على صورة فيها مبالغة فى الحزن، ولكن تقادم العهد أنسى أصحاب الطريقة وغيرهم دلالات مراسمها، فلم يلتفتوا إلى الممرات السرية التى تصلهم بالتشيع(٣٩).

وأنا لا أريد أن أرد أصول الطرق الصوفية إلى التشيع كما يحاول الأستاذ الدكتور الشيبى.. وإنما أردد ما قلته من قبل.. إنه قد يكون هناك اشتراك بين الطرق الصوفية وبين الشيعة فى ظاهرة ما..، ومن المبالغة أن نرد كل اشتراك فى ظاهرة إلى تأثير إحداهما فى الأخرى، فهنا يظهر تعصب الباحث لمذهبه سواء كان شيعيًّا أو سنيًّا أو صوفيًّا.

وبعد.. فهذه هى سائر خطوات التدرج فى الطريق، وخلوته الشهيرة عقب عاشوراء.. أما سائر الرياضات فهى: الذكر، والصلاة على الرسول الكريم، وتلاوة الأدعية، وآيات القرآن الكريم، والأحزاب، والأوراد.

وفى النهاية ينبغى أن نشير إلى أن الإمام أحمد الرفاعى لم يقيد أصحابه وأتباعه بزى مخصوص، ولا بلباس مخصوص، بل أباح لهم ما أباحه لهم الشرع. ولم يخصص إلا العمامة السوداء، وقد خصص الزى الأسود لنفسه الطاهرة وأتباعه تخصيص إطلاق بلا قيد، يقول الرفاعى: إن أصول طريقتنا لا تمنع من حسن الزى والمظهر، لتنعم، لأن ذلك أوجب للشكر، وإنما الفقر والزهد محلهما القلب فلا بأس على الفقير، أن يتخذ أسباب النعمة ما دام قلبه غير متعلق بها.

أما ثياب الإمام الرفاعى نفسه فمن المعروف أنها كانت قصارا، كمه لا يبلغ قبضته. ولم يلبس ثوبا جديدا قط خشية العجب، وكان يفضل المرقعة. وكانت ثيابه كذلك غالبا.

---

(٣٩) الصلة بين التصوف والتشيع للدكتور الشيبى ص ٤٤٨.

هذه هى الطريقة الرفاعية فى أصولها التى لا تبتعد عن الإسلام.

وإذا كان بعض الأتباع قد حاولوا أن يسوهوا الصورة للطريقة الرفاعية فجعلوها شعوذة ودجالة ولعبا بالأفاعى والسيخ، فلا ننسَ أن الرفاعى نفسه يبرأ من هؤلاء جميعًا، فقد قال لمثل هؤلاء القوم من قبل: إياكم والدجالية.،. إياكم والشيطانية.،. إياكم والطرق التى تقود إلى كلا الوصفين.

ثانيا – عبد القادر الجيلانى صاحب الطبقة القادرية «الجيلانية».

إلى جانب الطريقة الرفاعية العراقية الأصل، ظهرت الطريقة القادرية العراقية الأصل أيضا، مواكبة ومعاصرة لها فى قرن واحد من الزمان – وانتقلت من فرات ودجلة العراق إلى أرض مصر، فى القرن السابع الهجرى قرن الطرق الصوفية بحق.

وفى البداية نتعرف على الجيلانى:

يقول عنه صاحب قلائد الجواهر هو «محيى الدين أبو محمد عبد القادر بن أبى صالح جنكى دوست موسى، بن أبى عبد الله يحيى الزاهد، بن محمد، بن داود بن موسى، بن عبد الله، بن موسى الجون عبد المحصن، بن الحسن، بن على، بن أبى طالب رضى الله عنه[٤٠].

ويتابع الشيخ التادفى فى كلامه فيقول: «قال سيدنا الشيخ عبد المطلب بن الشيخ عبد القادر الجيلانى، كان والدى يتكلم فى الأسبوع ثلاث مرات بالمدرسة، بكرة الجمعة، وعشية الثلاثاء، وبالرباط بكرة الأحد، وكان يحضره العلماء والفقهاء والمشايخ وغيرهم، ومدة كلامه على الناس أربعون سنة، أولها سنة ٥٢١ هـ. وآخرها سنة ٥٦١ هـ. ومدة تصدره للتدريس والفتوى ثلاث وثلاثون سنة، أولها سنة ثمان وعشرين، وآخرها سنة إحدى وستين[٤١].

لقد كان الشيخ عبد القادر الجيلانى صاحب رسالة كبيرة ودعوة سامية فقد «رأى – الجيلانى ما أصيب به المسلمون من تشتت وافتراق وتناحر، وما استولى عليهم من حب الدنيا والتقاتل على الملك والجاه والسلطان، وانصراف الناس إلى المادة والمناصب والولايات، والتفافهم حول الملوك والأمراء وتقديسهم لهم، عاش الشيخ متصلا قبل ذلك بشعوره وآلامه، بعيدًا عن كل ذلك بقلبه وجسمه وانصرف بكل همته وقوته وإخلاصه إلى الوعظ والإرشاد والدعوة والتربية وإصلاح نفوس المسلمين، وتزكيتها، ومحاربة النفاق والشغف بالدنيا والتكالب على حطامها ومناصبها إثارة للشعور الإيمانى، وتقوية عقيدة الآخرة، والتجافى عن دار الغرور»[٤٢].

ولقد اهتم الجيلانى بالإصلاح وتوجيه العباد «وكان أبو سعيد قد بنى مدرسة لطيفة (بباب الأزج) ففوضت إليه، وضاقت مدرسته بالناس ومن ازدحامهم على مجلسه، فجلس للناس عند السور أيامًا، ثم

---

(٤٠) قلائد الجواهر فى ماقب الشيخ عبد القادر للشيخ محمد التادفى الحنبلى ص ٣.

(٤١) قلائد الجواهر فى مناقب الشيخ عبد القادر للشيخ محمد التادفى الحنبلى ص ٣.

(٤٢) كتاب الامام عبد القادر الجيلانى لأبى الحسن الندوى ص ٢٩.

وسعت بما أضيف إليها من المنازل والأمكنة التى حولها، وبذل الأغنياء فى عمارتها أموالهم، وعمل الفقراء بها بأنفسهم، واكتملت المدرسة سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، وصارت منسوبة إليه»(٤٣).

وكان سيدى عبد القادر الجيلانى جريئا فى الحق «لما ولى المقتفى لأمر الله أمير المؤمنين القاضى ابن المزاحم الظالم قال على المنبر: وليت على المسلمين أظلم الظالمين، ما جوابك عند رب العالمين أرحم الراحمين، فارتعد الخليفة وبكى وعزل القاضى المذكور لوقته»(٤٤).

ومما يدل على شجاعته وجرأته فى الحق، قوله فى كتابه الفتح الربانى: «إنى أقول لكم الحق، ولا أخاف منكم ولا أرجوكم، أنتم أهل الأرض عندى كالبق والذر، لأنى أرى الضرر والنفع من الله عز وجل، – لا منكم –، المماليك والملوك عندى سواء»(٤٥).

وقال مخاطبًا تلك الفئة من العلماء الذين يداهنون السلاطين وينافقونهم: «أين أنتم وهم ؟.» يقصد بهم العلماء الذين لا يخشون غير الله تعالى» –، يا خونة فى العلم والعمل، يا أعداء الله ورسوله، يا قاطعى عباد الله عز وجل، أنتم فى ظلم ظاهر، ونفاق، إلى متى ؟ – يا علماء، يا زهاد، كم تنافقون الملوك والسلاطين حتى تأخذوا منهم حطام الدنيا وشهواتها لكم، أنتم وأكثر الملوك فى هذا الزمن ظلمة وخونة فى مال الله عز وجل، فى عباده، اللهم اكسر شوكة المنافقين، وخذ بهم أو تب عليهم واقمع الظلمة، وطهر الأرض منهم أو أصلحهم(٤٦).

وكان يدعو مريديه إلى العمل، ويؤكد أن الطريق ليس كلامًا، أو مهادنةً للحياة فالله يحب عباده العاملين «اعبدو الله عز وجل، واستعينوا على عبادته بكسب الحلال، إن الله عز وجل يحب عبدًا مؤمنًا مطيعًا آكلًا من حلاله ويحب من يأكل ويعمل، ويبغض من يأكل ولا يعمل، يحب من يأكل بكسبه، ويبغض من يأكل بنفاقه وتوكله على الخلق»(٤٧).

اتباعه السنة والشرع:

وكان يدعو أتباع طريقته القادرية إلى اتباع السنة والشرع، يقول لهم فى قوة: «اتباع الشرع موجب لسعادة الدارين، فاحذر الخروج من دائرته، وإياك أن تفارق الإجماع الشرعى، والاجتماع على أهل الله... وأقرب الطرق إلى الله تعالى، لزوم قانون العبودية والاستمساك بأصول الشريعة وفروعها والاستقامة على الجادة(٤٨).

وكان رضى الله عنه يقول: تراءى لى نور عظيم ملأ الأفق، ثم تدلى منه صورة تناديني، يا عبد القادر.، أنا ربك، وقد حللت لك المحرمات، فقلت: اخسأ يالعين، فإذا ذلك النور ظلام، وتلك

---

(٤٣) كتاب الإمام عبد القادر الجيلانى لأبى الحسن الندوى ص ٩

(٤٤) كتاب قلائد الجواهر ص ٧.

(٤٥) كتاب الفتح الربانى لسيدى عبد القادر الجيلانى المجلس ٥١.

(٤٦، ٤٧) كتاب الفتح الربانى للإمام الجيلانى. المجلس الواحد والخمسون والمجلس السادس والأربعون على التوالى

(٤٨) كتاب «بداية الطريق إلى مناهج التحقيق» ص ٤٨ للسيد محمد أبو الفيض المنوفى.

الصورة دخان، ثم خاطبنى يا عبد القادر نجوت منى بعلمك بأمر ربك، وفقهك فى أحوال منازلاتك، ولقد أضللت بمثل هذه الواقعة سبعين من أهل الطريق، فقلت: لله الفضل. فقيل له كيف علمت أنه سيطان؟ قال: لقوله قد حللت لك المحرمات(٤٩).

لقد كان الجيلانى بحق متسننًا عابدًا واعظًا قامعًا لنفسه ناصحًا لغيره صادقًا فى حاله مبغضًا للبدعة وأصحابها(٥٠) وهذا مما يجعلنا ندافع عن الإمام عبد القادر الجيلانى فيما نسب إليه من نهم يدحضها سلوكه وأقواله وأفعاله.

يقول صاحب ترياق المحبين: «أخبرنى الشيخ الزاهد العارف محمد بن عدنان المشهدى، عن الشيخ يوسف أبى زكريا العسقلانى الحنبلى، أنه سئل عن الشيخ محمد على بن إدريس اليعقوبى، أحد أركان طريق القوم، عن الذى يسمع فى هذه الأزمنة وينقل عن لسان الشيخ عبد القادر الجيلانى قدس الله سره، من الشطوحات والكلمات المشوبة بالعجب، والدعوى، والتجاوز، وغير ذلك، من الألفاظ التى يردها الشرع، مثل قولهم: إنه يقول: قال لى ربى: «يا غوث الأعظم أكل الفقير أكلى»..، وقوله للخضر: إن كنت قلت لموسى: إنك لن تستطيع معى صبرا، فأنت لا تستطيع معى صبرا، وقوله: «أنا أحفظ مريدى فى غيبته وحضوره. ومريدى لا يدخل النار، ولو كان على سبيل مكروه إن كان مريدى رديا فأنا جيد»، وقوله: «قدمى على رقبة كل ولى»، وقوله: «للميت قم بإذنى» وأمثال ذلك، وأمثاله منه، وهل هذا صحيح وله وجه عند العارفين؟ فقام منزعجًا وجلس ثم قال: جلست مع الشيخ عبد القادر وأكلت معه، ونمت معه، وسافرت معه، وحضرت معه، فوالله ما رأيته تحرك بحركة، ولا سمعته تكلم بكلمة تخالف الشرع الشريف أبدا، الشيخ عبد القادر رجل عارف عابد زاهد خائف خاشع ذو مجاهدة وأوراد وأذكار، كثير البكاء، مخلص واعظ، عالم عامل، ورع، عامل بعلمه.، له وجود حال وذوق وكشوفات وكرامات وأحوال صالحة، وحرمة فى قلوب أهل الدين»(٥١).

ونحن نقول ما قلناه سابقا: إن سلوك الشيخ عبد القادر الجيلانى، وقوله يدلان على أن صاحب الطريقة القادرية، كان العابد الزاهد العامل بكتاب الله وسنة رسوله، إن الرجل الذى دعا إلى اتباع الشرع وسنة الرسول الكريم فى وصاياه المتعددة، يجعلنا نشك فيما نسب إليه من افتراءات وأقوال كاذبة..، فلقد كان للشيخ عبد القادر الجيلانى جهوده الطيبة فى إسلام كثير من يهود ونصارى العراق، وعلى يده الكريمة تاب الكثيرون من العاصين والمذنبين بفضل نصحه وإرشاده ودعواته الصادقة.

طريقة سيدى عبد القادر الجيلانى ومبناها:

يقول الشيخ على بن الهيتى رضى الله عنه: عن الشيخ عبد القادر الجيلانى «كان قدمه على

(٤٩) طبقات الشعرانى ص ١٠٩.

(٥٠) كتاب أبو الحسن الشاذلى للأستاذ سالم عمار ص ١٣٠.

(٥١) ترياق المحبين ص ٥٥.

التفويض والموافقة مع التبرى من الحول والقوة، وكانت طريقته تجريد التوحيد، وتوحيد التفريد مع الحضور فى موقف العبودية، لا بشىء ولا لشىء»(٥٢).

وكان الشيخ عدى بن مسافر رضى الله عنه يقول: كان الشيخ عبد القادر الجيلانى - رضى الله عنه - طريقته: الذبول تحت مجارى الأقدار بموافقة القلب والروح واتحاد الباطن والظاهر، وانسلاخه من صفات النفس مع الغيبة عن رؤية النفع والضر. والقرب والبعد(٥٣).

ويقول صاحب مخطوطة السلسبيل المعين فى الطرائق الأربعين(٥٤) ومبنى الطريقة القادرية على الذكر الجهرى، فى حلقة الاجتماع، والرياضة الشاقة فى العكفة بالتدريج فى تقليل الأكل، والفرار من الخلق وسلوكهم مصحوب فى البداية باستحضار جلال الله وعظمته، بذلك تنقمع النفس وتتهذب، لأن التربية بالجلال أسرع للتخلص من الرعونات، وصفة الجلوس للذكر، أن يجلس متربعا ويمسك بإبهام الرجل اليمين، مع ما يليه من العرق المسمى (بالكيماس) وهو العرق العظيم الذى هو فى جوف قفل الركبة، ويضع يديه على ركبتيه فاتحا أصابعها بنقش لفظ الام، ويذكر باللام ويلازمها مدة حتى ينشرح صدره، ويكاشف بالأنوار الإلهية، ثم يشتغل بذكر أوراد برادى (أى ذكر الغناء والبناء المنسوب إلى الشيخ عبد القادر). وهو أن يجلس كما مر ويدير وجهه جانب الكتف الأيمن قائلا هاء ويدير وجهه إلى الأيسر قائلا: هو، ويحتضن رأسه ضاربا فى نفسه بقوله: حى. وتعود إلى العمل بلا توان.

كيفية الانتساب للطريقة القادرية(٥٥):

ويقول الجيلانى: «فالذى يجب على المبتدئ فى هذه الطريقة، الاعتقاد الصحيح الذى هو الأساس، فيكون على عقيدة السلف الصالح أهل السنة القديمة، سنة الأنبياء والمرسلين، والصحابة والتابعين، والأولياء، والصديقين، فعليه بالتمسك بالكتاب والسنة والعمل بهما أمرًا ونهيا، أصلًا وفرعًا، فيجعلهما جناحيه يطير بهما فى الطريق الواصل إلى الله عز وجل، ثم الصدق، ثم الاجتهاد، حتى يجد الهداية والإرشاد إليه إضافة إلى هذين الأصلين الشريفين، يضع الجيلانى قواعد يعتبرها مكملة، ولو أنها فى حقيقتها مستمدة من الشرع، وهى كما يرى الجيلانى «سلامة الصدور، وسخاء النفس، وبشاشة الوجه؛ وبذل الندى، وكف الأذى، والفقر، وحفظ حرمة المشايخ والعشرة مع الإخوان، والنصيحة للأصاغر والأكابر وترك الخصومة، والإسفاف، وملازمة الإيثار وملازمة الأخيار، وترك صحبة ما ليس من طبقتهم، والمعاونة فى أمر الدين والدنيا» هذا من حيث الاعتقاد والإيمان والعمل.

أما عن كيفية الانتساب للطريقة القادرية فإن كل سالك للطريقة القادرية عليه أن يمر بمرحلتين.

(٥٢) طبقات الشعرانى جـ١ ص ١١٠

(٥٣) طبقات الشعرانى جـلاظ ص ١١٠.

(٥٤) مخطوط «السلسبيل المعين فى الطرائق الأربعين» للادريسى٥ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٦٧ تصوف ورقة ١٥.

(٥٥) اعتمدنا فى عرض كيفية الانتساب إلى الطريقة القادرية على «عبد القادر الجيلانى ومذهبه الصوفى» رسالة ماجستير لجعفر صادق سهيل من ص ١٢٧ ومابعدها.

١ - أولاها مرحلة الابتداء: تبدأ وتنتهى بجلسة واحدة، قد تستغرق أقل من نصف ساعة على الأكثر، إذا كان العمل فيها جديًا، ولهذه المرحلة مراتب، نذكرها كالآتى:

أولًا - اللقاء الأول: ويكون بين المريد وبين الشيخ، ويتضمن العهد والاستغفار، والتوبة، والطاعة، والذكر.

والعهد من الأمور المهمة فى الطريقة القادرية.، والعهد بالنسبة للسالك لا يتم إلا على يد شيخ معترف له بالمشيخة، ومجاز بالتربية الصوفية، واللقاء بأخذ الخطوات التالية:

١ - قبل البدء يصلى المريد ركعتين نفلًا لله تعالى، وقراءة الفاتحة للنبى ﷺ ولإخوانه المرسلين والنبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

٢ - حضور المريد بعد الصلاة والفاتحة بين يدى الشيخ، وجلوسه تجاهه لاصقًا ركبتيه اليمنى بيد الشيخ اليمنى، وفى هذه الحالة يطلب الشيخ من المريد الاستغفار، ويكون بالصيغة التالية «قل استغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه، وأشهد الله وملائكته ورسله وأنبياءه بأنى تائب لله، منيب إليه، وأن الطاعة تجمعنا، وأن المعصية تفرقنا، وأن العهد عهد رسوله، وأن اليد يد سيخنا وأستاذنا الشيخ محيى الدين عبدالقادر الجيلانى قدس سره، وعلى ذلك أحل الحلال - أى أعمل به - وأحرم الحرام - أى أتجنبه - وألازم الذكر والطاعة بقدر الاستطاعة، ورضيت بحضرة شيخنا المشار إليه سيخًا لى وطريقته لى، والله على ما أقول وكيل».
والذكر الذى ورد فى صيغة العهد يكون بالتلقين.

والمقصود بالذكر: هو التوحيد «لا إله إلا الله»، ويقوم الشيخ بتلقينه للمريد ثلاث مرات، وهو مغمض العينين.

وكذلك العهد يكون بالتلقين، أى أن الشيخ يقول: عبارات العهد، والمريد يرددها بعده مباشرة، وبعد الانتهاء من ترديد عبارات العهد، يقول الشيخ «انفحنا بنفحة منك»، ثم يقرأ آية المبايعة: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم. فمن نكث فإنما ينكث على نفسه. ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرًا عظيمًا﴾*.

وبعد هذا يسمع الشيخ كلمة التوحيد لمريده مرددًا إياها ثلاث مرات، ويطلب منه أن يقولها بعده على الصورة التالية: يأخذ الشيخ كلمة «لا» أولًا من طرفه الأيمن مادًا بها جبهته فى «إله»، ثم يقرأ «إلا الله» من طرفه الأيسر، وهو عهد الروح، هذه الحالة تتم والشيخ مغمض العينين، فإذا قالها المريد بعد السيخ قولًا صحيحًا، وطبق الأصل يكون قد انتهى من أخذ العهد تمامًا.

ثانيًا - وهى جملة أسياء يومئ بها الشيخ لمريده مطالبًا إياه اتباعها، والعمل بمضمونها، وهى تحمل الأذى، وترك الأذى، والصفح عن عثرات الإخوان وبذل الكف وسخاء النفس، وترك الحقد، والحسد

---

* سورة الفتح آية ١٠.

والكذب والنميمة والفحش في الكلام والاستقامة على الوضوء، وعلى الاستغفار، والصلاة على النبي ﷺ من غير تعيين عدد.

وبعد أن يقبل المريد هذه الوصايا من شيخه ينتقل الشيخ إلى مرحلة المبايعة والقبول.

ثالثًا – المبايعة والقبول : يقول الشيخ للمريد القابل: (وأنا قبلتك ولدًا وبايعتك على هذا المنوال) وكذلك بالنسبة للمريد.

بهذه المراسيم تنتهى المبايعة بعد القبول، فتنفصل الأيدى المتشابكة وتبتعد الركب المتلاصقة، ثم تأتى مرحلة الدعاء مختومة بشرب الكأس.

رابعًا – الدعاء الذى يصدر من الشيخ ويكون بحضور المريد وأمامه، والدعاء يكون على صورتين:

– الصورة الأولى يكون فيها عامًا تامًّا شاملاً ويكون بالصيغة التالية (اللهم اجعلنا مهتدين غير ضالين ولا مضلين، سلما لأوليائك، وعدوًّا لأعدائك، محبّين بحبك من أحبك، ونعادى بعداوتك من خالفك، اللهم هذا الدعاء لك وعليك الإجابة، وهذا الجهد، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم) .

– الصورة الثانية: يكون الدعاء فيها خاصا بالمريد، وهذه صيغته:

(اللهم كن برًّا رحيمًا، جوادًا كريمًا. اللهم دله بك إليك، اللهم خذه منه، اللهم افتح عليه فتوح الأنبياء والأولياء بجودك ورحمتك وكرمك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وعلى آلهم وصحبهم أجمعين آمين).

خامسًا – الكأس : وهو إناء يتناوله الشيخ محتويًا على ماء قراح وقد يكون ممزوجًا بسكر، وقد يقرأ الشيخ على الكأس قوله تعالى: **﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾*** **﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾**** ثم يتلو ذلك قراءة الفاتحة والإخلاص ثلاث مرات، ويناول الكأس للمريد ليشربه.

على هذا النمط المتدرج تنتهى المرحلة الأولى، فيصبح المريد فى عداد المريدين، ويلزم شيخه الذى أخذ عنه العهد، فيكون طالبًا مرتبطًا بالشيخ.

٢ – ثانيتهما :

وهى التى تكون فيها الرحلة إلى الله عز وجل حيث يصاحب الشيخ المريد مجتازًا جميع المسالك.

وهذه المرحلة تختلف تمام الاختلاف عن المرحلة الأولى بطبيعتها، فإذا كانت الأولى تبدأ وتنتهى بجلسة واحدة، فالثانية قد يمتد بها الزمن سنين طوالاً؛ لأنها مرحلة دراسية يتلقى فيها المريد، علم

* سورة يس آية ٥٨

** سورة الإسراء آية ٨٢.

الحقيقة عن شيخه، ويتأدب به، ممتثلاً لأوامره، ومنهيًا لنواهيه، آخذًا نفسه بالمجاهدة، وأشد الرياضات، تحت إشراف الشيخ، وهكذا حتى يفتح الله عز وجل عليه فتوح الأنبياء والأولياء.

ويرى الشيخ الجيلانى فى هذه المرحلة أنه: (على المريد عدم الانقطاع عن شيخه الموجه له) (إنما يلزمه بدوام الاتصال حتى يستغنى عنه بالوصول إلى ربه عز وجل فيتولاه بعد ذلك الله تبارك وتعالى بتربيته وتهذيبه، فيستغنى بربه عن غيره).

وعند تحقق الانفصال بين الشيخ والمريد، يمنح المريد إجازة المشيخة، وتكون خطية تشهد له بلوغ مراده، فيكون شيخًا فى عداد الشيوخ، ومن شروط الإجازة: أن تكون موقعة من قبل المجيز، مبينًا فيها تلقيه كلمة التوحيد للمريد، مما تلقاها هو، بالتلقين بالسند عن شيخه، وشيخه عن شيخه، مستمرا بذكر سلسلة الشيوخ، حتى يصل إلى الشيخ منشئ الطريقة، ومنه حتى يصل إلى الحسن البصرى، عن الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه، عن النبى ﷺ، عن جبريل عليه السلام، عن الله سبحانه وتعالى.

ويختم الشيخ الإجازة بدعاء: هو «اللهم بجاه هذه الشجرة المباركة متعنا بالنظر إلى وجهك الكريم فى الآخرة بعد حسن الختام فى هذه الدار بسلام».

ومن الملاحظ أن الانقطاع بين الشيخ وبين المريد أمر لابد منه، فقد أكد عليه السيد الشيخ الجيلانى، وهو عنده إما انقطاع نهائى، وإما انقطاع.. يتخلله اتصال عن طريق الصدفة، كالملاقاة فى الطريق، أو فى جامع قدرًا، ومن غير قصد، وذلك حفظًا للحال، واستغناء بالرب يقول الجيلانى: (فإذا بلغ المريد حالة شيخه أفرد عن الشيخ وقطع عنه فيتولاه الحق عز وجل).

ومن هنا فالملاحظ أن الصفة الغالبة على الطريقة القادرية، هى المرونة، فالجيلانى يرى: باختلاف الطريق بين الشيخ وبين المريد الذى وصل إلى مرتبة الشيخ بعد افتراقهما، وليس فى رأيه الإصرار على أن يبقى المريد تابعًا طبقة شيخه بل نجد عنده التأكيد على استقلال الذات، فشخصية المريد يجب أن تبرز فتأخذ طابعًا خاصًا بها فدور الشيخ المربى قد انتهى عند حد بدأ معه المريد مستقلاً، فلابد له فى هذه الحالة أن يظهر شخصيته ويثبت استقلاله.

خـــاتمـــة

هذه هى الطريقة القادرية ومبناها، ولقد رأينا صاحبها سيدى عبد القادر الجيلانى من خلال هذه النظرة السريعة، رجلًا أسلم وجهه لله. وربى رجالاً دعاهم إلى طريق الله والسير على هدى القرآن والسنة.

لكن كعادة الأستاذ الفاضل الدكتور الشيبى - رد كل فكر إسلامى إلى الشيعة، فإنه يرى أن هناك تشيعًا فى طريقة الجيلانى فيقول: «فقد جعل عبد القادر الجيلانى المشيخة وراثية كالإمامة، فورث سأنه وطريقته أبناءه عبد الوهاب، وعبد العزيز، وعبد الجبار[٥٦]، لكنا نرى أن رأى الأستاذ الدكتور الشيبى فيه مغالاة شديدة، فظاهر أقوال الجيلانى وأفعاله تجعلنا نحكم عليه بأنه كان صوفيًا سنيًا متشرعًا متحققًا، منهجه الصوفى هو المنهاج الخلقى العملى المترسم كتاب الله وسنة رسوله الكريم.

(٥٦) الصلة بين التصوف والتشيع للأستاذ الدكتور الشيبى ص ٨٠ نقلاً عن روضات الجنات ص ٤٤٢

دور صوفية المغرب والعراق
فى حركة الطرق الصوفية فى مصر

١ - أبو مدين التلمسانى:

ذكرنا سابقا ملحوظة هامة، وهى أنه إذا كان للرفاعى والجيلانى دورهما الهام فى نشر حركة الطرق الصوفية فى كل مكان، فقد كانت هناك أيضا شخصيات صوفية هامة لعبت دورًا بارزًا فى (مسح) الطرق الصوفية فى مصر وحركتها.

ولقد كانت هذه الشخصيات وراء دفع ونمو حركة الطرق الصوفية فى مصر فى القرن السابع الهجرى بطريق مباشر وغير مباشر.. وأعنى بهذه الشخصيات أبا مدين التلمسانى، وعبد السلام بن مشيش، وأبا الفتح الواسطى، والدليل على وجود هذا الدور، يكفى أن نعلم مثلا أن أبا مدين التلمسانى (ت ٥٩٤ هـ) هو أستاذ عبد الرازق الجزولى، والجزولى هو شيخ ومعلم عبد الرحيم القنائى، وأبى الحجاج الأقصرى، كما أن أبا مدين التلمسانى أستاذ وشيخ عبد السلام بن مشيش، أستاذ ومربى أبو الحسن الشاذلى شيخ الطريقة الشاذلية.

وقد التقى أبو مدين التلمسانى بسيدى عبد القادر الجيلانى، أثناء الحج، وأثر كل منهما فى الآخر، ثم أم سيدى أحمد البدوى حفيدة أبى مدين. يقول عبد الصمد زين (كان اسم والدته فاطمة بنت محمد بن أحمد بن عبدالله بن مدين بن شعيب المدينة[١].

وبالطبع فإن ذلك يجرنا إلى إلقاء الضوء على هذه الشخصية الصوفية الكبيرة التى كان لها دورها فى حركة الطرق الصوفية.. فمن هو أبو مدين شعيب التلمسانى، أو من هذه الشخصيات الثلاث التى كان لها دورها فى حركة الطرق الصوفية.

أبو مدين التلمسانى: (أحد كبار الصوفية، ولد فى قطينانة إحدى القرى قرب أشبيلية، توفى فى عام ٥٩٤ هـ، ودفن بالعباد بقرب تلمسان، أحس أبو مدين بميل نحو العلم، فأقبل عليه بحماس زائد، فنزح عن وطنه إلى فاس بالمغرب، ليأخذ عن علماء من المغاربة جذبتهم إليه شهرتهم، وساقه فى هذا الطريق الشيخ أبو يعزى، الذى بلغ به مرتبة الصوفى الكامل بالصيام والصلاة والتقشف المتواصل الشديد[٢]، والشيخ أبو يعزى أستاذ أبى مدين التلمسانى من كبار الصوفية (وكان الناس يفدون إليه

---

(١) الجواهر الصمدانية: لعبد الصمد زين الدين ص ٣٣.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية: مادة أبو مدين التلمسانى ص ٣٩٩ إلى ص ٤٠١

من جميع أنحاء المغرب، والأندلس، يأخذون عنه ويستمعون إليه، ويلتمسون منه البركات، وفى مقدمه من وفد عليه القطب الغوث أبو مدين التلمسانى فعاش معه سنين، يقتبس من طريقته بالإقبال كل الإقبال على الصوم، والزهد، والصلاة، والتقشف، والعبادة، حتى إذا قبس قبسة من روح أستاذه (أبو يعزى) رحل إلى المشرق ليقتبس قبسات أخريات من شيوخ التصوف هناك، وعن سيدى عبد القادر الجيلانى قطب العراق بوجه خاص)(٣).

وهكذا بعد أن قضى أبو مدين التلمسانى عدة سنوات بمدينة فاس، تركها إلى الشرق، وانتقل إلى مكة، حيث قابل هناك الشيخ عبد القادر الجيلانى (فارتبط به بصلات الود وأتم بإرشاده علومه الصوفية)(٤).

وقد وصف عبد الرازق بن عبد القادر الجيلانى هذا اللقاء فقال: (لما حج والدى رحمه الله تعالى فى السنة التى كنت معه فيها، اجتمع به فى عرفات الشيخان: ابن مرزوق وأبو مدين، ولبسا منه خرقة بركة، وسمعا عليه جزءًا من مروياته وجلسا، بين يديه(٥)، وبعد عودة التلمسانى من مكة اتجه إلى تعليم الطريقة الصوفية ببلاد المغرب.

ومن أبرز تلاميذه الشيخ عبد الرازق الجزولى، أستاذ الشيخ عبد الرحيم القناوى، وأيضا عبد السلام بن مشيش ومحيى الدين بن عربى.

ومن أهم تعاليمه لأصحابه قوله لهم: (أعلنوا بالطاعة حتى تكون كلمة الله هى العليا، كما يعلن هؤلاء بالمعاصى، ولا يستحون من الله، وكان يقول فى قوله تعالى: ﴿فإذا فرغت فانصب﴾* الآية، من الأكوان فانصب قلبك لمشاهدة الرحمن، وإلى ربك فارغب فى الدوام، وإذا دخلت فى عبادة فلا تحدث نفسك بالخروج منها، وقل «يا ليتها كانت القاضية».

وقال محيى الدين بن عربى: «وكان شيخنا أبو مدين قد ترك الحرف، وجلس مع الله تعالى على ما يفتح عليه، وكان على طريقة عجيبة مع الله فى ذلك الجلوس، فإنه ما كان يرد شيئا يؤتى به إليه، كالشيخ عبد القادر الجيلانى، لكن عبد القادر كان أنهض فى الظاهر لما يعطيه المشرف(٦)، وقد سئل أبو مدين: «لم لا تحترف؟ أو لم لا تقول بالحرفة؟ قال: أقول بها، فقيل له لم لا تحترف؟ فقال: الضيف عندكم إذا نزل القوم، كم توقيت زمن وجوب ضيافته؟ قالوا: ثلاثة أيام.. وبعدها، قالوا: يحترف، قال: الله أكبر. أنصفونا.. نحن أضياف ربنا، نزلنا عليه فى حضرته على وجه الإقامة عنده إلى الأبد، فتعينت الضيافة، فإنه تعالى ما دل على خلق كريم لعبده إلا كان هو أولى بالاتصاف به، وأيام

---

(٣) كتاب أعلام الإسكندرية للدكتور الشيال ص ١٦٤.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية: مادة أبو مدين التلمسانى ص ٤٠١.

(٥) قلائد الجواهر للتادفى ص ٦٠.

* سورة الشرح آية (٧).

(٦) مخطوط الكواكب الدرية للمناوى ورقة ٢٧٢.

ربنا كما قال كل يوم كألف سنة مما تعدون، فضيافته بحسب أيامه، فإذا أقمنا عنده ثلاثة آلاف سنة وانقضت ولا نحترف توجه اعتراضكم علينا، ونحن نموت وتنقضى الدنيا ويبقى لنا فضلة (أى بقية) عنده تعالى من ضيافتنا فاستحسنه المعترض »(٧).

يقول عنه صاحب قلائد الجواهر: له (أبو مدين) القدم الراسخ فى التمكين والباع الطويل فى التصريف، واليد البيضاء فى أحكام الولاية، والقوة الشديدة فى أحوال النهاية، وهو أحد أوتاد المغرب، وأحد أركان هذا الشأن.،. وهو أحد من جمع الله له بين علم الشريعة والحقيقة، وأفتى ببلاد المغرب على مذهب الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه، وتخرج بصحبة غير واحد من مشايخ الغرب مثل الشيخ عبد الرحمن بن حجون المغربى، والشيخ محمد بن أحمد القرشى، والشيخ عبد الله القشتانى الفاسى، والسيخ صالح الزكالى(٨).

وقد أسس أبو مدين طريقته المدنية، وهى لازالت قائمة حتى الآن «ومبنى هذه الطريقة على الجهر بذكر الجلالة (كالطريقة القادرية)، وكان إمام هذه الطريقة سيدنا أبو مدين، يعلن بالصدقة ويذكر الله فى الملأ، وكان يقول: «قل الله ثم ذرهم أفغير الله تدعون»، ومن شأن (مريدى) هذه (الطريقة)، عدم التوقف فى الملبس والمأكل على خشن أو غيره، بل يقبلون ما يأتيهم من غير سؤال ولا استشراف نفس، ويقدمون أكل اللذيذ على غيره إلا أن يكون مضرا بالمزاج، وهذا لغير المبتدئ، أما السالك فينبغى له الأخذ بالأشد على نفسه، ومن آدابهم صلاة ركعتين نفلا بعد الأكل، والاشتغال بقراءة سورة الملك، ويدخلون الخلوة بالذكر الوارد (لا إله إلا الله لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير) ومن شأنهم كغيرهم اتخاذ سبحة للذكر(٩).

ويمكن أن نلخص تعاليم أبى مدين كلها فى هذا البيت الذى كان يردده دائما كما يقول: يحيى بن خلدون:

الله قل: وذر الوجود وماحوى — إن كنت مرتادا بصدق مراد

وبهذا المبدأ وصل أبو مدين بأتباعه إلى أقصى مراتب الصوفية فتجردت نفسه التجرد كله، واتحد بالله. الذى كان يدعوه إلى آخر نسمة من حياته لقوله: (الله ، الحق). اتحادا تاما(١٠).

هذا هو الرجل الذى أخذ منه ابن مشيش أستاذ الشاذلى، وأخذ منه أيضا الجزولى أستاذ القنائى والأقصرى، ومن ذلك نستطيع أن نتحسس أصابع وبصمات التلمسانى، ودوره فى حركة الطرق الصوفية بمصر.

وقد مات سنة ٥٩٤ هـ، وكان يحكم المغرب فى أخريات حياة أبى مدين الخليفة أبو يوسف -

(٧) المرجع السابق ظهر الورقة ٢٠٤.

(٨) قلائد الجواهر للتادفى ص ١٣٥.

(٩) مخطوط سلسبيل الطرائق للسنوسى ورقة ١٦.

(١٠) دائرة المعارف الإسلامية: مادة أبو مدين التلمسانى ص ٤٠١ والبيت من الكامل.

يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الذى اضطهد العلماء والفلاسفة ورجال الفكر، وأصابتهم فى عهده محن سديدة، فاتهم ابن رشد فى عهده بالزندقة، وحوكم فى سنة ٥٩١ هـ. واضطهد الصوفى الكبير أبو مدين وأرسل الخليفة يستدعيه من بجاية لمحاكمته، فأتى به مكبلا بالحديد، حتى إذا وصل تلمسان مرض ومات سنة ٥٩٤ هـ[١١].

٢ - عبد السلام بن مشيش:

أما الشخصية الثانية التى نستشعر دورها فى حركة الطرق الصوفية بمصر فى القرن السابع الهجرى، فهى سخصية الصوفى الكبير الشيخ عبد السلام بن مشيش، أستاذ الشاذلى الذى كان يفخر أبو الحسن بتلمذته عليه والذى قال فيه ابن عياد فى المفاخر العلية نقلا عن محيى الدين عبد القادر بن الحسن الشاذلى صاحب كتاب الكواكب الزاهرة (مقام ابن مشيش بالمغرب كالشافعى بمصر)[١٢].

يقول الشاذلى رضى الله عنه، عن قصة اجتماعه، وتعرفه بابن مشيش: إنه لما دخل العراق اجتمع بالشيخ الصالح أبى الفتح الواسطى، فما رأينا بالعراق مثله، وكان بالعراق شيوخ كثيرة. وكنت أبحث عن القطب، فقال لى الشيخ أبو الفتح أتطلب القطب بالعراق وهو فى بلادك المغرب، ارجع فإنك تجد القطب هناك، فلما رجع اجتمع بأستاذه قطب الشيخ عبد السلام بن مشيش.

وفى صحبة أستاذه، أقبل الشاذلى على العبادة (فطهر نفسه من حب الدنيا ومن الإقبال على الخلق، وأقبل على حب الله، وفنى فى حبه، فلما صفت نفسه وأصبح أهلًا للولاية ووراثة القطبانية، أمره أستاذه أن يرحل عن فاس إلى تونس، وتنبأ له بما سيحدث له فى مستقبل أيامه)[١٣].

ومن وصايا بن مشيش للشاذلى: (الزم الطهارة من الشرك، كلما أحدثت تطهرت، ومن دنس حب الدنيا، كلما ملت إلى شهوة أصلحت بالتوبة ما أفسدت بالهوى وأكدت، وعليك بمحبة الله على التوقير والنزاهة، وأدمن على الشراب والمحبة وكأسها مع السكر والصحو، كلما أفقت أو تيقظت شربت، حتى يكون سكرك به، وحتى تغيب بجماله عن المحبة وعن الشرب والشراب والكأس، بما يبدو لك من نور جماله وقدس كماله وجلاله)[١٤].

وقال ابن مشيش أيضا: (أفضل الأعمال: أربعة بعد أربعة. المحبة لله. والرضا بقضاء الله، والزهد فى الدنيا، والتوكل على الله، هذه أربعة وأما الأربعة الأخرى فالقيام بفرائض الله، والاجتناب لمحارم الله، والصبر على ما لا يعنى، والورع من كل شىء يلهى)[١٥].

---

(١١) أعلام الإسكندرية للمرحوم الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال ص ١٠٤.

(١٢) المفاخر العلية لابن عياد ص ١٣.

(١٣) أعلام الإسكندرية للدكتور الشيال ص ١٦٩.

(١٤) أبو الحسن الشاذلى. لعلى سالم عمار جـ ١ ص ٨١، ٨٢ على التوالى.

(١٥) المصدر السابق.

هذه إشارة سريعة لابن مشيش أستاذ الشاذلى صاحب الطريقة الشاذلية الكبيرة بمصر، وقد قلنا إن ابن مشيش لبس الخرقة من أبى مدين التلمسانى، ومن ناحية أخرى نرى بصمات الإمام الرفاعى فى تسلك ابن مشيش مربى الشاذلى فقد تسلك ابن مشيش (على يد السيد الإمام برى الحسينى أحد أصحاب سيدى أحمد الرفاعى رضى الله عنهم أجمعين) ثم لا ننسى، أن أبا الفتح الواسطى تلميذ الرفاعى الكبير، هو الذى نصح الشاذلى بالذهاب إلى القطب الكبير عبد السلام بن مشيش.

٣ - أبو الفتح الواسطى:

أثر الواسطى فى ظهور وانتشار الطرق الصوفية بمصر تأثيرًا كبيرًا للغاية. فقبل أن يفد الشاذلى إلى مصر، أو البدوى، قدم هو إلى الإسكندرية وبشر بالطريقة الرفاعية ومهد لها الطريق فى مصر، وأخذ عنه خلائق لا يحصون: منهم الشيخ عبد السلام القليبى، والشيخ عبدالله البلتاجى، والشيخ بهرام الدميرى، والشيخ جامع الفضلين الدنوشرى، والشيخ عبد الوهاب، والشيخ عبد العزيز الدرينى والشيخ على المليجى[١٦].

وقد توفى الواسطى بالإسكندرية حوالى ٦٣٢ هـ وحسبنا «أن نعلم أنه لما وصل خبر وفاته إلى خلفاء الرفاعى بالعراق (مركز الدعوة والطريقة الرفاعية) وقع اختيارهم على السيد أحمد البدوى ليخلفه فى زعامة الإخوان، وأتباع الرفاعى بمصر، فوصل السيد البدوى مبعوثا من المدرسة الرفاعية إلى الإسكندرية سنة ٦٣٥ هـ وفى هذا تقدير كبير لمركز الواسطى ومكانته»[١٧].

وجدير بالذكر أن السيدة فاطمة أم سيدى إبراهيم الدسوقى ابنة أبى الفتح الواسطى الذى لعب دورا كبيرا فى التخطيط لإقامة الطرق الصوفية بمصر.

ويبدو لنا أن أبا الفتح الواسطى قد تصور إن لم يكن قد خطط لأن يكون حفيده سيدى إبراهيم الدسوقى شيخًا كبيرًا كشيخه الأكبر أحمد الرفاعى.

من ذلك كله، ومن خلال عرضنا السريع لهذه الشخصيات الصوفية الكبيرة نستطيع أن نقول: إن البصمات المغربية والعراقية واضحة فى نشأة الطرق الصوفية فى مصر، ومن هنا أيضا فأننا نلاحظ أن أصحاب الطرق الصوفية فى مصر جلهم، إن لم يكن كلهم من أصل مغربى أو عراقى فلم يكن هناك طرق صوفية محلية خالصة، فحتى سيدى إبراهيم الدسوقى الذى ولد وعاش فى دسوق مصر حفيد أبى الفتح الواسطى تلميذ الرفاعى العراقى.

ومن العجيب أن والد الرفاعى قبل أن يطأ العراق مهاجرا، عاش وعاشت أجداده من قبل فى المغرب.

---

(١٦) كشف النقاب للطبرى ص ١٤ بتصرف. النص هكذا (ابن مشيش تسلك على يد الإمام الحسينى صاحب سلمية أحمد الأعيان من أصحاب إمام الطوائف السيد أحمد الكبير الرفاعى رضى الله عنهم أجمعين). طبقات الشعرانى جـ ١ ص ١٧٦.

(١٧) أبو الحسن الشاذلى لعلى سالم عمار جـ ١ ص ٧٧.

والذى لا شك فيه عندنا أن أبا الفتح الواسطى، وأبا مدين التلمسانى وعبد السلام بن مشيش، كانوا لهم الأثر فى بذر حركة الطرق الصوفية ونموها وازدهارها فى مصر، وانطلاقها فيها فى القرن السابع الهجرى، وهذا ما يؤدى بنا إلى ضرورة إلقاء صورة سريعة لوجه مصر فى هذا القرن، ذلك أن هذا القرن - كما سنبين فيما بعد - كان قرن التصوف والطرق الصوفية فى مصر، ففيه ازدهرت حركة الطرق فى مصر ازدهارًا كبيرًا، وفيه ظهر أهم أعلام الطرق الصوفية.

ولعل فى إلقاء الضوء على نواحى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية لمصر فى هذا القرن، يكشف لنا عن سر ازدهار تصوف الطرق الصوفية فى مصر منذ القرن السابع الهجرى، والقرون التالية له.

الفصل الخامس

القرن السابع الهجرى.. قرن الطرق الصوفية

صورة لوجه مصر فى هذا القرن:

إذا استعرضنا تاريخ مصر خلال هذا القرن وجدنا أنه تاريخ صراع مرير على الحكم بين حكام لا تربطهم أى صلة بالمحكومين، اعتبروا مصر «وسية» ابن البلد فيها لا رأى له ولا صوت مسموع، عليه أن يدفع الضرائب وأن يفعل ما يؤمر به فقط.

ودارس التاريخ يشعر أن هذا الشعب، قد ظلم إلى حد كبير، وابتلى بأغرب الحكام، لكن الأغرب من هذا هو صبر هذا الشعب إزاء الظلم المفروض عليه من هؤلاء الحكام، فطوال حكم الأيوبيين والمماليك فى هذا القرن لم ترتفع أصوات تذكر فى وجه الحكام الظالمين، اللهم إلا ثورة الكورانى[1].

وخلال القرن السابع الهجرى، حكم مصر سبعة عشر حاكما. ستة من بنى أيوب، وأحد عشر مملوكا.

١ - الملك العادل سيف الدين أبو بكر الأيوبى من سنة ٥٩٧ هـ إلى ٦١٥ هـ.
٢ - الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبى بكر الأيوبى ٦١٥ هـ - ٦٣٥ هـ.
٣ - الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن الملك الكامل محمد ٦٣٥ هـ - ٦٣٧ هـ.
٤ - الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد ٦٣٧ هـ.
٥ - الملك توران شاه ٦٤٧ هـ - ٦٤٨ هـ.
٦ - شجرة الدر ٦٤٨ هـ - ٦٥٧ هـ.
٩ - الملك المظفّر سيف الدين قطز المعزى ٦٥٨ هـ - ٦٧٦ هـ.
١٠ - الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ٦٥٨ هـ - ٦٧٦ هـ.
١١ - الملك السعيد أبو المعالى محمد بن الملك الظاهر بيبرس ٦٧٦ هـ - ٦٧٨ هـ.
١٢ - الملك العادل سيف الدين سلامش بن الملك الظاهر بيبرس ٦٧٨ هـ.
١٣ - الملك المنصور قلاوون ٦٧٨ هـ - ٦٨٩ هـ.
١٤ - الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور قلاوون ٦٨٩ هـ - ٦٩٣ هـ.
١٥ - الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون (المرة الأولى) ١٦٩٣ هـ - ٦٩٤ هـ.

---

(١) سنتكلم عن ثورة الكورانى عند الحديث عن الأحوال السياسية لمصر فى القرن السابع الهجرى.

١٦ - الملك العادل كتبغا ٦٩٤ هـ - ٦٩٦ هـ.

١٧ - الملك المنصور حسام الدين لاجين بن عبدالله المنصورى ٦٩٦ هـ - ٦٩٨ هـ.

١٨ - عودة الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى السلطة مرة ثانية ٦٩٨ هـ - ٧٠٨ هـ.

ولقد كان الحكم لعبة فى أيدى المماليك فى هذا القرن.

فمثلا نجد أن مماليك الملك الصالح نجم الدين الأيوبى، زوج شجرة الدر، هم الذين اتفقوا وأقروا تعيينها ملكة، وهم الذين عرضوا عليها الزواج بعز الدين أيبك فوافقت وتزوجته.

وهذا هو الظاهر بيبرس أقوى المماليك، بدأ مؤامرة لاغتيال سيف الدين قطز بعد عودته منتصرا، من عين جالوت ليتولى بيبرس الحكم.

إننا نجد أنفسنا أمام سلسلة طويلة من القتل والتدمير من أجل شهوة الحكم والسيطرة.

والمؤرخ المنصف لابد أن يذكر من ناحية أخرى أن هؤلاء الحكام من بنى أيوب، والمماليك لعبوا دورًا كبيرًا فى انتصارات حربية عظيمة غيرت مجرى تاريخ العالم بأسره، لكن ينبغى ألا يغيب عن ذهننا أبدا، أن هؤلاء الحكام الأقوياء هم أنفسهم الذين كونوا دولة داخل الدولة، مستقلة، تنعم بكل شىء والشعب المصرى يقاسى الضرائب الباهظة من أجل الحروب المستمرة.

الأهمية التاريخية للقرن السابع الهجرى فى مصر من الناحية العسكرية:

كان القرن السابع الهجرى فى مصر من القرون المثيرة، التى لم تؤثر فى تاريخ مصر فحسب، بل أثرت فى تاريخ العالم بأسره، وذلك للأسباب الآتية:

أولاً - حدث فى هذا القرن هزيمة التتار فى موقعة عين جالوت ٦٥٨ هجرية ١٢٦٠ م فى عهد سيف الدين قطز، وبهذا وهبت مصر الحياة للدنيا كلها خصوصا أوربا التى أنقذتها مصر من إعصار مغولى عنيف.

ثانيًا - فى هذا القرن أنقذت مصر الإسلام من خطر الصليبيين ومنعت حدوث ردة أخرى ونكسة أندلسية ثانية.

ثالثًا - صارت مصر مركزا للخلافة العباسية فى هذا القرن، ففى زمن المستعصم آخر الخلفاء العباسيين هجم هولاكو على بغداد، وقتل الخليفة سنة ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م، وبهذا زالت الخلافة العباسية من بغداد التى ظلت تحكم العالم الإسلامى قرابة خمسة قرون، وبدأ ظهور الدول الإسلامية المنفصلة عن بغداد التابعة لحكم الخلافة العباسية.

وحين سقطت بغداد فر أحد أبناء الخلفاء إلى مصر، فرحب به الظاهر بيبرس ونادى به خليفة للمسلمين ولقبه بالمستنصر، وهكذا صارت مصر مركزا للخلافة العباسية، وظلت هكذا ردحًا من الزمن، حتى استولى عليها السلطان سليم العثمانى.

رابعًا – حدث فى هذا القرن حدث من الأحداث الكبيرة فى تاريخ الإسلام والمسلمين، فقد تولت شجرة الدر أول وآخر امرأة تحكم دولة إسلامية وإن كان حكمها لم يتجاوز ثمانين يوما.

هذه الأحداث الهامة تؤكد لنا بجلاء ووضوح تامين ، أن هذا القرن له أهمية تاريخية خاصة، ولعل أحسن ما يصور هذه الأحوال، ما ذكره ابن الأثير فى حوادث سنة ٦١٧ هـ[٢]، حيث يقول: لم يقع على المسلمين أذى وشدة من [بعد] النبى ﷺ إلى هذا الوقت مثل ما دفعوا إليه إلى الآن هذا العدو الكافر (التتر) وقد وطئوا بلاد ما وراء النهر، وملكوها وخربوها، والعدو الآخر (الفرنج) قد ظهر من بلادهم فى أقصى بلاد الروم بين الغرب والشمال، ووصلوا إلى مصر فملكوا مثل دمياط وأقاموا فيها. فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وواضح من هذا النص أن العروبة والإسلام كانا فى خطر شديدين لدرجة أن ابن الأثير يقول إنا لله وإنا إليه راجعون، فلم تكن مصر وحدها التى تعانى الخطر وإنما العالم العربى وخلافته فى بغداد بعد أن سقطت على يد المغول.

ثم ناهيك بالخلافات المستمرة بين حكام مصر، وأمرائها من أجل شهوة السلطة على مقاليد الحكم، «فمملوك يقتل سيده وأستاذه ويتولى مكانه فلا يلبث أن يثب عليه هو أيضا مماليكه والمقربون إليه فيقتلوه، أو يخلعوه، ويولوا غيره، وهلم جرا، والسبب فى ذلك يرجع فيما أعتقد إلى أن المماليك لم يقرون باستحقاق أى انسان غيرهم بالولاية من الوجهة الشرعية، وإنما كانوا يرون أن السلطنة أو ولاية أمر المسلمين هى حق لكل من توفرت له القوة، وواتته الفرصة، أو هيأت له الظروف الجلوس على أريكة الملك»[٣].

يقول الدكتور على صافى حسين «ومعنى هذا أن المماليك كانوا يتنازعون الولاية فيما بينهم، كأسلافهم الأيوبيين، غير أنه لم يكن ليؤدى إلى ضعف الدولة وكسر شوكتها، وتمكين الأعداء من التغلب عليها، كما كانت فى عهد بنى أيوب، لا بل إن دولة المماليك الأتراك كانت رغم تشاحن رؤسائها وتنازع أمرائها قوية. تهزم كثيرا ولا تنهزم إلا قليلا. وقد كان عصر المماليك استمرارًا للعصر الأيوبى من حيث الحرب والقتال، حيث ظلت الحروب الصليبية والتتارية طيلة هذا العصر على أشدها[٤].

وهذه الحروب اكتوى بنارها الشعب المصرى فقد كلفته الكثير من التضحيات، وزادت من أعبائه وسوء أحواله، واضطراب معيشته نتيجة للمشاحنات المستمرة بين الأمراء.

ومع ظلم الحكام للرعية نلاحظ صبر الشعب المصرى على حكامه فى هذا القرن، فلم تحدث ثورات، تستحق الذكر سوى حركة بسيطة قام بها شخص يدعى الكورانى «ففى عهد سيف الدين قطز ظهر (الكورانى)، وهو شاب طائش، خرج على الدين بسبب بدع نسبت إليه، ثم جدد إسلامه بعد أن ضرب

(٢) الكامل لابن الأثير: حوادث سنة ٦١٧.

(٣) كتاب ابن دقيق العيد للدكتور على صافى حسين ص ١٦.

(٤) كتاب ابن دقيق العيد للدكتور على صافى حسين ص ١٦.

ضرباً مبرحًا، وأطلق من الاعتقال، فأقام بالجبل الأحمر، فى أوائل حكم الظاهر بيبرس، وأظهر الزهد وسكن قبة الجبل، وتردد عليه الغلمان فحدثهم فى القيام على أهل الدولة، وأقطعهم الإقطاعات وكتب لهم رقاعا بها، كما لو كان صاحب الأمر الحقيقى فى البلاد، وبدأت الثورة تحت جنح الظلام، وكان العسكر قد علموا بأمرها، فأحاطوا بالثوار، وما انبلج الصبح حتى قبضوا عليهم جميعا وصلبوهم خارج باب زويلة، فسكنت الثائرة وكان ذلك فى نهاية سنة ٥٦٨ هـ (١٢٦٠ م)[٥]».

وكانت «تلك الثورة عظيمة الأثر فى سياسة بيبرس، فقد حقد على الشيعيين وعلى كل من يمت إليهم بصلة، وذلك لأن «الكورانى» اتخذ «آل على» شعاره فى ثورته، وأظهر أنه من الشيعة المتطرفين، وقد ظهرت بوادر سياسة بيبرس ضد الشيعة عامة، بعدما سقطت الدولة العباسية فى بغداد سنة ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م، ورغب فى إحياء الخلافة العباسية بمصر لتدعيم مركزه دينيا وسياسيا، وقطع الطريق على العلويين الذين جاهدوا لنيل هذا الشرف منذ سقوط الدولة الفاطمية، ولكن دون جدوى»[٦].

من ذلك يتضح لنا سوء الأحوال السياسية فى مصر نتيجة للخلافات الشخصية المدمرة بين أفراد الطبقة الحاكمة فى البلاد.

أما الجانب المشرق الذى ينبغى أن يذكر للمماليك، فهو أنهم أصحاب الفضل الأكبر فى هزيمة التتار على ما ذكرنا، ثم كان لهم الفضل غير المذكور فى اعتناق المغول الإسلام، ثم كان فى عهدهم نهاية الحروب الصليبية فى الشرق.

ملامح الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى مصر فى القرن السابع الهجرى:

أورد المقريزى تقسيما للطبقات الاجتماعية فى عهد المماليك كالآتى:

١ - أهل الدولة.
٢ - أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهية.
٣ - الباعة وهم متوسطو الحال من التجار وأصحاب المعاش من السوقة.
٤ - أهل الفلح وهم أرباب الزراعة والحرث وسكان الريف.
٥ - الفقراء: وهم جل الفقهاء وطلاب العلم.
٦ - أرباب المصالح والأجر وأصحاب المهن.
٧ - ذوو الخصاصة والمسكنة الذين يتكففون الناس[٧].

من هذا التقسيم لطبقات المجتمع فى هذا العصر، يتضح لنا أن الشعب المصرى أغلبه، كان من الفقراء: من الفلاحين والأجراء والعمال بينما الحكام وأهل الدولة كانوا يعيشون فى نعيم مقيم.

---

(٥) تفاصيل ذلك فى كتاب السلوك للمقريزى جـ ١ ص ٤٤٠. وكتاب حياة السيد البدوى لإبراهيم نور الدين ص ٩٨.
(٦) حياه السيد البدوى لإبراهيم نور الدين ص ١٩٨.
(٧) عن كتاب تاريخ مصر الاجتماعى لأحمد زكى بدوى ص ٢٠٦.

ولقد أدى سوء الأحوال الاجتماعية فى البلاد إلى سوء أسد فى الأحوال الاقتصادية،فانتشر الفقر، وعمت البطالة «وبالجملة» فقد كثر فى هذه الفترة الفقر، واستدن الخصاصة، وعظم الكرب، وجاع الناس فى أكثر الأحيان، حتى أكلوا الميتة، واستمرءوا لحم الآدميين»(٨).

أضف إلى ذلك «ما كان يرتكبه الأمراء وأصحاب الشأن فى الدولة من ظلم الناس واحتكار الأموال»(٩).

ثم «تزييف الأموال والتلاعب بها، والاستيلاء بالقوة والبطش على ما تنتجه أرض الفلاحين والزراع من الثمرات، وكثرة الضرائب على الأفراد والعقارات»(١٠).

وأسد قسوة من ذلك اجداب الأرض الزراعية فى فترات عديدة من هذا القرن، فمثلا فى عهد الملك العادل سيف الدين الأيوبى حدث بلاء عظيم، فقد هبط منسوب النيل سنة ٥٩٧ هـ - ١٢٠٠ م، وأدى ذلك إلى قحط شديد لم تعرف مثله البلاد حتى أن الناس كانت تأكل بعضها البعض.

يقول المؤرخ المصرى ابن اياس فى كتابه بدائع الزهور : «استمر النيل على ذلك ثلاث سنوات متوالية، ولم يزد غير عشرة أذرع ثم يهبط، فعدمت الأقوات فى الديار المصرية، فصار الناس من شدة الجوع إذا قوى أحدهم على صاحبه يذبحه بيده ويأكله من شدة الجوع، وهذا كله بعد أن فرغت الكلاب والقطط والوحوش والطيور، وقد تناهى سعر القمح فى السنة الثالثة إلى مائة دينار لكل أردب.. ولا يوجد»(١١).

وهكذا مات آلاف المصريين خلال هذه السنوات الثلاث جوعًا وألمًا ومرضًا ومات الكثير من الأطباء، خلال هذه الفترة، يدعون إلى زيارة المريض، وهناك فى داره يقتله المريض الجائع ليأكل لحم طبيبه، حتى النساء الغواسل لم يسلمن من الذبح لأكل لحومهن، وظل هذا الحال مدة ثلاث سنوات على ما قلنا، تم هدأ وظهرت الغلال ثانية وانخفضت الأسعار انخفاضا كبيرا، نتيجة اعتدال منسوب المياه، وقلة السكان بسبب موت كثير منهم أثناء هذه المجاعة الفظيعة.

ولقد كان القرن السابع الهجرى فى مصر فى أغلب فتراته سيئا فى الأحوال الاقتصادية، نتج عنه تدهور وانحطاط فى الأخلاق، وإنتشرت البدع والانحرافات خلاله.

وحاول بعض الحكام الأقوياء أن يتصدوا لهذه الانحرافات فوجدنا مثلا الظاهر بيبرس قد «كتب بإزالة الخمور وإبطال الفساد، والخواطئ، من القاهرة ومصر، وجميع أعمالها فطهرت كلها من المنكر، ونهبت الخانات التى جرت عادة أهل الفساد على الإقامة بها، وسلبت جميع أموال المفسدات، وحبسن

(٨) بدائع الزهور لابن إياس المصرى جـ ١ ص ١٠٣
(٩) اغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزى ص ٧٠، ٧١.
(١٠) السلوك للمقريزى جـ ١ ص ٤٣٧.
(١١) بدائع الزهور لابن اياس عدد ٨٧ طبعة الشعب ص ٦١

حتى تزوجن ونفى كثير من المفسدين، وكتب إلى جميع البلاد بمثل ذلك»[١٢]، وبالطبع فإن الفقر يلعب دورًا هاما فى انتشار الانحرافات وسوء الأحوال الاجتماعية وانتشار الخرافات والخزعبلات التى تجد تربة مناسبة تنمو فيها، بين عقول الفقراء وأحلامهم.

ومن المحتمل أن صورة سوء الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى مصر، قد انعكست فى نفسية أصحاب الطريق فنجد مظهرا لذلك من خلال أدعيتهم، وأحزابهم المليئة بالعبارات التى تصور أحوالاً سيئة من ناحية، ومن ناحية أخرى تتضمن ما يثبت الطمأنينة فى نفوس أصابها الهلع والجزع، من أوضاع سياسية خارجية وداخلية يائسة ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ فالقلوب الواجفة المشتاقة إلى الطمأنينة تجد التعبير عن ذلك فى الذكر بأكثر مما تجده فى الفكر.

ولعل ذلك باعث نفسى على انتشار الذكر وطرقه، فالناس عادة تذكر الله كثيرًا فى أوقات المحن.

ونجد أن اسم الجلالة المفضل فى أوراد أصحاب الطرق الصوفية، والأكثر استعمالاً «يالطيف»، ونحن كثيرًا ما نقول «يالطيف» فى ساعات المحن والشدة والخوف والفزع.

وفى الحزب الصغير للدسوقى على المريد أن يردد لفظة «يالطيف» ١٢٩ مرة ويقول الإمام الشاذلى فى حزب البر: «اللهم إنا قد عجزنا عن دفع الضر عن أنفسنا من حيث تعلم بما تعلم، فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لا نعلم بما لا نعلم، ياشديد البطش، يا جبار، يا قهار، يا حكيم، نعوذ بك من شر ما خلقت، ونعوذ بك من ظلمة ما أبدعت، ونعوذ بك من كيد النفوس فيما قدر وأردت. ياالله، يا الله، يا لطيف، يا رزاق». ونلمس تصويرًا صادقًا لنفسية الإنسان المصرى فى هذا الوقت من خلال الحزب الصغير للإمام البدوى. «اللهم اكفنيهم بما شئت، اللهم إنى أعوذ بك من شرورهم، وأدرأ بك فى نحورهم، بك أحاول وبك أقاتل، اللهم واقية كواقية الوليد[١٣] بكهيعص[١٤] كفيت. بحمعسق[١٥] حميت فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم».

ملامح الحالة العلمية والثقافية والدينية فى مصر فى القرن السابع الهجرى:

نستطيع أن نقول إن القرن السابع الهجرى فى مصر كان قرن التناقضات.. فمع تدهور الأحوال الاجتماعية، والاقتصادية فى مصر فى هذا القرن، كما ذكرنا فقد كان هذا القرن من جانب آخر من أثرى وأزهى عصور مصر، وأخصبها فى مجال العلم، والثقافة والحياة الدينية، فكانت مصر فى عصر المماليك ملتقى العلماء ورجال الفكر والدين «وخصوصا بعد أن سقطت بغداد فى يد التتار، فتطلع العلماء فى جميع أقطار العالم الإسلامى إلى مهرب يلتجئون إليه فلم يجدوا غير مصر»[١٦].

---

(١٢) السلوك للمقريزى ١٠ جـ ١ ص ٥٧٨.

(١٣) أى احفظنى وارحمنى وابعد عنى السوء وقنى بالوقاية والحماية التى تحفظ بها المولود الصغير.

(١٤) أول سورة مريم.

(١٥) أول سورة الشورى.

(١٦) تاريخ مصر الاجتماعى للدكتور أحمد ركى ص ١٦٧.

والحق يقال: إن القاهرة فى عصر المماليك أصبحت مركز الإشعاع والنور والثقافة فى كل أنحاء العالم الإسلامى «ورغم كثرة المظالم وفداحة المكوس فإن مصرَ نهضت نهضة علمية مباركة، وكان دافعها الأول غيرة العلماء وحصرهم على إعادة مجد الإسلام الذى بعثرته أيدى التتار ثم معاضدة الملوك والأمراء لرجال العلم وأهله»(١٧).

ومن عوامل رقى الثقافة فى مصر فى هذا القرن، «غيره السلاطين والأمراء فقد كانوا يتعصبون للدين الإسلامى ويستميتون فى الذود عنه.، وبالتالى فقد كانوا يكرمون رجال الدين وأهل العلم.، هذا وقد كان الأيوبيون والمماليك جميعا يعظمون العلماء ورجال الدين»(١٨).

فمثلا كان الملك الكامل الأيوبى، «يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم وعنده شغف بسماع الحديث االنبوى»(١٩).

ويقول عنه صاحب وفيات الأعيان: وهو الذى أغرى يحيى بن عبد المعطى الزواوى صاحب الألفية فى النحو بالقدوم إلى مصر، فجاء إليها، وتصدر بجامع عمرو لإقراء الأدب، ورتب له الكامل جاريا كفاه»(٢٠).

ويجب ألا ننسى العمل الذى قامت به الدولة الأيوبية، وهو طمس المذهب الشيعى فى مصر، الذى حاولت دولة الفاطميين نشره بها، فعملت على نشر المذهب السنى، وأنشأت من أجل ذلك المدارس والمساجد الكثيرة، فنجد أن «جملة المدارس المعروفة بمصر القاهرة فى العصر الأيوبى أربع وعشرون مدرسة، منها ست مدارس خصصت للمذهب الشافعى، وثلاث للمذهب الحنفى، وثلاث للمذهب المالكى، وسبع لم تحدد مذاهب الدراسة بها ومدرسة واحدة للمذهبين الشافعى والمالكى معا، وأخرى للمذهبين الشافعى والحنفى وعلم القراءات، وثالثة للمذهب المالكى وعلم النحو، ورابعة للحديث وخامسة للمذاهب الأربعة»(٢١).

وإننا يجب ألا نغمط حق الدولة الأيوبية، فى الاهتمام بنشر المذهب السنى والاهتمام بالثقافة وبناء المدارس.

ويقال: «إنهم ساروا بمصر ودمشق سيرة نور الدين فى فتح المدارس، وذلك ليوجهوا عقول الناس إلى التفكير السنى بعد أن عاشت مصر، ودمشق زهاء قرنين فى إطار التفكير الشيعى، وكانت مدارس الأيوبيين كثيرة العدد بحيث تمكنت من تحقيق أهدافها فى وقت قصير؛ ويمتاز هذا العهد بأن الأمراء والأميرات والتجار وغيرهم من الأهلين حتى الخدم أسهموا فى إنشاء المدارس ورعاية العلم»(٢٢).

(١٧) المرجع السابق ص ١٨٠.
(١٨) كتاب ابن دقيق العيد للدكتور على صافى ص ٤.
(١٩) كتاب السلوك للمقريزى جـ ١ ص ٢٥٨.
(٢٠) وفيات الأعيان لابن خلكان ص ٢٣٥ ذكره الدكتور أحمد بدوى فى كتابه الحياة العقلية ص ٧.
(٢١) مساجد القاهرة ومدارسها: الجزء الثانى للدكتور أحمد فكرى ص ٥٤، ٥٥.
(٢٢) كتاب التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية للدكتور أحمد شلبى جـ ٥ ص ١٧٥.

ولا نستطيع أن ننكر أن الحياة الدينية فى مصر فى القرن السابع الهجرى نشطت ونمت نموًا عظيمًا، «وجملة القول فى الحياة الدينية فى مصر أثناء القرن السابع الهجرى، أنها كانت عريضة عميقة التأثير، فقد غلبت على عقول جميع الأوساط وأفئدة مختلف الجماعات، وعلى عواطفهم ومشاعرهم بوجه عام»(٢٣).

هذه هى الملامح السريعة للحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية فى مصر فى القرن السابع الهجرى... فما صلة هذا كله بالتصوف والطرق الصوفية فى مصر، وانتشارها فى القرن السابع الهجرى»؟

هذا ما ستكشف عنه هذه الدراسة فى نقاطها القادمة.. التى نبدؤها بالحديث عن:

التصوف فى مصر فى القرن السابع الهجرى:

قد لا أكون مغاليا إن قلت: إن القرن السابع الهجرى فى مصر كان قرن التصوف والطرق الصوفية، فإذا قمنا بإحصاء المتصوفة الذين عاشوا فى مصر خلال هذا القرن، وجدنا أنه يتميز عن أى قرن مر على مصر بظهور عدد كبير من المتصوفين، وسنلاحظ من خلال هذا الإحصاء أن كبار المتصوفين الذين عاشوا فى مصر خلال هذا القرن معظمهم من المغرب، فمن رجال التصوف بمصر فى هذا القرن؟(٢٤).

١ - الحسن الصوفى: ابن الصوفى الكبير عبد الرحيم القناوى توفى الحسن الصوفى بقنا سنة ٦٥٥ هـ، وقد قارب الثمانين، أما والده عبد الرحيم القناوى (ت ٥٩٢ هـ)، فأصله من سبته، وقدم من المغرب، وأقام بمكة سنين، ثم قدم قنا وأقام بها إلى حين وفاته.

٢ - ابن الصباغ القوصى: تلميذ الشيخ عبد الرحيم القناوى توفى بقنا سنة ٦١٣ هـ.

٣ - يوسف بن محمد على بن أحمد الهاشمى أبو الحجاج المغاورى قدم من المغرب، وأقام بقنا إلى أن توفى بها، وصحب الشيخ أبا الحسن بن الصباغ ومات سنة ٦١٩ هـ.

٤ - الشيخ أبو العباس البصيرى، أحمد بن محمد بن عبد الرحيم بن أبى بكر جزى الخزرجى الأنصارى الأندلسى توفى سنة ٦٣٢ هـ، ودفن بالقرافة.

٥ - يحيى بن موسى بن على القنائى يعرف بابن الحلاوى مات بقنا فى ذى القعدة عام ٦٢٥ هـ.

٦ - أبو الحجاج الأقصرى: الصوفى المعروف توفى سنة ٦٤٢ هـ بالأقصر.

٧ - نجم الدين أحمد بن أبى الحجاج الأقصرى: مات بالأقصر سنة نيف وثمانين وستمائة.

٨ - أبو السعود بن أبى العاشر بن شعبان بن الطيب الباذيونى. مولده بباذ، بقرب واسط العراق، مات بالقاهرة سنة ٦٤٤ هـ ودفن بسفح المقطم.

---

(٢٣) كتاب الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى للدكتور على صافى حسين ص ١٨.
(٢٤) اعتمدت فى ذكر هؤلاء الصوفية على كتاب حسن المحاضرة للسيوطى.

٩ - أبو بكر بن شافع القنائي: صحب الشيخ أبا الحسن بن الصباغ توفى سنة ٦٤٧ هـ.

١٠ - إسماعيل بن إبراهيم بن جعفر المنفلوطى ثم القنائى الشيخ علم الدين مات بقنا سنة ٦٥٢ هـ.

١١ - إبراهيم بن على بن عبد الغفار بن أبى القاسم بن محمد بن مصل ابن أبى الدنيا الأندلسى ثم القنائى..، مات بقنا سنة ٦٥٦ هـ.

١٢ - الشيخ أبو الحسن الشاذلى مات سنة ٦٥٦ هـ(٢٥).

١٣ - القبارى: أبو القاسم بن منصور يحيى المالكى الإسكندرى المعروف بالقبارى مات بالإسكندرية سنة ٦٦٢ هـ.

١٤ - الجنيد بن مقلد السمهودى مات بمصر سنة ٦٧٢ هـ.

١٥ - الشاطبى: أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافرى نزيل الإسكندرية مات سنة ٦٧٢ هـ.

١٦ - أبو العباس الملثم أحمد بن محمد، كان مقيما بالصعيد. مات سنة ٦٧٢ هـ.

١٧ - مسلم البرقى. صاحب الرباط بالقرافة مات سنة ٦٧٣ هـ.

١٨ - سيدى أحمد البدوى. توفى سنة ٦٦٧ هـ(٢٦).

١٩ - الشيخ أبو العباس المرسى تلميذ الشاذلى الكبير توفى سنة ٦٨٦ هـ.

٢٠ - الجعبرى أبو اسحاق إبراهيم بن معضاد توفى سنة ٦٨٧ هـ.

٢١ - سيدى إبراهيم الدسوقى توفى سنة ٦٦٩ هـ(٢٧).

٢٢ - الإمام أبو محمد بن حجرة المعرى توفى بمصر سنة ٦٩٥ هـ.

٢٣ - الشيخ كمال الدين بن عبد الظاهر بن محمد بن جعفر الهاشمى الجعفرى القوصى توفى سنة ٧٠١ هـ.

لقد ذكر السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة حوالى ٩١ وليًا صوفيًا من الصوفية الذين ظهروا فى مصر منذ القرن الأول الهجرى، حتى نهاية القرن التاسع الهجرى، وبالطبع فإنه لم يذكر كل الصوفية الذين ظهروا فى مصر خلال هذه القرون، ومن هنا فإن إحصائيته نسبية إلى حد كبير.

لكن من خلال هذا الإحصاء التقريبى، يتضح لنا كيف كان الصوفية فى مصر فى القرن السابع الهجرى أضعاف الصوفية الذين ظهروا فى مصر فى أى قرن من القرون السابقة، أو اللاحقة حتى القرن العشرين.

ونجد أيضا أن هناك نسبة من هؤلاء الصوفية قدموا من المغرب والأندلس خصوصًا كبار هؤلاء الصوفية مثل (البدوى - الشاذلى - أبو العباس المرسى - ومن قبل عبد الرحيم القنائى).

---

(٢٥) سنقوم بدراسة الشاذلى فى المباحث القادمة إن شاء الله.

(٢٦، ٢٧) سنقوم بدراسة البدوى والدسوقى فى المباحث القادمة إن شاء الله.

ونلاحظ أن السيوطى قد أغفل عددًا من الصوفية الذين عاشوا فى مصر فى هذا القرن مثل:

١ - أبو العباس البونى (ت ٦٢٢ هـ).

٢ - عبد الله بن صعود بن مطر الروى ت ٦٣٥ هـ من تلامذة أبى النجيب السهروردى.

٣ - أبو الحسن على بن عبد الله الششترى، أصله من ششتر من أعمال وادى أسن بالأندلس، وكان من الأسرة المالكة بها، وهاجر إلى مصر واستقر بدمياط ت ٦٦٨ هـ.

٤ - كمال الدين أحمد بن على القسطلانى المالكى ت ٦٣٦ هـ، من أجل تلاميذ أبو عبد الله القرشى الصوفى.

٥ - أبو الغنائم نجم الدين محمد المطوعى، من تلامذة داود الأعزب ت ٦٨٤.

٦ - أبو عبد الله السائح المغربى ت ٦٧٤.

٧ - قطب الدين القسطلانى ت ٦٨٦ هـ.

من خلال هذه الاحصائية النسبية، فإنه يتضح لنا عدم مبالغتى حين قلت: إن القرن السابع الهجرى فى مصر كان قرن التصوف، كما كان معظم متصوفته من المغاربة.

لكن كيف نفسر السبب فى قدوم متصوفة المغرب إلى مصر، والهجرة إليها، ونشر تصوفهم وطرقهم فيها.

يقول بعض الباحثين: «يبدو أن التصوف المغربى كان أقوى تأثيرا فى العالم الإسلامى، بدليل أنه فى القرن الخامس الهجرى قامت دولة المرابطين فى المغرب العربى، وهى الدولة التى أسسها عبد الله بن ياسين (ت ١٥٠٩ م)، على أسس من التصوف الروحى والجهاد الدينى، ولها صفحات مشرقة فى الدفاع عن كيان المسلمين بالأندلس وشمال أفريقية، ذلك أن عبد الله بن ياسين أقام دولته على أسس من التقشف، والزهد والعبادة، فدعا أصحابه إلى الإقامة فى الربط لعبادة الله بعيدا عن حياة الفساد، ومن ثم سميت الدولة بدولة المرابطين، وحدث فى القرن السادس الهجرى (١٢ م)، أن زالت دولة المرابطين فى المغرب العربى وحلت محلها دولة الموحدين»(٢٨).

ومن الطبيعى أن يفكر متصوفة المغرب وعلماؤه فى القرنين السادس، والسابع الهجريين فى الهجرة إلى القاهرة التى وجدوها تربة خصبة لبذر أفكارهم الصوفية، كما هاجر إليها أيضا على ما ذكرنا سابقا العديد من علماء بغداد والشام، ولكن لسبب آخر وهو سقوط بغداد فى أيدى المغول، والحروب التى استمرت طويلا بين الصليبيين وبلاد الشام، وكانت مصر هى التى تحملت العبء الأكبر فى الدفاع عن الإسلام فى هذا القرن، حين خلصت العالم الإسلامى من المغول، وانتصرت على الصليبيين وردتهم على أعقابهم خاسرين.

---

(٢٨) كتاب السيد البدوى للدكتور سعيد عاشور ص ٥٧.

قرن الطرق الصوفية:

حين قلت: إن القرن السابع الميلادى فى مصر، كان قرن التصوف، أعنى بالذات التصوف العملى، الذى تمثله الطرق الصوفية التى انتشرت فى هذا القرن، ونمت نموًّا كبيرا. ولقد راودتنى فكرة استنبطتها من خلال عرضى لصورة الحياة الاجتماعية والسياسية، والاقتصادية لمصر فى القرن السابع الهجرى.

ومؤدى هذه الفكرة أنه قد يكون مما ساعد على انتشار الطرق الصوفية فى مصر انتشارًا عجيبًا، واندفاع عشرات الألوف من المصريين للانضمام تحت لواء هذه الطرق، هو تشجيع الحكام أنفسهم لحركات الطرق الصوفية، ليشغلوا الشعب المصرى عن التفكير فى أحوال البلاد.. فبدلا من أن ينشغل الإنسان المصرى بالتفكير فى ظروفه الاجتماعية والاقتصادية السيئة - بدلا من - أن يفكر فى فقره وبلائه.. بدلا من أن يفكر فى طريقة للخلاص من وضعه السيئ بالثورة على الحاكم، فإن الحاكم نفسه يعمل على شغل فكره من خلال تشجيعه إلى الانضمام إلى إحدى الطرق الصوفية، فيجد عالمه وخلاصه فى رحاب الطريق وهكذا انشغل المصريون كلهم فى هذه الحقبة من الزمن بالطرق الصوفية وتركهم الحكام .، وانشغلوا هم فى لهوهم وحروبهم.. يفرضون على الشعب المزيد من الضرائب من أجل حروبهم الكثيرة ومتعهم الزائدة عن الحد.

ولقد مر بنا كيف عاش هذا الشعب ظروفًا ضاريةً خلال هذا القرن من الزمان، مما جعله يبحث عن طريق للتخلص من الانفصام النفسى، والتمزق الداخلى الذى يعيشه، فوجد فريق من هذا الشعب الذى تسكن فى أعماقه منذ القدم وتتغلغل فى داخله روح الدين أن الطريق هو طريق الله، ولابد لمن يريد الوصول إلى الله، من مدارج يرقاها فى سيره، فى رحاب طريقة من الطرق التى تهدى إلى الله.

وإذا كان القرن السابع الهجرى فى مصر، يمثل فى أغلب فتراته اضمحلالاً اجتماعيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا، إلا أنه كان عصر انتشار الطرق الصوفية، ففيه ظهرت أكبر الطرق الصوفية: «البدوية والشاذلية، والدسوقية». وازدهرت فيه وقويت طريقتا: الرفاعية، والقادرية.

مما يجعلنى أقول بحذر شديد، حتى أوضح هذه الفكرة[٢٩] إنه يحتمل مع وجود تدهور فى الحياة الاقتصادية، والاجتماعية والسياسية لدى شعب من الشعوب أن يبدأ انسحاب الناس، وتلمس أثر الهزيمة واضحًا فى فكرهم، بعضهم يهرب من الحياة متعزلاً فى صومعة، يعبد ربه بعد أن أخفق فى الحياة التى أجبرته ظروفها السياسية والاجتماعية والاقتصادية على اعتزالها، والانسحاب من نشاطاتها.

ويرى بعض الباحثين «هيلر» أن ذيوع التصوف يصحب تدهور الحضارات المتطورة فى آخر مراحلها، ويرى أنه فى مثل هذه الأوقات - كما كان فى الهند القديمة، وفى العالم الرومانى والإغريقى، وفى القرون الوسطى فى ألمانيا، وفى القرنين السادس والسابع عشر فى فرنسا، فى مثل هذه الأوقات تخبو الرغبة الصحيحة فى الحياة لدى بعض الموهوبين ذوى العقول النبيلة والمشاعر المرهفة، وينقطع الرجاء

(٢٩) سأوضح هذه الفكرة والفكرة المقابلة لها لدى الدكتور محمد كمال جعفر.

فى حياة مستقبلة ممتعة، وتهزم القيم الملموسة والأهداف والأعباء التى تفرضها الحياة، إن كره هؤلاء للعالم وللحضارة يأخذ بمجامع قلوبهم، وإن رغبتهم المتأججة فى الخير المطلق، تدفعهم بلا رحمة إلى التمرد، لتخليص أنفسهم، وإطلاق حريتهم من هذا العالم والحضارة والمجتمع.

ويشرح الدكتور جعفر هذا الرأى قبل أن يعارضه فيقول: «والذى يفهم من هذا الرأى ببساطة، هو أن نضج التصوف، وتطوره يصاحب دائما تدهور الحضارة «أى أنه لا يمكن أن تكون هناك حضارة متقدمة وزاهية يصاحبها تصوف ناضج مكتمل»(٣٠).

ويقول: «قد يضيف مثل هذا الباحث إلى ذلك تعليلاً عقليًا يحسبه مرضيا، وهو أن الرجل التقى الورع بما أنه غير راض عن العالم، وعظمته وبهجته، يشعر أنه غريب على هذه الأرض، وأنه مشدود إلى بدنه الذى يعتبره سجنًا وقبرًا، ومن ثم تهفو هذه النفس السجينة إلى التخلص والحرية، لتحلق فى الآفاق السماوية الإلهية التى منها أتت، ويرى هذا التقى أن الوسيلة إلى ذلك ليست إلا تخليص هذه النفس من شباك هذا العالم الخارجى، والانطلاق أو الانسحاب داخليا إلى باطن أعماق النفس»(٣١).

ويحاول الباحث أن يبين الخطأ الذى تردت فيه هذه الفكرة بإلقاء الضوء على الحضارة الإسلامية، والتصوف فى القرنين الثالث والرابع الهجريين – التاسع والعاشر الميلاديين – وفى بادئ الأمر يتساءل «ماذا يقصد الباحث بلفظ الحضارة ؟ وماذا يقصد بانحطاط هذه الحضارة، إن وصفه للساخطين على هذه الحضارة بأنهم ذوو عقول نبيلة، وبأنهم موهوبون أتقياء، قد يفهم منه السبب فى هذا السخط، وهو انحطاط المستوى الأخلاقى أو الروحى فى الأمة التى يعيشون فيها، وتلك وظيفة سامية يجب على الموهوبين القيام بها، أما الجانب السلبى الذى نلحظه فى بعض هؤلاء الموهوبين، فإن بعضه يرجع إلى غلبة ظاهرة الانحطاط الذى يستعصى مقاومته، ومن ثم قد يتمسك هؤلاء أنفسهم ومن يستطيعون التأثير فيه،ويحوى التاريخ قصصا لأفراد، تركوا ملكهم وانسلخوا من ثرواتهم ليعيشوا عيشة التقشف والتقشف، وقد أدخلهم التاريخ وأضفى عليهم من الخلود مالم يكونوا يحلمون به، لو أنهم احتفظوا بثرواتهم وعروشهم»(٣٢).

وأنا أترك صاحب هذا الرأى يتابع تفنيده لهذه الفكرة كما ذكرنا سابقا بإلقائه الضوء على الحضارة الإسلامية فى أوج عظمتها وبعد ذلك تناقش هذه المسألة.

يقول: «على أننا نلاحظ – فيما يمس حضارتنا الإسلامية التى بلغت أوجها فى القرنين – الثالث والرابع الهجريين – التاسع والعاشر الميلاديين، أن نضج التصوف وتطوره وبلوغه مرحلة تدنو إلى الكمال يمكن ملاحظته فى خلال هذه الفترة أيضا، إن الحضارة الإسلامية سارت فى تطورها جنبًا إلى جنب مع تطور التصوف ونضجه»(٣٣).

(٣٠) التصوف طريقا ومذهبا للدكتور جعفر ص ٢٩.
(٣١) المرجع السابق ص ٢٩.
(٣٢) المرجع السابق ص ٣٠.
(٣٣) نفس المرجع ص ٣١.

وإننى أقدر رأى الدكتور جعفر فى تفنيده فكرة «هيلر» ومن سار نحوه من الذين قالوا: إن انتشار التصوف يصحبه تدهور الحضارات المتطورة فى آخر مراحلها. وذلك بذكر الدكتور جعفر حجته، بأن نضج التصوف وقوته الحقيقية كان فى القرنين الثالث والرابع الهجريين، وكان مواكبًا لنضج الحضارة الإسلامية وعظمتها فى هذين القرنين، غير أننى أقول: إن رأى الدكتور جعفر قد ينطبق على التصوف النظرى الفردى، أما رأى «هيلر» فيكاد ينطبق على التصوف العملى الذى تمثله الطرق الصوفية.

ولقد برزت الطرق الصوفية فى مصر فى القرن السابع الهجرى، وهذا القرن على ما بينا كان عصر انحطاط سياسى واجتماعى واقتصادى، فى مصر[٣٤]، وعلى قدر ما كان عصر تدهور وانحطاط إلا أنه كان فى الوقت نفسه يمثل قمة ازدهار الطرق الصوفية، وانضمام عشرات الألوف من المصريين إليها، وهذا يعنى أن التصوف - خصوصًا التصوفَ العملى الذى تمثله الطرق الصوفية قد يزدهر خلال عصور الضعف السياسى ازدهارا بارزا.

مثال ذلك ما أوضحناه: ازدهاره فى القرن السابع الهجرى فى مصر وهو عصر ضعف، وانحلال سياسى واجتماعى ليس فى مصر فحسب، بل فى سائر العالم الإسلامى، ومن الملاحظ أيضا أنه فى هذا القرن ظهر تصوف نظرى فى بلاد الأندلس، فنجد خلاله بعض أبرز فلاسفة التصوف النظرى مثل: «عبد الحق بن سبعين»[٣٥] و «محيى الدين بن عربى»[٣٦]، وفى مصر ظهر الصوفى الكبير شاعر الحب الإلهى عمر بن الفارض[٣٧].

وإن كان لنا أن ندلى بدلونا فى هذه النقطة، فقد يكون من الواضح أننى مع القائلين بازدهار التصوف خلال عصور الضعف.

أما وقد ذكرنا أنه ازدهر وبلغ أوجه فى ظل أوج الحضارة الإسلامية فى القرنين الثالث والرابع الهجريين، كما ازدهرت الطرق الصوفية فى عصور الضعف.

إذن فإننا نرى أن التصوف الفردى النظرى قد واكب الحضارة الإسلامية فى أوجها، أما التصوف العملى، «تصوف أصحاب الطرق الصوفية»، فقد جاء مواكبًا لضعف الحضارة الإسلامية، فالحق «أن الرغبة فى العزلة والعودة إلى الله لا تقوى إلا فى ظلال الضعف.. فقليل من الناس يتذكر الله فى قوته وصحته وشبابه وثرائه، وكثيرًا ما يذكر الناس ربهم فى ضعفهم ومرضهم وشيخوختهم وفقرهم»[٣٨].

---

(٣٤) من الملاحظ أن العالم الإسلامى منذ القرن الخامس الهجرى قد أصيب بضعف شديد نتيجة ضعف الحكام وانقسام الدولة الإسلامية إلى عدة دويلات ضعيفة وظهور قوى جديدة كالمغول التى هددت أمن هذه الدويلات وأضعفتها.

(٣٥) عبد الحق بن سبعين: صوفى أندلسى ولد بمرسيا عام ٦١٣ هـ وهو صاحب فلسفة الوحدة المطلقة.. توفى بمكة عام ٦٦٧ هـ.

(٣٦) محيى الدين بن عربى: فيلسوف وحدة الوجود: ولد بمرسية سنة ٥٦٠ هـ ومات بدمشق سنة ٦٣٨ هـ.

(٣٧) عمر بن الفارض: سلطان العاشقين: ولد بالقاهرة عام ٥٧٦ هـ وتوفى عام ٦٣٢ هـ.

(٣٨) كتاب السيد البدوى: للدكتور سعيد عاشور ص ٢٨.

وقد تكون المرارة والظروف الضارية التى عاشها الإنسان المصرى فى هذا القرن، جعلته يشعر أن لا ملجأ إلا الله، وقد يكون ذلك من خلال الإقبال عليه من خلال طريقة من الطرق الصوفية.

ونحن لا نشك «فى أن المصريين أحسوا فى القرن السابع الهجرى بنفس سعور المرارة والأسى، الذى أحس به عامة المسلمين عندئذ فى مشارق الأرض ومغاربها، فها هم التتار يضربون الوطن الإسلامى فى أقصى مغربه، وبين هذا وذاك يحرص الصليبيون على أن يصيبوا من المسلمين مقتلاً بطعنهم فى مكان هو بمثابة القلب من وطنهم الكبير، وهذا ما جعلهم يفكرون فى النجاة بالرجوع إلى الله، وفى وسط التصوف متنفسا للتعبير عن آلامهم، فازداد عدد المقبلين على التصوف زيادة كبيرة»[٣٩].

وعلى ذلك: فنحن نرى أن التصوف العملى «تصوف الطرق الصوفية»، قد ازدهر، ونما فى عصور ضعف الأمة الإسلامية خصوصا منذ القرن السابع الهجرى وما تلاه من عصور تميزت بالضعف وتدهور الأمة الإسلامية سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًا.

وأهم أصحاب الطرق الصوفية فى مصر فى القرن السابع الهجرى.

١ - سيدى أحمد البدوى صاحب الطريقة البدوية.

٢ - سيدى أبو الحسن الشاذلى صاحب الطريقة الشاذلية.

٣ - سيدى إبراهيم الدسوقى صاحب الطريقة الدسوقية.

---

(٣٩) المرجع السابق: ص ٣٥، ٣٦.

الفصل السادس

السيد البدوى: صاحب الطريقة البدوية

عاش سيدى أحمد البدوى فى القرن السابع الهجرى وأسس واحدة من أكبر الطرق الصوفية فى مصر، «الطريقة البدوية» وحينما نتناول هذه الطريقة بالدراسة، قد نصل إلى نتائج هامة فى دراسة الطرق الصوفية.

إنها سخصية الرجل الذى عرف بالصمت الطويل، ومع ذلك أسس هذه الطريقة الكبيرة الى انتشرت انتشارا سريعا بين قرى ومدن مصر، واتبعها ألوف عديدة من أبناء هذا الوادى ، واعتقدوا فى صاحبها اعتقادًا كبيرًا .

فمن ذلك البدوى الذى دخل فى طريقته جماهير كثيرة من شعب مصر فى القرن السابع الهجرى، وفى القرون التالية له، وإلى الآن ينضم إليها الألوف من أبناء هذا الشعب فالبدوية تعد من أكبر الطرق فى مصر.

أولاً – سيدى أحمد البدوى.. وحياته:

من المعروف أن السيد أحمد البدوى عربى خالص، انحدر أصله من أشرف وأكرم البيوت العربية، وينتهى نسبه إلى الإمام «على بن أبى طالب» كرّم الله وجهه.

وقد انتقل أجداده إلى مدينة فاس المغربية حوالى عام ٧٣ هـ «٦٩٢ م» عندما اضطربت أحوال الجزيرة العربية، وولد أحمد بفاس فى زقاق الحجر ويحتمل أن يكون ذلك فى عام «٥٩٦ هـ»[١].

ويقول الشيخ أحمد حجاب فى كتابه عن البدوى «اتفق جميع المؤرخين على أن فى أجداد سيدى أحمد البدوى من الأئمة الاثنى عشر، تسعة أئمة: وهم الإمام على كرم الله وجهه، وابنه الإمام الحسين المتوفى سنة ٦١ هجرية، وابنه الإمام محمد الباقر المتوفى سنة ١١٣، وقيل سنة ١١٧، وابنه جعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٨، وابنه على الرضا المتوفى سنة ٢٠٢، وابنه محمد الجواد المتوفى سنة ٢٢٠، وابنه على الهادى المتوفى سنة ٢٥٤، وهم على هذا الترتيب مثبتون فى النسب الذى رواه المقريزى من بعدهم: جعفر وابنه حسن. وجعفر هو أخو حسن العسكرى الشهيد، وحسن هو ابن أخى العسكرى الشهير سمى باسم عمه[٢].

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ص ٤٦٥.

(٢) كتاب الشيخ أحمد حجاب «العظة والاعتبار»: آراء فى حياة السيد البدوى الدنيوية وحياته البرزخية، ص ١١٣

وسيدى أحمد البدوى، هو أحمد بن على بن إبراهيم بن محمد بن أبى بكر بن إسماعيل بن عمر بن على بن عثمان بن حسين بن محمد بن موسى بن يحيى بن عيسى بن على بن محمد بن حسن بن جعفر بن على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب.

ويذكر المقريزى أنه شهد بصحة نسبته جماعة من أئمة المعاصرين، منهم القاضى عبد الوهاب بن التلميذ، والسيد عنيد بن محمد الشريف الحسنى الحاكم بالمدينة المنورة، وأودعت نسخة من هذا النسب بدار الرصاص بالمدينه المنورة.

ومن هنا نلاحظ أن نسبه ينتهى إلى الحسين بن على وليس الحسن، وهذا على خلاف ما نراه من صوفية المغرب، الذين هم من أصل مغربى إذ تعودنا أن نرى أن نسبهم ينتهى إلى الحسن.

يقول الدكتور على صافى[٣] «وأما صوفية المشرق فى العراق ومصر والشام وفى فارس وبلاد خراسان، فإنهم عودونا الانتساب إلى الحسين، والسبب فى انتساب المشارقة إلى الحسين، والمغاربة إلى الحسن، راجع فيما أعتقد إلى أن المشارقة كانوا كالشيعة فى محاولة الوصول إلى الحكم والاستئثار بالسلطة، أما الذين انتسبوا إلى الحسن فكانوا يدعون الخلافة الباطنية غير حافلين فى شيء، فخلافة أهل الظاهر حيث زعموا أن الله عقد للحسن الخلافة الباطنية بعد أن نزل لمعاوية عن الخلافة الظاهرية[٤].

وعلى ما ذكرنا فإنه ولد بمدينة فاس المغربية سنة ٥٩٦ هـ وكان سادس إخوته، وعرف منذ صغره بصمته الطويل، ونظره الطويل، إلى السماء «وقد كانت أحوال البدوى فى نشأته وحداثة سنة غريبة عجيبة، فقد ذكروا أنه كان يلزم الصمت ولا يكلم الناس إلا بالإشارات، وأنه كان يظل أكثر أوقاته ساخصًا بعينيه إلى السماء[٥].

ويقول صاحب الجواهر السنية: »ويقال: إن ميوله نحو الزهد أخذت تظهر منذ ذلك الدور المبكر، حتى لقبه قومه فى طفولته بالزاهد، كما يقال: إنه لبس خرقة التصوف فى فاس على يد الشيخ عبد الجليل النيسابورى، وكان الشريف حسن شقيق السيد أحمد البدوى، قد أخذ خرقة التصوف عن ذلك الشيخ فجمع أخاه أحمد عليه ليلبسه هو الآخر خرقة التصوف»[٦].

وفى سنة ٦٠٣ هـ هاجرت أسرة السيد أحمد البدوى: والده وجميع أشقائه إلى مكة، وقد استغرقت هذه الرحلة من فاس إلى مكة حوالى أربع سنوات، وقد مروا بمصر فى طريقهم من فاس إلى مكة، وعاشوا فيها فترة تقدر بحوالى ثلاث سنوات.

---

(٣) الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى ص ١٤٦.

(٤) ذكر هذا السيوطى بالنص فى مخطوطه « تأييد الحقيقة العلمية وتشييد الطريقة الشاذلية » دار الكتب المصرية تحت رقم ٢٠١٤ تصوف. انظر أيضا هامش المرجع السابق ص ١٤٦.

(٥) الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى للدكتور صافى ص ١٤٧.

(٦) الجواهر السنية لعبد الصمد زين الدين ص ٢٠.

ويقال عن قصة انتقال أسرة البدوى من فاس إلى مكة: إن أباه عليا جاءه الهاتف فى المنام أن يا على ارحل من هذه البلاد إلى مكة المشرفة فإن لنا فى ذلك شأنا وكان ذلك حوالى عام ٦٠٣ هـ على ما ذكرنا.

وقال الشريف حسن شقيق البدوى: «فمازلنا ننزل على عرب ونرحل عن عرب فيلقوننا بالترحيب والإكرام حتى وصلنا إلى مكة المشرفة فى أربع سنين»[٧].

ويتابع القصة الشريف حسن فيقول: «فلما وصلنا إلى مكة وعلم الناس بقدومنا إليها، هرع الناس علينا، وسلموا علينا، واعتقدوا فينا الخير، وأتى إلينا سلطان مكة وأشرافها، قال: وسمع بقدومنا أهل مدينة النبى ﷺ وأشرافها فجاءوا إلينا وتعرفوا بنا، أما سلطانها فإنه لما جاء إلينا وسلم علينا، قال لنا: أين الشريف أحمد الملثم، اجمعوا بينى وبينه، فإن جدى رسول الله ﷺ وصفه لى، وأرانى صفته وحليته فى المنام، وقال لى: يخرج من المغرب وهو ابن سبع سنين ويدخل مكة وهو ابن إحدى عشرة سنة، وأشار لى أن أسير إليكم، وأجتمع بكم، وأسلم عليكم، وعلى الشريف أحمد الملثم وأتبرك به، وقال لى: إنه سيظهر له حال وأى حال، ويربى المريدين، يجىء منهم رجال وأى رجال فقال له والدى: إن هذا الولد حديث السن ومن أين يقدر على هذا الحال وهو هو هذا أو غيره؟ فقال: أعد أن جدى رسول الله ﷺ أرانى صفته وحليه، ففى أنفه شامة سوداء من كل ناحية، أصغر من العدسة، وهو أقنى الأنف، صبيح الوجه، فلما حضر سيدى أحمد البدوى ورآه السلطان، عرفه بالصفات فقام إليه، واعتنقه وأجلسه إلى جانبه[٨].

وقد ذكر الشعرانى وصفا للسيد البدوى فقال: «كان غليظ الساقين طويل الذراعين، كبير الوجه، أكحل العينين، طويل القامة، قمحى اللون، وكان فى وجهه ثلاث نقط من أثر جدرى، فى خده الأيمن واحدة وفى الأيسر اثنتان، أقنى الأنف، على أنفه شامتان فى كل ناحية شامة سوداء أصغر من العدسة، وكان بين عينيه جرح موسى، جرحه ولد أخيه الحسين بالأبطح حين كان بمكة[٩].

ويتبين لنا مما سبق أن أسرة البدوى، رحلت عن فاس ببلاد المغرب عام ٦٠٣ هـ، واستقرت بمكة المكرمة حوالى عام ٦٠٧ هـ، وأن أسرة البدوى أثناء سفرها لمكة استقرت حوالى ثلاث سنوات بأرض مصر..

وقد يكون السيد البدوى، الذى كان فى حوالى السابعة أو الثامنة من عمره حتى سن العاشرة، أى فى فترة طفولته وصباه المبكر قد سمع عن مدينة «طندتا» المصرية، أو رآها فظلت فى مخيلته صورة باهتة عنها علقت منذ صباه فى أرض مصر.

.. المهم.. كما اتضح لنا أن أسرة البدوى بعد رحيلها من فاس، استقرت بمكة وعاشت عيشة طيبة

---

(٧) طبقات الشعرانى ص ١٥٨، ١٥٩.

(٨) الجواهر السنية ص ٢٩.

(٩) الطبقات الكبرى الشعرانى جـ ١ ص ٢٤٧.

هناك، حتى فجعت بوفاة الشريف على والد الإمام السيد البدوى سنة ٦٢٧ هـ وبعد ذلك بحوالى أربع سنوات أى حوالى سنة ٦٣١ هـ توفى محمد شقيق السيد البدوى، فلم يبق من إخوته الذكور سوى شقيقه الأكبر حسن الذى تولى رعاية أحمد.

وقد لزم السيد البدوى منذ صباه العكوف على العبادة، والقيام، وتعود الذهاب إلى مغارة فى جبل أبى قبيص قرب مكة يتعبد فيها وحده. حوالى سنة ٦٣٤ - ١٢٢٧ م، وفى حوالى الثامنة والثلاثين من عمره قرر الرحيل إلى العراق.

ويقال: إن شيخ الطريقة البدوية سيدى أحمد البدوى، رأى رؤيا تأمره بالرحيل إلى العراق، يقول إمامنا الأكبر المغفور له فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الإسلام: أولياء الله لا يتصرفون بأنفسهم، إنهم وقد أسلموا نفوسهم لله لا يتصرفون إلا بتوجيه منه سبحانه، ولا يعملون إلا بإذن الله تعالى، وقد يكون هذا التوجيه، أو هذا الإذن رؤيا يراها الولى، أو يكون إلهاما، أو يكون انشراح صدر بسبب الاستخارة يمر بها الولى «ويدلل الإمام الأكبر على ذلك بقول العزيز الحكيم: ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون. نزلا من غفور رحيم**﴾* فالملائكة تتحدث مع أولياء الله بنص القرآن»[١٠].

أما الدكتور سعيد عاشور فيقول عن رحلة السيد البدوى للعراق: (يبدو أن السيد أحمد أدرك أن مكة مع عظيم مكانتها أضيق من أن تتسع لطموحه وآماله، ففكر فى الهجرة منها إلى بلد واسع الإمكانيات البشرية والمادية، والعراق أرض الأئمة والأقطاب)، يؤيد رأينا هذا أن الرواة علّلوا رحلته إلى العراق، برؤية رآها قيل له فيها: لا تنم! فمن طلب المعالى لا ينام، وحق آبائك الكرام سيكون لك حال ومقام[١١].

ومهما كان السبب فقد سافر السيد البدوى مع أخيه الحسن إلى العراق سنة ٦٣٤ هـ وطاف شمال العراق وجنوبه، وزار أم عبيدة، مركز الطريقة الرفاعية كما زارا مقام سيدى عبد القادر الجيلانى، واشتاق الشريف حسن لرؤية زوجه وأولاده فاستأذن أخاه أحمد فأذن له.

واتجه بعد ذلك سيدى أحمد البدوى إلى شمال العراق، لزيارة ضريح عدى بن مسافر الهكارى صاحب الطريقة العدوية، وهناك قرب الموصل فى شمال العراق حدث صراع بين السيد البدوى، وبين امرأة جميله اسمها فاطمة بنت برى.

وملخص القصة أن فاطمة بنت برى هذه، كانت امرأة غنية، جميلة، مغرمة بإيقاع الرجال فى سباك

---

* سورة فصلت - الآيات ٣١ - ٣٢.

(١٠) كتاب السيد أحمد البدوى للدكتور عبد الحليم محمود ص ٥٢، ٥٣.

(١١) كتاب السيد البدوى للأستاذ الدكتور سعيد عاشور ص ٥٧.

مالها وجمالها، تلعب بقلوبهم وعواطفهم ثم تتركهم يركعون تحت أقدامها يلهثون، وكانت فاطمة تبحث بينهم عن الرجل العظيم.

وكم من رجال كانوا من أرباب التقوى والصلاح، سقطوا فى حبال هذه الأفعى، وتهافتوا على القرب منها، ذلك أن صلاحهم كان شكلا وصورة، وكانت تقواهم ضعيفة خائرة، ولهذا كان من السهل على الشيطانة فاطمة بنت برى إغواءهم، حتى جاء السيد البدوى فلم تستطع أن توقعه فى شباكها الناعمة، ولم تقدر عليه فقد وجدت نفسها أمام نوع جديد من الرجال إيمانه صلب وعقيدته لاتخور أبدا، قلبه مسغول بذكر الله لا بذكر الغوانى.

وحين دانت للرجل الصالح التقى رجته الزواج بها، لكن السيد البدوى وجد نفسه أمام دعوة كبيرة تحتاج منه إلى تفرغ كامل، والزواج قد يشغله، واستطاع السيد البدوى أن يؤثر فيها ويحولها إلى امرأة متدينة، وأخذ عليها العهد ألا تعود إلى ماضيها وغوايتها القديمة، وتابت فاطمة توبة صادقة.

هذه هى القصة فى خيوطها الحقيقية بلا تزيد أو اختلاق أو تقول:

ويبدو أن الذى جعل بعض الكتاب ينكرون هذه القصة، هو ما دخل عليها من حشو وزيادات، بعد أن أضاف إليها بعض أتباع السيد البدوى من عندهم كرامات أسطورية شوهت صورة السيد البدوى وأساءت إليه.

ويكفى أنها جعلت من تلك الواقعة البسيطة التى من الممكن أن تحدث، وكما ترى «ليست أكثر من امرأة لها حال عظيم، وجمال بديع وكانت تسلب الرجال أحوالهم، فسلبها سيدى أحمد رضى الله عنه حالها، وتابت على يديه وعاهدته أنها لا تتعرض لأحد بعد ذلك اليوم»(١٢).

وبعد سنة قضاها السيد البدوى فى ربوع العراق شماله وجنوبه، عاد إلى مكة سنة ٦٣٥ هـ ١٢٣٨ م، ويقول الشيخ أحمد حجاب رحمه الله «كانت رحلة العراق نقطة تحول كبيرة فى حياة سيدى أحمد النفسية، لقد أعقب تلك الرحلة تغير ملحوظ فى سلوكه وعبادته، لم يكن معهودًا عليه قبل الرحلة. فكان صيامه وصلاته وقيامه وانتصابه وكلامه، إشارة، وتحول بوجهه نحو السماء وقطع النظر عمن فى الأرض، حتى قلقت عليه أخته الكبرى فاطمة، فكانت تنبه أخاها الحسن من نومه ليلا تشكو إليه من حالته، وتبث له قلقها، على أخيها أحمد، وتقول: ابن والدى إن أخى أحمد قائم طول الليل، وهو شاخص ببصره إلى السماء ونهاره صائم، وانقلب سواد عينيه بحمرة تتوقد كالجمر وله مدة أربعين يوما ما أكل طعاما ولا شرابا(١٣).

واستمر السيد البدوى فى حياة الزهد والعبادة آناء الليل وأطراف النهار، وفى نفس العام أى سنة ٦٣٥ هـ - ١٢٣٨ م، قرر سيدى أحمد البدوى الرحيل إلى مصر.. وإلى طندتا «طنطا» بالذات، وبالطبع فإن رواة سيرته من أتباعه قالوا: إن الهاتف فى المنام قال له «قم يا همام وسر إلى طندتا».

(١٢) مشارق الأنوار فى فوز أهل الاعتبار للشيخ حسن العدوى الحمزاوى ص ١٨٦.
(١٣) العظة والاعتبار لفضيلة الشيخ أحمد حجاب ص ١٣٠.

هكذا قال عبد الصمد زين الدين، والمناوى، والشعرانى، إنه سافر لطندتا لهاتف منامى فدخلها حوالى سنة ٦٣٥ هـ، وبعضهم يقول: حوالى ٦٣٤ هـ. وها هو المناوى فى الكواكب الدرية يسقط سقطة تاريخية حين يقول: «ثم سمع هاتفا يقول ثلاثا قم واطلب مطلع الشمس، فإذا وصلته فاطلب مغربها، وسر إلى طندتا فيها مقامك أيها الفتى، فسافر إلى العراق، فتلقاه العارفان الجيلانى والرفاعى فقالا يا أحمد، مفاتيح العراق والهند واليمن والشرق والغرب بيدنا فاختر أيها سئت فقال: لا آخذ المفتاح إلا من الفتاح. ىم رحل إلى مصر، فتلقاه الظاهر بيبرس بعسكره وأكرمه، وعظمه، فدخلها سنة أربع ونلاىىن»(١٤).

أما السقطة التاريخية التى وقع فيها المناوى رحمه الله أن بيبرس لم يتول حكم مصر إلا سنة ٦٦٨ هـ، أما سنة ٦٣٤ فكان يحكم مصر الملك الكامل محمد الأيوبى.

ومن كتابات عبد الصمد زين الدين والمناوى والشعرانى يظهر لنا على ما يقول الدكتور على صافى: «إن رحلة السيد البدوى إلى مصر كان يكتنفها الغموض، فهم متفقون على أنه ذهب إلى العراق قبل أن يذهب إلى مصر، ثم يختلفون فى المكان الذى ذهب منه إلى مصر، وفى ذكر كيفية دخوله إليها. فعبد الصمد زين الدين يقول: إنه عاد إلى مكة ومنها ذهب إلى مصر، أما الشعرانى والمناوى فإن كلام كل منهما يعطى أن البدوى لم يعد إلى مكة، ولكنه اتجه من العراق إلى مصر مباشرة»(١٥).

ولقد نبه الأستاذ صلاح عزام فى كتابه عن السيد «عبد الرحيم القنائى» إلى خطأ تاريخى آخر، وقعت فيه احدى الروايات التاريخية.. فقال: إن هناك رواية تقول: إن السيد البدوى تبادل مع الشيخ القنائى الرسائل. بل وزاره فى قنا. وهى موجودة فى بعض الكتب القديمة التى تؤرخ للسيد البدوى، بل إن محبى السيد البدوى ورجال طرقه يتناولونها إلى اليوم.

ومن المعروف أن الشيخ القنائى رضى الله عنه توفى عام ٥٩٢ هـ، بينما السيد البدوى رضى الله عنه ولد عام ٥٩٦ هـ ووصل مصر عام ٦٣٥ هـ.

ولكن من الجائز أن يكون السيد البدوى، قد زار الشيخ القنائى كعادة من عادات الأقطاب أن يزوروا الأولياء فقبل مجيئه طنطا زار أولياء العراق وأقطابه كما ذكرنا سابقا.

وانتهى بالسيد البدوى المطاف لأرض طنطا واستقر بها، حتى وافته المنية سنة ٦٧٥ هـ.

وإذا أردنا أن نعلل مجيئه إلى طنطا مباشرة نقول: إنه قد يكون للسيد البدوى فكرة عن طنطا، وعن موقعها الممتاز، وتوسطها القاهرة والإسكندرية، فاتجه إليها وإلى دار تاجر هناك اسمه ابن شحيط فسكن سطح داره، «ولعل ابن شحيط هذا هو الشيخ ركن الدين الذى كان يقال له ركين

---

(١٤) الكواكب الدرية للمناوى مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٢٦٠ تاريخ ورقة ٣٢٢

(١٥) الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى للدكتور على صافى صفحة ١٤٨.

الدين، فقد رأيت فى بعض التراجم أن الشيخ ركن الدين له دكان بسوق طنطا، يبيع فيه العسل والزيت والعلف وغير ذلك»[١٦].

وعلل البعض تفضيل إقامة البدوى فوق سطح الدار، لتفضيل البدوى العيش وسط الطبيعة ، يرى بديع صنع الله فى نجومه وسمائه وكواكبه وشجره وحره وبرده ورعده ومطره ﴿**إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب. الذين يذكرون الله قيامًا وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار**﴾[١٧] فكان البدوى بهذا الرأى فضل الإقامة فوق سطح الدار ليتأمل صنع القادر الحكيم، ويسبحه آناء الليل وأطراف النهار.

وقد يرجع هذا عندنا إلى أن الإمام البدوى كان حييا، فاستحيا أن يعيش داخل الدار فيحدّ من حرية صاحب الدار وأهله، وقد يكون ذلك أيضا لتأثره بالعراقيين، وقد عاش بينهم عاما، فأهل العراق يفضلون النوم فوق السطح فى شهور الصيف شديدة الحرارة.

وفوق السطح عاش البدوى وحوله الأتباع من السطوحيين، ويقال: إن غيابه كان أكثر من حضوره، وكانت تأتى عليه الأربعون يوما لا يأكل فيها ولا يشرب ولا ينام، وهو شاخص ببصره إلى السماء، وكان إذا عرض له حال يصيح صياحا متصلا، ويكثر من الصياح، وهذا ما جعل الناس تتحير فى أمره، لكن سرعان ما زال شكهم إلى حد ما، حينما لمسوا بركاته، فدخل فى طريقته قوم لا يحصون واتسعت شهرته، وعمت الآفاق.

هذه صورة سريعة عن رحلات السيد الشريف الملثم[١٨] السطوحى الصامت سيدى أحمد البدوى، ننتقل بعدها لنتعرف على كراماته، وطريقته، وتصوفه، وصلة البدوى بالتشيع إن كانت هناك صلة.

والحق أن شخصية البدوى شخصية ثرية خصبة شوهتها كتب المناقب والمحبين، حين حاولوا أن يجعلوا من البدوى أسطورة غريبة، فغربوا الرجل وطاروا به عن عالم الواقع ليقدموه لنا صورة أقرب إلى صورة القوة والقدرة، فإنه لا يتحرك إلا بأمر ورؤيا منامية، كما رأينا ولا ينتقل من مكان إلى مكان إلا بهاتف منامى يأمره بأن يرحل إلى العراق أو طنطا، بل زعموا أنه «كان يخاطب الأولياء السابقين والصوفية المتقدمين، ويتصل بأهله فى مكة، ويرى النبى صلوات الله وسلامه عليه، ويصعد إلى السماء،

---

(١٦) مخطوط النصيحة العلوية فى بيان حسن طريقة السادة الأحمدية المخطوط تأليف الشيخ على الحلبى موجود بمكتبة الأزهر نسخة فى مجلد تحت رقم (١٥٤٠) ١٢٩٤٥ ورقة ٢٢.

(١٧) سورة آل عمران: الآيتان ١٩٠ – ١٩١.

(١٨) اللثام هو ما كان على الفم من النقاب. والبدوى ولد وشب فى شمال أفريقيا أخذ هذه العادة عن الملثمين واحتفظ بها طوال حياته، وإن كان بعض أتباعه يحاول أن يفسر ذلك تفسيرًا آخر.. يقول الشيخ أحمد حجاب فى كتاب العظة والاعتبار ص ٨٨ «.. كان يحدق ببصره نحو السماء لا ليبظر فى النجوم ولكن ليطالع تجليات الحق ويتابع أنوار الذات. ومن كثرة هذه المطالعة انطبعت على محياه هذه الأنوار وتركت أثرا ظاهرًا يقرؤه كل واحد، فكان يستر وجهه باللثامين ليحجب عن الأعين آثار تلك الأنوار».

ويشاهد ما يقدر وراء الغيب للخلائق، ويطلع على مشاهد الجنة والنار، وكل هذا عن طريق الرؤيا فى المنام»[١٩].

ويقول البعض: «ومثل هذا الهاتف المنامى لا يمكن للباحث أن يضعه تحت حكم قاطع جازم بالصدق أو الكذب، فإن علم النفس لا ينكره، بل يبرره مادام العقل مشغولا به متلهفا عليه، وما يفكر الإنسان فيه يقظة يحلم به مناما.. فمرجع الصدق والكذب فى هذا إلى الشخص نفسه، وقد يكون السيد البدوى رأى هذه الرؤيا أو رأى بعضها، أو لم ير شيئا منها قط، وقد يكون هذا كله من تلفيقات الدارسين والأتباع»[٢٠].

وبعد فإن الرأى الذى نقول به: إن البدوى كان رجلا تقيًا ورعًا جاء من قبل رفاعيى العراق بعد أن توفى رجلهم الكبير أبو الفتح الواسطى مُبَشّر الطريقة الرفاعية بمصر، أرسلوه عوضا عن الواسطى لما توسموا فيه من صلاح وزهد وذكاء أيضا، ولهذا نجد أن ذكاء البدوى قد وضح بمجرد مجيئه مصر وانتشار طريقته البدوية السطوحية بها انتشارا سريعا.

ثانيا – كرامات سيدى أحمد البدوى:

امتلأت كتب المناقب بكرامات لا تحصى ولا تعد حول هذه الشخصية الصامتة الملثمة، والذى لا نشك فيه أن السيد البدوى شخصية واقعية حقيقية، وليست شخصية أسطورية خارقة للعادة، ولكن الأتباع والمنتفعين شوهوا الصورة الجميلة للرجل الكريم، أضافوا إليه كرامات غريبة، بل إن بعضهم جعله فى مرتبة أعلى من مرتبة الأنبياء، وأضافوا إليه القدرة على إحياء الموتى وشفاء المرضى، وقوله للشىء كن فيكون بإذن الله.

يقول الدكتور سعيد عاشور: «من الثابت لدينا أن الكتابات التى دونت عن السيد البدوى وحياته، يرجع معظمها إلى العصر العثمانى، وهو عصر يوصف فى تاريخ مصر بالجمود والتأخر وانتشار الجهل، وعبرت هذه النواحى كلها عن نفسها أتم تعبير فى دنيا التصوف فى ذلك العصر، إذ أصبح التصوف عندئذ أداة لكسب العيش، من أهون الطرق، احترفه أدعياء استغلوا الجهل المطبق المحيط بهم فى التلاعب بعقول الناس ومشاعرهم»[٢١].

ومن هنا كان من مصلحة هؤلاء الأدعياء نشر المعتقدات الخاطئة حول السيد البدوى، «وكان من المستحيل على كتاب سيرة السيد أحمد البدوى أن يدونوا سيرته العطرة خلوا من تلك الروح التى سادت عصرهم، لأنهم كانوا يكتبون لأناس يعيشون حولهم، ويقومون الأولياء بمقدار ما يتهيأ لهم من كرامات، وما يتحقق على أيديهم من معجزات فى – حياتهم ومماتهم – لا على أساس مثلهم وسلوكهم،

(١٩) كتاب السيد البدوى: لفهمى عبد اللطيف ص ٤٦.
(٢٠) كتاب السيد البدوى لفهمى عبد اللطيف ص ٤٦.
(٢١) كتاب السيد البدوى. شيخ وطريقة للدكتور سعيد عاشور ص ٦.

لذلك جاءت سيرة السيد البدوى كما كتبها السابقون محشوة بكثير من القصص الخرافية، وظنوا أنهم بذلك إنما يسترضون السيد البدوى لأنهم يظهرون عظمته، وينسبون إليه من خوارق الأعمال، ما هو كفيل بأن يعلى من قدره فى نظر العباد والمريدين(٢٢).

فها هو الشعرانى مثلا يحكى لنا حكاية غريبة لا أعرف من أين استقاها يقول فى طبقاته «.. وأما أمر سيدى قمر الدولة.. فلم يصحب سيدى أحمد زمانا إنما جاء من سفر فى وقت حر شديد، فطلع يستريح فى طندتا فسمع بأن سيدى أحمد رضى الله عنه ضعيف، فدخل عليه يزوره.، وكان سيدى عبد العال(٢٣) وغيره غائبين، فوجد سيدى أحمد قد سرب ماء بطيخه وتقيأه ثانيا فيها، فأخذه سيدى محمد قمر الدولة وسربه، فقال له سيدى أحمد أنت قمر دولة أصحابى، فسمع بذلك سيدى عبد العال، والجماعة، فخرجوا لمعارضته وقتله فى الحال، فرمح فرسه فى البئر التى بالقرب من «كوم التربة النفاضة»، فطلع من البئر التى بناحية «نفيا» فانتظروه عند البئر التى نزل فيها زمانا، فجاء الخبر أنه طلع من تلك البئر التى قرب «نفيا»، فرجعوا عنه، فأقام بنفيا إلى أن مات، لم يطلع طندتا خوفا من سيدى عبد العال(٢٤). وأنا أتساءل: إذا تقيأ إنسان ما مهما كانت مكانة هذا الإنسان وحيثيته.، أى نفس تستطيع أن تتجرع قىء معدة إنسان آخر؟ وهل من السهل علينا أن نتصور، أن سيدى عبد العال خليفة سيدى أحمد البدوى وتلميذه الكبير، الذى قال عنه الشعرانى نفسه: إن عبد العال «استخلفه البدوى على الفقراء بعده وسار سيرة حسنة»(٢٥)،أظن أن مثل سيدى عبد العال لا يفكر فى محاولة قتل محمد قمر الدولة، الذى استغل غيابه فشرب قىء سيدى أحمد البدوى، ما أظن أن وليا وتلميذا هو أكبر تلامذة الإمام البدوى مقامًا وكفاءةً يفكر فى القتل حسدًا وغيرةً وحقدًا.

ويحدثنا الشعرانى مرة أخرى عن البدوى جلاب الأسرى فيقول: «شاهدت أنا بعينى سنة خمس وأربعين وتسعمائة أسيرًا على منارة سيدى عبد العال رضى الله عنه مقيدًا مغلولاً وهو مختبط العقل فسألته عن ذلك فقال... بينما أنا فى بلاد الفرنج آخر الليل توجهت إلى سيدى أحمد البدوى فإذا أنا به فأخذنى وطار بى فى الهواء فوضعنى هنا، فمكثت يومين ورأسه دائرة عليه من شدة الخطفة رضى الله عنه قاله الشعرانى»(٢٦).

وهذه فكرة عاشت فترة طويلة بين عامة الشعب، «والاعتقاد الشائع بين العامة أن السيد ظل ينقذ الأسرى بعد مماته إلى عصر متأخر، وأنه لم يكف عن ذلك إلا بطلب من المرحوم محمد سعد الدين باشا الذى كان مديرا للغربية(٢٧).

(٢٢) كتاب السيد البدوى: شيخ وطريقة للدكتور سعيد عاشور ص ٦.

(٢٣) تلميذ أحمد البدوى الذى ظل يلازمه طوال حياته ثم أصبح خليفته بعد وفاته.. وهو الذى نظم الطريقة البدوية.

(٢٤) طبقات الشعرانى ص ١٦١.

(٢٥) طبقات الشعراوى ص ١٦١.

(٢٦) كرامات الأولياء للنبهانى ص ٣١١.

(٢٧) كتاب السيد البدوى أو دولة الدراويش ص ٦١ للاستاذ عبد اللطيف فهمى نقلها عن بحث للشيخ مصطفى عبد الرازق عن السيد البدوى.

ويقول الأستاذ عبد اللطيف فهمي: «ويبدو لى أن مسألة الأسرى هذه، ترجع إلى واقعة تاريخية مشهورة، ذلك أن وزارة الأوقاف قد أرسلت بالسيوف والدروع التى غنمها الجيش المصرى من جيش لويس التاسع، الذى أسر فى دار ابن لقمان بالمنصورة لتخزن فى مخزن المسجد الأحمدى، فكان دراويش السيد وأتباعه يتقلدون هذه الدروع والسيوف فى مواكب الأحمدية، ويزعمون للناس أنهم الأسرى الذين جاء بهم السيد من بلاد أوربا، فلما تقدمت الأيام انتقلوا بهذا الزعم نقلة ثانية، فقالوا: إنهم سلائل أولئك الأسرى، والعجيب فى هذا كله أن تترك الحكومة المصرية هذه الدروع والسيوف التاريخية نهبا للضياع فى أيدى أولئك المعتوهين»(٢٨).

ويبدو لنا أن الأتباع من كتاب المناقب قد وقعوا فى حب شيخهم، وجعلهم هذا الحب الغريب يشتطون فى خيالهم، فهاموا فى الأسطورة ينسجونها ويحيكونها حول شيخهم، متصورين أن تهويل كرامة الشيخ إجلال له.

ونحن كما ذكرنا من قبل لا ننكر الكرامة، وإنما نقول: إن هناك تزيدا فى بعض الكرامات، ومبالغات كثيرة وإضافات... أما الكرامات فى حد ذاتها فلا سبيل إلى إنكارها لأنها ليست منسوبة إلى قدرة الولى وإنما هى منسوبة إلى قدرة الله. ولا حرج على منن الله وإكرامه عباده وأولياءه الصالحين.

لكن يبدو أن هدف البعض «من المبالغة فى هذه الكرامات هو: إظهار السيد أحمد البدوى فى صورة قطب الأقطاب، وولى الأولياء، وكبير الصالحين والعباد، فمن أراد قضاء حاجة فلا داعى لإضاعة الوقت والجهد فى الطواف على صغار المشايخ، وإنما عليه بالتوجه إلى مقام السيد أحمد البدوى مباسرة، وبقدر المدفوع يكون الأجر والثواب(٢٩).

إننا لا نهتم كثيرا بالكرامات الحسية، وإنما نرى أن أكبر كرامة لولى من أولياء الله تعالى هى أن يأخذ العهد على مريده بالتوبة والرجوع إلى الله وسنة رسول ﷺ، فإن استطاع الولى أن يأخذ العهد على أكبر عدد من الأتباع المخلصين، وأن يعملوا بهذا العهد، فإنه يكون حقا قد حقق أعظم كرامة فى طريقه.. طريق الله تعالى.

يقول فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود: «إن كرامة السيد الكبرى هى أنه ربى رجالا، وكون أبطالا مجاهدين فى سبيل الله.، إن مدرسة السيد منذ أنشأها فوق السطح لا تزال تعمل، وقد افتتحت لها فروع فى جميع أنحاء العالم، وفى كل جيل من الأجيال، يهتدى بسبب دعوته آلاف الأسخاص، فى مختلف المستويات(٣٠).

---

(٢٨) المرجع السابق ص ٦٢

(٢٩) السيد أحمد البدوى للدكتور سعيد عاشور ص ١٤٦.

(٣٠) السيد أحمد البدوى: للإمام الدكتور عبد الحليم محمود ص ٣٤.

ثالثا – البدوى والتشيع:

يرى بعض الكتاب أن البدوى كان داعيةً للشيعة والفاطميين فى مصر. وأنه جاء لهذه البلاد تحت ستار التصوف، وتأسيس طريقة صوفية، وإن كان فى الحقيقة يحمل بين جنبيه أغراضا وخططا علوية لم يفصح عنها ولم يستطع أحد كشفها، فيقول مثلا الأستاذ الكبير المرحوم أحمد أمين فى ضحى الإسلام: «... لكن الرجل كان ذكيا فطنا، فقد جاء إلى مصر وافدًا غريبًا وهو يعلم ما يساور نفوس الأيوبيين الذين يحكمون البلاد من الريبة فى كل حركة تتراءى لهم، حتى لا تكون مؤامرة لإعادة سلطان الفاطميين، فماذا يقولون فى شيخ غريب وافد من مكة، وصلته معروفة بالمغرب الذى هو الوطن الأول للدعوة الفاطمية؟ وقد جاء إلى مصر ليرث شيخًا صوفيا[٣١] فى دعوته، ويزيد فى جمع الأتباع والمريدين على طريقته، وأكثر من ذلك فقد كانت الإسكندرية يوم ذاك كما كانت جميع الثغور تحت مراقبة الحكام ومجال عيونهم وأرصادهم احتياطا لما يقع عليهم من الإغارات الصليبية، ويقظة لما يجرى فى تلك الأطراف من منازعات واتجاهات ودسائس، وكان السيد البدوى يعرف هذا، وكان الرجل يؤثر السلامة فى دعوته ويأخذ لها طريق الإرشاد والهداية حتى تختمر وتخالط النفوس عقيدة راسخة ثابتة، وكان من أهل التقية فيما يرى من رأى، وفيما يسعى إليه من غرض، وتلك كانت وجهة العلويين وخطتهم التى آثروها فيما يرومون من شأن، ولهذا كله آثر السيد فيما يبدو أن ينفرد فى طنطا، وأن يتخذها دار إقامة، وأن يجعلها قاعدة لدعوته وأتباعه، حتى يكون بعيدا عن أنظار أهل السلطان، وحتى يكون فى موضع وسط من البلاد[٣٢].

ومثل هؤلاء الباحثين الأفاضل، يرون أنه تحت ستار التصوف أرسل العلويون دعاتهم، ويرون أن أستاذهم الأكبر هو أبو الفتح الواسطى تلميذ سيدى أحمد الرفاعى، فها هو فضيلة الشيخ مصطفى عبد الرازق يكتب مقالا فى، «السياسة الأسبوعية»، عن الموالد الأحمدية يقول فيه «كان الشيخ أبو الفتح الواسطى داعيا خطيرًا، تتلمذ على السيد أحمد الرفاعى، وكان من نجباء تلك المدرسة التى أقامها ذلك الصوفى الكبير فى بطائح العراق، وقد شام فيه العلويون ودعاة أهل البيت نجابة وفطنة وصبرا، يؤهله لحمل راية الطريق، فندبوه للسفر إلى الديار المصرية، فوفد على الإسكندرية من واسط عام ٦٢٠ هـ، ليدعو القوم على الطريقة الرفاعية، واستطاع الواسطى أن يؤلف حشدًا من الأتباع والمريدين، ثم عاجلته المنية وهو فى ريعان مجده، فأسف العلويون على الفجيعة فى ذلك الداعية البارع، الذى خدم دعوتهم بصدق وإخلاص ومهد لها الطريق على ما يريدون فى الديار المصرية، وكان عليهم أن يدبروا فيمن ينهض بهذا الأمر من بعده، فندبوا السيد أحمد البدوى لما توسموا فيه من براعة واقتدار وخبرة بمداخل الطريق»[٣٣].

---

(٣١) يقصد أبا الفتح الواسطى

(٣٢) ضحى الإسلام الجزء الثالث ص ٢٤٦ للاستاذ أحمد أمين.

(٣٣) ذكر هذا المقال الأستاذ عبد اللطيف فهمى فى كتابه عن «السيد البدوى ص ٤٥ نقلا عن مجلة السياسة الأسبوعية سنة ١٩٢٧ م

لكن البدوى عاش فى مصر قرابة أربعين عامًا، وخلال الأربعين عاما هذه لم يستطع أحد أن يكتشف أن له أغراضًا علوية، أو أنه كان من دعاة الشيعة فى مصر.

إن أربعين عاما فى حياة فرد من الممكن أن تميط اللثام عن صاحبها، مهما كان ملثمًا وغامضًا.

ويبدو لنا أن الذى دفع هؤلاء الباحثين الأفاضل إلى اعتبار البدوى من دعاة الفاطميين، أو أنه كان جاسوسا للفاطميين فى مصر هذه الأسباب التى يعتقدون أنها تؤكد فاطمية البدوى وتشيعه. وهى:

١ – اتفاق المؤرخين على أن من أجداده تسعة من الأئمة الاثنى عشرية[٣٤].

٢ – تلمس نظرية تنقل النور المحمدى عند سيدى أحمد البدوى، فيرى البعض أن السيد البدوى[٣٥] هو أول من قال بنظرية تنقل النور المحمدى، وعبر عنها فى سعره، كما يبدو ذلك جليا فى تائيته التى مطلعها:– (دعنى لقد ملك الغرام أعنتى)[٣٦] ويقول عنها: إنها «نظرية لاتختلف فى شىء ذى بال عن النظرية الأساسية لحزب الشيعة وطوائف المتشيعين، وأعنى بها مسألة الإمامة، فالشيعة كلهم مجمعون على أن الإمام الشرعى بعد النبى ﷺ هو على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وأن الإمامة تنتقل بعده فى بنيه وذريته على خلاف بين فرق التشيع، إذ ذهب بعضهم إلى أن الإمامة انتقلت إلى محمد بن الحنفية، وبعضهم قال إنها انتقلت إلى الحسن، ومن بعده حلت فى الحسين، وظلت فى أبناء هذا الأخير، وهى لا تزال كذلك فى اعتقادهم تنتقل من سلف إلى خلف بالعهد والمبايعة حتى يجىء قائم، أو القيامة، أو يظهر المهدى المنتظر[٣٧].

ويقول نفس الباحث: «وهذا هو نفس ما وجدناه عند شيوخ الخرق فإنهم يأخذون الخرقة، والقطبانية من شيخ عن شيخ، ومن قطب عن قطب، بالعهد والمبايعة، ولكن الخلاف فقط راجع إلى رأس السلسلة، فالشيعة قد انتسبوا إلى الحسين، أما المتصوفة فإنهم نسبوا القطبانية فى أول وجودها إلى الحسن»[٣٨].

ويبدو أنه نسى أن الحقيقة المحمدية بدأ التعبير عنها فى نهاية القرن الثانى الهجرى، وقد تجلت بصورة واضحة لدى التسترى[٣٩].

ولهذا فيحسن بنا أن نقف هذه الوقفة لعرض نظرية تنقل النور المحمدى للتسترى، وإلقاء الضوء عليها، ففيها إيضاح تفصيلى للحقيقة المحمدية[٤٠].

---

(٣٤) ذكرناهم حين الحديث عن: من هو البَدوى فى أول هذا المبحث.

(٣٥) مثل الدكتور على صافى كتاب الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى ص ٣٩.

(٣٦) نص القصيدة بملحق الشعر.

(٣٧) كتاب الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى ص ٢٩.

(٣٨) المرجع السابق ٣٤.

(٣٩) مع ملاحظة أن الخوانسارى يتهم سهلا بعدم أخذه من الشيعة.

(٤٠) اعتمدت اعتمادا كاملا فى عرض آراء التسترى حول الحقيقة المحمدية على كتاب «من التراث الصوفى: سهل بن عبد الله التسترى» الجزء الأول للدكتور محمد كمال جعفر ص ٢٩٦ وما بعدها.

يقول التسترى فى خلق النبى ﷺ: «لما أراد (الله) أن يخلق محمدا ﷺ أظهر من نوره نورا، فلما بلغ حجاب العظمة سجد لله سجدة.. فخلق الله من سجدته عمودًا عظيمًا كالزجاج من النور - أى باطنه وظاهره فيه عين محمد ﷺ، فوقف بين يدى رب العالمين، بالخدمة ألف ألف عام بطبائع الإيمان وهى معاينة ومكاشفة اليقين ومشاهدة الرب، فأكرمه الله تعالى بالمشاهدة قبل بدء الخلق بألف ألف عام، وما من أحد فى الدنيا إلا غلبه إبليس - لعنه الله - فأسره الأنبياء صلوات الله عليهم والصديقون الذين شاهدت قلوبهم إيمانهم فى مقاماتهم، وعرفوا اطلاع الله عليهم فى جميع أحوالهم، فعلى قدر مشاهدتهم يعرفون الابتلاء، وعلى قدر معرفتهم الابتلاء يطلبون العصمة، وعلى قدر وفاقهم إليه يعرفون العز والنفع، ويزدادون علمًا وفهمًا ونظرًا... ما حمل الله على أحد من الأنبياء ما حمل على نبينا محمد ﷺ من الخدمة. وما من مقام خدمة الله تعالى بها من ولد آدم عليه السلام إلى بعث نبينا محمد ﷺ إلا وقد خدم الله بها نبينا محمدًا ﷺ.

وتسجل بعض المراجع أن التسترى تلقى عن الخضر عليه السلام أن النبى محمدًا ﷺ قد خلق من نور الله وبيده صور، وقد ظل هذا النور فى حضرة الله مائة ألف من السنين، وفى كل يوم يضفى عليه من ضيائه وبهائه، المزيد والشرف. وأن من هذا النور خلقت جميع الأسياء، ويؤكد التسترى فى مقام آخر: أن نور النبى ﷺ شامل وكلى، وأن أنوار جميع الأنبياء مشتقة منه، كذلك أنوار الملكوت فى الدنيا والآخرة، إن الله سبحانه، خلق محمدًا لأجله، وخلق آدم لأجل آدم ذاته، وخلق المؤمنين لعبادته، وخلق الأسياء لأجل ابن آدم، هكذا يحدثنا التسترى ذاكرًا حديثًا نبويًّا، لا يخلو من التساؤل حول ما أوحى لداود بهذا الشأن، ويضيف التسترى إلى ذلك قوله. فإذا اشتغل (الإنسان) بما خلقته من أجله حجبته عما مَن خلقته من أجلى. أى حجبته عن حقيقة النبى ﷺ، إن هذه الحقيقة هى التى بدأ الله بها الأسياء وهى التى يختم بها.

ومن أجل ذلك كان الرسول خاتم الأنبياء، فحقيقة النبى هى ألف وباء الخلق والوجود، وأن اسم النبى ﷺ مكتوب كما يذكر التسترى - على كل ورقة شجر فى الجنة، ولم تغرس شجرة إلا باسمه أو على شرفه.

ويستند كثير من الصوفية فى تأييد فكرة أسبقية الوجود المحمدى لوجود الكائنات، على بعض الأحاديث التى لم تسلم من الشك والتجريح، مثل حديث «كنت نبيا ولا آدم ولا طين ولا ماء»(٤١) وقد أنكر بعض الدارسين مثل هذه الأحاديث لما تؤدى إليه من فكرة قدم الرسول ولا قديم إلا الله سبحانه أى أنها تؤدى إلى فكرة تعدد القدماء، تلك الفكرة التى وقع فيها بعض الفلاسفة المسلمين أنفسهم، وأخذها عليهم الغزالى فى التهافت، ويشرح الغزالى الحديث السابق على أنه يعنى أنه كان مقدرا أن

---

(٤١) هناك أحاديث قريبة من هذا المعنى مثل «كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد» [ابن سعد عن عبد الله بن شقيق عن ابن أبى الجدى ابن قانع عن عبد الله بن شقيق عن أبيه.

رواه الطبرانى عن ابن عباس وابن سعد عن ميسرة. وحديث «كنت أول الناس فى الخلق وآخرهم فى البعث» [ابن سعد عن قتادة مرسلا].

يكون النبى نبيا قبل الخلق، فالذى سبق الخلق هنا إذن هو التقدير والإيجاد، ولكن هذا التأويل لا يسلم من الاعتراض على أساس أن وجهة النظر الإسلامية تقضى بأن يكون كل سىء قد سبق العلم به والتقدير له، وإذن فلا معنى لاستثناء الرسول وخصه بهذا السبق وذلك التقدير.

وفكرة التسترى فى أسبقية الوجود المحمدى على الخليقة، لا تعنى بالضرورة قدمه، لأن التسترى قد أسار إلى فترة العبادة بحد وقدر معين، مما يتعارض تماما مع فكرة الفدم، ثم أنه بالإضافة إلى ذلك أشعرنا بأنه لما تعلقت الإرادة بالإيجاد أوجد هذا النور، وكل ذلك يوحى بلا شك بوجود مرحلة تسبق هذا الوجود مما يتعارض أيضا مع فكرة القدم، لأنه حينما وجدت صفة القدم انتفت فكرة الماضى والمستقبل.

والنظرة المنصفة – كما يقول الدكتور جعفر – لا تستبعد استيحاء التسترى لبعض الآيات القرآنية التى تصف الرسول ﷺ بأنه نور وبأنه سراج منير، خاصة وأن التسترى نفسه يعلق على الآية القرآنية ﴿.. **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين**﴾[٤٢] بقوله: «إن النور هو محمد ﷺ، والكتاب هو القرآن. وهذا تفسير لا تكلف فيه ولا سطط، كما أنه لا يستبعد أن يكون التسترى استوحى الآية القرآنية ﴿**قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين**﴾* سواء كان المعنى فأنا أحق بأن أكون أول العابدين لهذا الولد على فرض وجوده، تنزه الله عن ذلك، أو الأولى أن أكون هذا الولد لأننى أول العابدين، فالآية على أية حال مهما كانت فى مجال الفرض، تشير بما لا يدع مجالا للشك إلى رتبة النبى، وأولويته سواء كان ذلك على سبيل التكريم الإلهى، أو الاعتراف المحمدى بالمسئولية العظمى بناء على مقامه الجليل.

ويتابع الباحث الفاضل نظرية الحقيقة المحمدية فيقول: «ولا جدال فى أن وصف النبى ﷺ بأنه نور أو سراج شمس، إنما هو مستمد من القرآن مباشرة لا سيما إذا لاحظنا أن التسترى يعتمد تماما على الآية القرآنية.. ﴿**قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين**﴾ وعلى الآية الكريمة ﴿**يـأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا مُنيرًا**﴾[٤٣] فيذكر التسترى بالنسبة للآية الأولى أن الله سبحانه تحدث عن سيئين جاءا إلينا:

أولهما – النور.

وثانيهما – الكتاب، والكتاب هو القرآن، فلم يبق إلا أن يكون النور هو محمد ﷺ.

وإذا كانت حقيقة النبى فى خالص جوهره نورا محضا، فإن هذه الحقيقة مستورة ومنطوية عن هؤلاء الذين غلظت أكنة قلوبهم، وحبست أنفسهم وغلظت طباعهم وأعمتهم ماديتهم عن إدراك هذا النور، أو الانتفاع به.

---

(٤٢) سورة المائدة. آية ١٤. (٤٣) سورة الأحزاب. الآيتان ٤٤، ٤٥.

* سورة الزخرف – آية ٨١.

وبعد ذلك كله لا يغفل التسترى حقيقة أن الأنبياء قد أخذ عليهم الميثاق بأن يخدموا الغاية الإلهية من الرسالة بتأييد جوهرها المتمثل فى رسالة محمد ﷺ. وهو يذكر الآية القرآنية الكريمة ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين**﴾(٤٤).

ثم يقول الدكتور جعفر: إننا لا نجاوز الحقيقة إذا قلنا: إنه بصرف النظر عن بعض العناصر الغنوصية التى قد تكون تسربت فى تراث التسترى، فإن التسترى لم يكن يستوحى فى الحقيقة المحمدية إلا الحب الفياض للرسول، وبعض النصوص الإسلامية، فهو الذى يقول: من لم ير نفسه فى ملك الرسول ﷺ ولم ير ولاية الرسول ﷺ فى جميع الأحوال لم يذق حلاوة سنته بحال، لأن النبى ﷺ هو أولى بالمؤمن، والنبى ﷺ يقول (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين).

هذه هى فكرة الحقيقة المحمدية فى جوهرها، منذ أن عبر عنها التسترى فى نهاية القرن الثانى الهجرى.

ومن العجيب أن الخوانسارى اتهم التسترى بعدم أخذه من الشيعة.. أما بعض باحثينا فيرون غير ذلك، بل يصرون أنها فكرة شيعية تماماً، فهم يرون أن «كل ما بين أصحاب نظرية الحقيقة المحمدية، وبين مذهب الفاطميين من فرق لا يخرج عن الشكل والتسمية، فالمتصوفون يقولون قطب وقطبانية، والشيعة إمامة وإمام، وإن كان ثمة فرق جوهرى بينهما فهو راجع إلى أن الشيعة يجعلون الإمامة وقفاً على سلالة على، أما المتصوفة فإنهم لا يشترطون فى القطبانية أرومة ولا نسبا على الإطلاق، وعلى ذلك نستطيع أن نقول: إن الدسوقى والبدوى وغيرهما من شيوخ الخرق كانوا من قبل أن يتصوفوا متشيعين(٤٥).

هكذا حكم الباحث ببساطة على شيوخ الخرق بالتشيع لمجرد قولهم بالقطب والقطبانية.

ومع أننا قد نجد فى بعض أقوال سيدى أحمد البدوى، ما يوحى بالقول بالقطبانية مثل قوله فى إحدى وصاياه لتلميذه عبدالعال: «يا عبدالعال. تأدب مع المشايخ، واعلم أن منزلة الشيخ فى قومه كمنزلة النبى فى أمته(٤٦)، لكن هذا لا يجعلنا نغالى فى الأمر مغالاة زائدة، فنتهمه بأنه كان يبطن التشيع، فنحن لا نقول بمثل ما قاله هؤلاء العلماء الأجلاء بأنه كان داعية للشيعة، وأنه كان جاسوساً فاطمياً، وإنما أخفف من غلوائهم، وأقول لهم: إن صاحب الطريقة البدوية قد نتلمس فى طريقته آثاراً وصلات شيعية، لكن هذه الآثار لا تصل به أبداً لأن يكون داعيةً أو جاسوساً فاطمياً.

---

(٤٤) سوره آل عمران: الآية ٨١

(٤٥) الأدب الصوفى فى مصر للدكتور صافى ص ٣٥، ٣٦.

(٤٦) الجواهر السنية والكرامات الأحمدية: لعبد الصمد زين الدين ص١٠٠.

ولقد دافع فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه عن السيد البدوى دفاعا حاراً، وحاول أن يفند تهمة الفاطمى التى ألصقها البعض به وقولهم بأنه كان جاسوسا فاطميا فى ضوء هذه الحقائق(٤٧):

أولا - لأن حياه السيد البدوى فى نفسها خلصت لله، لقد كان يصوم نهاره وكان إذا جن الليل، فإنه يقضيه فى قراءة القرآن، وكان منصرفا بكيانه كله إلى الهداية إلى الله، وإنسان هذه حالته لا يتأتى له أن يكون جاسوسا فاطميًّا.

ثانياً - ما كان يعجز الدولة الأيوبية أن تلقى بالسيد فى غيابة جب، أو فى أعماق سجن، بل وما كان يعجزها إعدامه، أو إخراجه من البلاد لو شمت فيه ولو من بعد رائحة الجاسوسية للفاطميين.

ثالثاً - لم يلاحظ شخص ما من المحيطين بالسيد أنه ذكر الفاطميين أو دعا إليهم، أو تحدث عن أيامهم أو ذكرهم على أى وضع من الأوضاع.

وأنا أود أن أكرر ما قلته: لقد عاش سيدى أحمد البدوى فى مصر قرابة أربعين عاما كاملة.. وأعتقد - كما قلت - أنه لا يستطيع إنسان مهما أوتى من قدرة على التستر، والغموض أن يظل أربعين عاما دون أن يفصح عن حقيقة نياته.

ومن ناحية أخرى أستطيع أن أقول بلا مواربة إن سيدى أحمد البدوى صاحب الجذور العلوية العريقة نسباً ودماً وأنه لو حدث أن قامت على أنقاض الدولة الأيوبية - التى أنهت وجود الفاطميين فى مصر - دولة فاطمية وليست دولة المماليك لكان البدوى أول من يؤازر هذه الدولة.

ذلك أن السيد البدوى، كان يؤكد على نسبه العلوى الشريف، ولهذا فإن أهم ما أحضره معه حين قدم إلى مصر سلسلة نسبه الشريفة.. وهذا لا يعنى - بالطبع - أنه كان للبدوى أهداف سياسية، فالحق أن كل الدلائل تشير إلى أنه كان رجلاً صامتاً معظم حياته، صائماً نهاره قائماً ليله، ورجل كهذا ينبغى أن يكون فى سلام مع نفسه ومع من حوله، ولا يستطيع أن يحقق ذلك إلا إذا بعد عن السياسة والحكم.

أما عن صلة الظاهر بيبرس بالبدوى، فقد فندنا من قبل قصة استقبال بيبرس للبدوى حين قدم إلى مصر على أساس أن الملك الظاهر لم يكن قد تولى حكم مصر بعد، على نحو ما بينا، لكن الظاهر بيبرس على أية حال كان معاصرا للبدوى فقد تولى حكم مصر سنة ٦٥٨ هـ وقد عاش البدوى فى الفترة ما بين سنة ٦٣٥ هـ وسنة ٦٧٥ هـ.

والظاهر أن بيبرس كان ممن يعتقدون فى الأولياء والكرامات، فكان ممن يحرصون على زيارة الأحياء منهم، وكذا قبور الأموات منهم.

ومن المحتمل أن يكون الظاهر بيبرس استقبل الشريف حسن شقيق البدوى، حين قدم مصر لزيارة شقيقه البدوى كرد من الظاهر على الحفاوة التى استقبل بها من الشريف حسن حين ذهب

(٤٧) كتاب السيد أحمد البدوى للإمام الأكبر الدكتور عبدالحليم محمود ص٣٠، ٣١.

للحج، يقول الشريف حسن «.. سافرت إلى مصر، وكان قد خرج معنا أربعون سيدا من أشراف مكة والمدينة مشتاقين إلى رؤية أخى أحمد، فلما وصلنا إلى مصر نزلنا بقلعة الجبل، بالقرب من المدينة فلما علم الملك الظاهر بقدومنا، أرسل الأمراء لملاقاتنا فلما وصلوا سلموا علينا ثم جلسوا، إذا بالملك الظاهر قد أقدم ومعه الحجاب والنواب فقام له جميع الأمراء وكل من كان حاضرا، فنزل وعانقنى وضمنى إلى صدره ثم قال: باسم الله سيروا معى إلى قصرى»(٤٨).

الحق أن السيد البدوى لم يكن له فى مصر أهداف سياسية، وإنما كان رجلا «وهب نفسه لله، ملتزما أمرين لم يتخل عنهما طيلة حياته: أحدهما مجاهدة نفسه بالعبادة والزهد والتقوى، والثانى هداية الناس على أساس من الكتاب والسنة»(٤٩).

هذه هى الصورة التى ينبغى أن نضع فيها السيد البدوى بلا تعصب أو تحزب، وإلا بماذا نفسر اتباع كل هؤلاء الآلاف من المسلمين لطريقته، لقد انضم لهذه الطريقة عدد من أكبر عقلاء الأمة والنابهين، لأنهم يعلمون أن فى اتباع الطريقة تربية واصلاحاً للنفس والروح، يكفى ذلك العهد الملزم بين الشيخ ومريده على الاستقامة وإصلاح وإعلاء الروح وذلك بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

يقول البدوى نفسه عن طريقته: «هذه طريقتنا مبنية على الكتاب والسنة والصدق والصفاء، وحسن الوفاء، وحمل الأذى، وحفظ العهد»(٥٠) ووصفه فولرز Volers «بأنه أكبر أولياء مصر، ومحل تقديس أهلها منذ قرون»(٥١).

لقد كانت غايته.. هى غاية الطريق الصوفى: وهى «غاية خلقية تتمثل فى إنكار الذات والصدق فى القول والعمل والصبر والخشوع ومحبة الغير والتوكل وغير ذلك من الفضائل التى دعا الإسلام إليها»(٥٢).

إن غاية الطريق الصوفى هى: الله تعالى ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾* ﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾**.

لقد كان تصوف البدوى هو التصوف الإسلامى المعتدل الذى يهتم بالجانب الخلقى العملى.

---

(٤٨) كتاب النفحات الأحمدية لعبده حسن رائد المشهدى ص ٢٥٢، ٢٥٣.

(٤٩) كتاب السيد البدوى للإمام الأكبر الدكتور عبدالحليم محمود ص ٢٤، ٢٥

(٥٠) كتاب الجواهر السنية لعبدالصمد زين الدين ص٥٦.

(٥١) الموسوعة الإسلامية مادة البدوى. ص ٤٦٧.

(٥٢) بحث الطرق الصوفية للدكتور أبو الوفا التفتازانى.

* سورة النجم : آية ٤٢.

** سورة آل عمران: الآيتان ١٦٢ – ١٦٣.

البدوى.. تراثه وآثاره:

لم يترك السيد البدوى مؤلفات، أو كتبا مدونة، فلم يذكر المناوى شيئا من شعر البدوى، ولكنه قال: ينسب إليه شعر، وهو على كثرته ملحون، وقد نسب إليه عبدالصمد زين الدين أسعاراً عديدة بكتابه الجواهر، قال عنها: إنها منسوبة بعضها إليه بلسان الحال والآخر بلسان المقال، «ولأن معظمها من الشعر الضعيف الذى لا نستطيع أن ننسبه إلى حال، أو مقال، فإننا نشك فى نسبتها لسيدى أحمد البدوى..

ويتمثل تراثه الأدبى فى وصاياه لتلميذه عبدالعال، وهى وصايا عامة من أستاذ لتلميذه، وتنسب إليه أيضا صلاتان وحزبان(٥٣) حقيقة أنه لم يكن لسيدى أحمد البدوى تراث فكرى كبير، ولكن أجمل أثر تركه هو الهداية، فقد أخذ السيد البدوى العهد على مريدين كثيرين هداهم إلى طريق النور، وبايعوه على التوبة والعمل الصالح، والعمل بكتاب الله وسنة رسوله، وهذا أعظم أثر تركه شيخ فى نفوس مريديه.

طنطا.. ومولد سيد أحمد البدوى:

يعتبر مولد سيدى أحمد البدوى أكبر موالد مصر قاطبة(٥٤)، ولقد زاد فى شهرة طنطا مقام سيدى أحمد البدوى بها حيث سيد هناك أكبر مساجدها الذى يقول عنه على باشا مبارك فى خططه: «إنه لا يفوقه فى التنظيم وحسن الوضع والعمارة من المساجد إلا قليل»(٥٥).

ولقد كان لمقام سيدى البدوى تأثير شديد جدًّا فى ربط الأقاليم المصرية بعضها ببعض: فقد كان كثيرٌ من أهل الصعيد لا يرون القاهرة ولا يعرفون شيئا عن مصر الشمالية إلا بمناسبة مولد السيد البدوى(٥٦).

ولقد ترتب على وجود مقام سيدى أحمد البدوى بطنطا إقامة صندوق النذور بمسجده، وحصيلة هذا الصندوق يأخذ بعضها خلفاء طريقته، والبعض الآخر يصرف على توسعة وإصلاح المسجد ثم ترتب على ذلك أيضا تلك الأوقاف الضخمة التى أوقفت باسم السيد أحمد البدوى.

فروع الطريقة البدوية:

بعد وفاة سيدى أحمد البدوى، وانتشار تلاميذه فى كل مكان، تفرعت الطريقة البدوية إلى ست عشرة طريقة. وهى:

---

(٥٣) انظر صلوات سيدى أحمد البدوى وحزبه الصغير والكبير بملحق النصوص.

(٥٤) اعتاد المصريون على الاحتفال بمولده الكبير فى ليلة آخر أربعاء من شهر ذى الحجة من كل عام.

(٥٥) الخطط الجديدة لـ على باشا مبارك الجزء ١٣ ص ٤٦ .

(٥٦) التصوف. للمرحوم الدكتور زكى مبارك جـ١ هامش ص ٣٨٩.

المرازقة، الكناسية، الأنبابية، المنايفة، الحمودية، السلامية، الحلبية، الزاهدية، العنيبية، البيومية التسفانية، السُناوية العربية، السطوحية، المسلمية البندارية، وهذه الفروع تسير فى نهجها على طريقة البدوى، فيتلوا أهلها أحزابه وصلواته ويتدارسون تعاليمه ووصاياه.

الطريقة البدوية وكيفية المتابعة عليها:

تقوم الطريقة البدوية على لبس الخرقة، من شيخ عن شيخ، والعهد بها والمبايعة، والخرقة البدوية خرقة حمراء.

قال البدوى يوصى تلميذه الكبير عبدالعال: (يا عبدالعال اعلم أنى اخترت هذه الراية الحمراء لنفسى فى حياتى وبعد مماتى، وهى علامة لمن يمشى على طريقتنا من بعدى، قال: فقلت له يا سيدى فما شروط حملها، قال: من شروطه أن لا يكذب ولا يأتى بفاحشة، وأن يكون غاض البصر، عن محارم الله تعالى طاهر الذيل، عفوف النفس، خائفاً من الله تعالى عاملاً، بكتاب الله تعالى ملازماً للذكر دائم الفكر[٥٧].

ويقول ابن عبد الصمد: (اقتدى أحمد البدوى بجده رسول الله ﷺ فى لبس الحلة الحمراء، روى عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ كان له حلة حمراء يلبسها فى الأعياد والجمع[٥٨].

ذكر صاحب النفحات الأحمدية وصاحب الجواهر السنية[٥٩]، أن الشيخ يونس بن أزبك الصوفى ذكر كيفية المبايعة على الطريقة البدوية فقال: اعلم أن المبايعة بالقدوة، ومعناها الإرادة والتسليم من المريد، أما المراد هنا فهو الله سبحانه وتعالى، وتكون المبايعة على طاعته ومحبته لا على شىء من أمور الدنيا مطلقا، فإذا اختار المريد، فحينئذ يجب على الشيخ الواصل الموصل للمريدين أن يسأل عن حال المريد، ثم يقول له: ما مرادك يا أخى فإذا قال له جئت إليك يا أستاذى لتعهد إلى بالقدوة، وتسلكنى بتسليك العارفين فيقول له الشيخ: أنت اخترتنى من دون الناس، لأكون دليلك على الخير، فأنا لا آمرك إلا بالمعروف ولا أنهاك إلا عن المنكر، وسأكون لك بعون الله تعالى عوناً على المعرفة والعلم الشريف النافع، لعل الله سبحانه وتعالى أن يعلمنا وإياك علماً نافعاً، وأن يجعل لنا من فضله قلباً خاشعاً، ونوراً فيه ساطعاً، وأن يرزقنا من بحر كرمه رزقاً واسعاً، وأن يفتح علينا فتحاً ربانيًّا، وإلهاماً صمدانيًّا، وأن يحفظنا من إبليس وجنوده وأعوانه النفس والهوى والغرور والباطل، وأن يشفينا من كل داء لكى نخدمه ونوحده على الدوام، متوسلين إليه بجاه حبيبه سيدنا محمد ﷺ، صاحب الجاه العظيم ثم يقول: وأنت يا ولدى اخترت لنفسك الدخول فى رقعة سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه، وأن يكون شيخنا شيخ الشيوخ أنس بن مالك صاحب رسول الله ﷺ رضى الله تعالى عنه، (وكلهم من رسول الله ملتمس)، ورضيت بأن يكون لى سميعاً مطيعاً محبًّا لى ولإخوانك، فإذا أجاب المريد عن هذا

---

(٥٧) الجواهر السنية لابن عبدالصمد زين الدين ص ١٤٦ والخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك جـ١٣ ص ٤٩

(٥٨) الجواهر السنية لابن عبدالصمد زين الدين ص ٣٨.

(٥٩) اعتمدنا فى كتابة كيفية المبايعة على الطريقة الأحمدية على كتاب النفحات الاحمدية للمشهدى من ص ١٦٧ : ١٧١ وكتاب الجواهر السنية لعبد الصمد زين الدين من ص ٦١ : ٦٤ .

كله وقال: نعم يا أستاذى وعمدتى وملاذى، قال الشيخ حينئذ قبلتك، قبلتك يا أخى فى الله تعالى من الأحباء، ثم يأمره الشيخ بالوضوء، وأن يصلى أولا ركعتين بنية التوبة لله عن جميع الذنوب، والخطايا سهواً أو عمداً، خفية وجهراً لخبر: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» ثم بعد السلام يأمره الشيخ بأن يقول بنية خالصة لمولاه المطلع على ظاهره وخافيه، تبت إلى الله توبة نصوحاً، وندمت على ما فعلت، وعزمت على أن لا أعود لمثلها أبدا، وأشهد الله وجميع خلقه على ذلك، وأسأل الله الكريم بجاه سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وذريتهم من الصالحين أجمعين، أن يتقبل منى توبتى، ثم يقول له الشيخ: قل[٦٠]: الله معى، الله ناظر إلىّ الله شاهد علىّ (أى فى جميع حركاتى وسكناتى كلها، ثم يقول للمريد: إنك يا ولدى ما دمت تلاحظ تفسير هذه الكلمات، على الدوام ملازمة اذكرها كل يوم عقب كل صلاة فرض أو نفل عشر مرات يصحح الله توبتك وتكون من التائبين المخلصين، ويرى الشيخ أن الله سبحانه وتعالى هو التواب على عباده فى الحقيقة، وإنما هو واسطة بين عبده فقط، فإن الله سبحانه وتعالى جعل لكل شىء سببا، سبحانه مسبب الأسباب، ومجرى السحاب، وجعل الشيخ سبباً ظاهراً لأجل تسليك - أى توصيل - المريد إلى معرفة طريق القوم الموصل إلى محبة الله وملائكته وكتبه ورسله وإخوانه فى الله أجمعين.

ويستحب للمريد من طلبة العلم النافع، أن يصلى لله سبحانه وتعالى، قبل الوصول بالعهد صلاة التوبة المذكورة فى المطولات، وصفتها أن يقوم المريد مبتغيًا الوضوء الظاهر والباطن، وهو أن يقول عند غسل الوجه: أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلاّ هو الحى القيوم وأتوب إليه، وأسأله التوبة والمغفرة والنجاة من النار، توبة عبد ظالم لنفسه معترف بذنبه لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا (ثلاث مرات)، وبعد ختم الوضوء ودعواته المذكورة بكتب الفقه، يقرأ آية الكرسى مرة، وإنا أنزلناه فى ليلة القدر (ثلاثا)، ثم يقول: أستغفر الله العظيم ألفا فى آلاف فى آلاف، وأسألك اللهم ألطافا فى ألطاف فى ألطاف، اللهم بالبيت، والمحراب، وقبر نبيك سيدنا محمد ﷺ أن تلطف بى فيما سطرته عَلىّ فى أم الكتاب، يا كريم، يا تواب، يا مجيب، يا وهاب، ثم يصلى على النبى ﷺ بما يلهمه الله من الصيغ عشر مرات، فهذا وضوء الخواص، فاختر لنفسك ما يحلو.

وأما صفة صلاة التوبة فهى أن يقوم مستقبلاً للقبلة فيقول: أصلى لله تعالى خالصًا مخلصًا ركعتين صلاة التوبة. الله أكبر.

ثم يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك وتعالى جدك، ولا إله غيرك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، ويقرأ الفاتحة، وسورة إذا جاء نصر الله والفتح. وفى الثانية الصمدية ثم بعد السلام منها، يقول: أستغفر الله العظيم لى ولوالدى ولأصحاب الحقوق على، وللمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات، إنك سميع قريب مجيب الدعوات، يقول ذلك سبعًا وعشرين مرة متوالية، ثم يقول دعاء التوبة ثلاث

(٦٠) ونفس الصيغة علمها محمد بن سوار (خال سهل التسترى للتسترى وهو طفل).

مرات، وهو هذا: اللهم صل على سيدنا محمد صلاة موصولة بالمزيد، وعلى آله وصحبه وسلم، اللهم تب علينا قبل مرض موتنا توبة ترضيك، وترضى بها عنا يارب العالمين، اللهم وفقنا لما يرضيك يا كريم، رب اغفر وارحم، وتب واعف ، وتجاوز عما تعلم، إنك سبحانك تعلم ما لا نعلم، إنك علام الغيوب، وأنت الأعز الأكرم برحمتك يا أرحم الراحمين، يا مجيب السائلين يا قابل التائبين، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه تسليمًا كثيرًا والحمد لله رب العالمين.

ثم يقوم المريد من مكانه الذى صلى فيه، ويدخل مع إخوانه حلقه الذكر لأجل تصفية قلبه للطريق الموصل لمحبة خالقه وأحبابه.

وبعد الانتهاء يجلس بين يدى شيخه، ويكون الشيخ مستقبل القبلة بالخضوع والخشوع والوقار، فإنه أمر عظيم، ثم يستغفر الله سبحانه وتعالى بهذا الاستغفار (أستغفر الله العظيم) الذى لا إله إلا هو الحى القيوم، وأتوب إليه، يقول ذلك ثلاث مرات، ثم يقول: وأسأله التوبة والمغفرة والنجاة من كل ذنب أذنبته عمدا أو خطأ، سرا أو علانية، وأتوب إليه من الذنب الذى أعلم به، والذى لا أعلم به، إنه هو علام الغيوب، وأسأله الجنة والنجاة من النار، اللهم إنى أسألك يا غفور يا عفو عن المذنبين، أن تغفر لنا ولجميع المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات، برحمتك يا أرحم الراحمين، يارب العالمين، ويقرأ فاتحة الكتاب ثلاث مرات، ويقول بين كل قراءة – شيء لله بعد البسملة والاستعاذة – يا سيدى وشيخى فى الله، يا سلطان الأولياء، يا سيدى أحمد يا بدوى، مدد لله يا ساداتنا، يا أشياخنا، فى القدوة، شيء لله يارسول الله، شيء لله يا سيدى يا رسول الله، شيء لله يا سيدى يا رسول الله، المقصود الله.

ثم بعد ذلك يضع المريد يده فى يد الشيخ، ويجعل إبهامه اليمنى على إبهام الشيخ اليمنى، ثم يقول الشيخ للمريد: اسمع ما قال الله تعالى فى العهد فإنه سبحانه وتعالى قال: **﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما﴾**(٦١). **﴿لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا﴾**(٦٢).

ثم يقول الشيخ: اسمع يا أخى هذا عهد الله بينى وبينك على الكتاب والسنة، ونحن إخوان فى الله تعالى، وفى رقعة قطب الزمان أبى العباس السيد أحمد البدوى رضى الله عنه، وقدوتنا شيخ الشيوخ أنس بن مالك رضى الله عنه، خادم رسول الله ﷺ، الناجى يأخذ بيد أخيه فى يوم القيامة، ونحن إن شاء الله تعالى من الآملين فى رحمة الله سبحانه وتعالى.

وبعد هذا يقول الشيخ فى سره: اللهم خذ منه، وتقبل منه، وافتح عليه أبواب كل الخير، كما فتحتها على أنبيائك وأوليائك، واجعلنى وإياه من المقبولين الفائزين من أحبابك، وأحباب حبيبك سيدنا محمد

---

(٦١) آية ١٠ – سورة الفتح.

(٦٢) آية ١٨ – سورة الفتح.

ﷺ، وعلى آله وصحبه وأهل بيته أجمعين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

ثم بعد ذلك يقوم المريد، ويدعو الله سبحانه وتعالى فى سره والشيخ وجميع الإخوان يؤمنون على دعواته، ويختم دعاءه بقوله جهرًا - إما هو إن كان يحفظه - أو يقول الشيخ نفسه، والحاضرون يؤمنون، وهو هذا: (يا مولانا يا مجيب أجب من يرجوك لا يخيب، توسلنا إليك بجاه سيدنا محمد الحبيب، أن تقضى حوائجنا قريب، هذا وقت الحاجات يا حاضر لا يغيب). ثم يقول الشيخ ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾*، ثم يقرأ الشيخ والحاضرون الفاتحة الشريفة، ويهبون ثوابها لأهل العهود ، ثم الفاتحة إلى شيخنا فى الدنيا والآخرة السيد أحمد البدوى رضى الله عنه، ثم الفاتحة إلى أرواح الأشياخ فى الطريق عموما، وأرواح أموات المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات أجمعين.

وهذه مفاتيح أوراد سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه، لكل يوم من أيام الأسبوع، كما أوصى ولده وخليفته سيدى عبد العال، فقال: له يا ولدى أوصيك بتقوى الله فى السر والعلانية، وعليك بملازمة السنة والجماعة فى كل وقت.

وبعد السلام من كل فرض، تقرأ آية الكرسى مرة، وسبحان الله ثلاثا وثلاثين مرة والحمد لله كذلك، والله أكبر كذلك أيضا، ولا إله إلا الله محمد رسول الله مرة واحدة، والاستغفار مائة مرة، والصلاة على النبى ﷺ مائة مرة، وتذكر الله ثلثمائة مرة، إن قدرت على تلاوة ذلك عقب كل فرض، كان مفتاح كل خير، وإن لم تقدر فعقب الصبح والعشاءين، وإلا كل يوم مرة ، وهى المفاتيح، وكذلك مداومة قراءة الفاتحة الشريفة كل يوم مائة مرة على الدوام، وإذا تأخرت عن التلاوة يوما تعيد ما فاتك كله وقت القضاء، فإن الأوراد مطلوبة من المريد، وكذا ملازمة صوم يوم الاثنين والخميس، واعلم أن صلاة ركعتين فى جوف الليل خير لك من صلاة ألف ركعة فى النهار.

وأما ورد يوم الأحد: فتقول عقب المفاتيح السابقة: اللهم صل على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وسلم مائة مرة وخمسين مره، ثم يقول الحمد لله والله أكبر، من مائة إلى ما لا نهاية، كل بثوابه.

يوم الاثنين: سبوح قدوس، من مائة إلى آخر جهدك.

يوم الثلاثاء: سبحان القادر المقتدر.

كذلك يوم الخميس: سبحان الله وبحمده «ألف مرة» وهى بعتق رقبة كما ورد.

يوم الجمعة: الصيغة المثوية العدد السابق ثم سبحان ذى العز والجبروت من مائة إلى ألف.

يوم السبت: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم مائة مرة فقط.

---

* سورة إبراهيم. آية ٢٧.

الإمام الشاذلى والطريقة الشاذلية

أولا - حياته... رحلاته... ملامح شخصيته:

أبو الحسن الشاذلى: (٥٩٣ - ٦٥٦ هـ) - (١١٩٧ م - ١٢٥٨ م)

هو على بن عبدالله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن يوسف بن يوشع ورد بن بطال بن أحمد بن محمد بن عيسى بن محمد بن الحسن بن على بن أبى طالب.

هكذا أجمعت كتب الطبقات والسيرة على هذا النسب، وعلى صحة نسبه إلى الإمام الحسن بن على رضى الله عنه، وقد أجمعت جميع المصادر التى أرخت للشاذلى أن مولده كان سنة ٥٩٣ هـ، بقرية «غمارة» المغربية من مدينة سبتة، ولم يخالف هذا الإجماع غير السيد أبى الحسن القاوقجى فى «البدر المنير»، و «خلاصة الزهر»، حيث قال: إن مولده كان سنة ٥٧١ هـ، ولم يذكر المصدر الذى استقى منه هذا الخبر، وليس لنا أن نخالف الإجماع لرأى فردى[1].

ولقد عاش أبى الحسن الشاذلى سنوات عمره، مثالاً للشيخ العالم الصوفى. الحق.. يقول الشيخ مكين الدين الأسمر: «مكثت أربعين سنة يشكل على فى طريق القوم، فلا أجد من يتكلم عليه ويزيل أشكاله حتى ورد الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه، فأزال كل شىء، أشكل على»[2].

ومن مكاتبات تلميذه الكبير أبى العباس المرسى لبعض أصحابه بتونس يصف الشيخ أبا الحسن، «... وإنى صحبت رأسا من رؤوس الصديقين، وأخذت منه سواء لا يكون إلا لواحد بعد واحد، والشرح يطول، وبه أفتخر، وإليه أنتسب رضى الله عنه، وهو أبو الحسن الشاذلى»[3].

رحلاته:

فى نفس القرية الصغيرة «غمارة»، القريبة من مدينة «سبتة»، التى ولد فيها الشاذلى، وبها نشأ ونما، وبها أيضا تعلم القرآن والحديث على يد شيوخها، واشتاق الصبى وهو صغير إلى علوم القوم، فاتجه إلى شيخ من شيوخ الصوفية الكبار، فرحل إلى مدينة «فاس» وكان ذلك الشيخ هو الصوفى الكبير عبد الله بن أبى الحسن بن حرازم[4]، ولبس منه خرقة التصوف، وسلك الطريق على يديه، ومن المعروف أن الشيخ عبد الله بن حرازم كان أكبر تلامذة سيدى أبى مدين التلمسانى، وهنا نرى

---

(١) كتاب أبو الحسن الشاذلى للأستاذ على سالم عمار جـ ١ ص ١٣.

(٢، ٣) المفاخر العلية لابن عياد ص ١٤.

(٤) أحد شيوخ الأندلس والمغرب المعدودين، وكان والده شيخا لأبى مدين ولبس منهم خرقة التصوف. وكان لابن حرازم مقام كبير بالمغرب، توفى ودفن بالأهواز بضواحى فاس سنة ٦٣٣ هـ.

بصمات مدرسة أبى مدين، ودورها الكبير فى تأسيس الطرق الصوفية، والعمل بوعى وتخطيط كاملين لإقامة هذه الطرق، فاختاروا تلاميذهم بذكاء، وبعثوهم بعد أن زودوهم بتعاليمهم، حتى أصبحوا فيها بعد شيوخ الطرق الصوفية وروادها، فقد التقى أبو مدين هذا كما قلنا سابقا - بالجيلانى بمكة.. وأتم بإرشاده علومه الصوفية، وتأثر بطريقته، ويلاحظ أن أم سيدى أحمد البدوى حفيدة لأبى مدين، وأبو مدين هذا هو أستاذ ابن مشيش، وابن مشيش هو أستاذ أبى الحسن الشاذلى، وأبو الحسن الشاذلى تلميذ أبى الفتح الواسطى، وأبو الفتح الواسطى تلميذ الرفاعى، كما أن الواسطى جد سيدى إبراهيم الدسوقى.

ومن هنا أستطيع أن أكرر ما سبق تأكيده من أن أبا مدين، وابن مشيش والواسطى، هم الرواد الحقيقيون، وهم الرجال الذين عملوا على نشر أفكارهم على أوسع نطاق بنظام دقيق للغاية فى العالم الإسلامى وخصوصا مصر التى كانت تعد فى ذلك الوقت بمثابة مركز الخلافة.

وإذا أردنا تتبع رحلات الشيخ أبى الحسن الشاذلى وجدنا أنه بعد لِبْس خرقة التصوف من أستاذه عبد الله بن حرازم تلميذ أبى مدين، رحل إلى «زويلة» ثم إلى مدينة تونس، وتلقى على علمائها علوم الشريعة، وتفقه على مذهب مالك ودرس علوم الفقه والأدب.

ويقول المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال: إنه يبدو أن الجو فى تونس كان أصلح منه فى المغرب الأقصى، وحرية الفكر والدراسة مكفولة هناك إلى حد ما، وفيها آنذاك كان يقيم عدد كبير من أعلام المتصوفة، من أمثال الشيخ أبى محمد المهدوى(٥)، والشيخ أبى سعيد الباجى(٦)، وقد عاصر الشاذلى أثناء تلقيه العلم فى تونس، هؤلاء الأعلام، ولاشك أنه اتصل بهم ، وتتلمذ عليهم ، وأخذ منهم(٧).

وكان الجو فى تونس كلها يضوع منه شذى تعاليم أبى مدين وروحانيته، والكل هناك من تلاميذه الذين يسلكون طريقته، وقد تأثر الشاذلى بهذا الجو تأثرًا شديدًا وعشق التصوف، وحياة المتصوفة منذ ذلك الحين، ومنذ تلقى الطريقة من قبل فى مدينة فاس، على يد أبى عبد الله بن حرازم(٨).

وقد تجول الشاذلى فى معظم بلدان المغرب، وسافر إلى العراق، واجتمع هناك بالولى أبى الفتح الواسطى عام ٦١٨ هـ تلميذ الإمام الرفاعى الكبير، الذى أرسل الواسطى للإسكندرية لينشر بها الطريقة الرفاعية، وكان الشاذلى أكثر اتصاله بالعباد والمتصوفة، وكان أكثر تأثره فى رحلته هذه بالشيخ أبى الفتح الواسطى، وهو من أكبر تلاميذ سيدى أحمد الرفاعى، وكانت له منزلة عظيمة عند الرفاعية، مما دعاهم إلى إرساله إلى مصر، ليعمل على نشر طريقتهم فيها، ووصل أبو الفتح إلى الإسكندرية فى سنة ٦٣٠ هـ، وأقام بها مدة، يعظ الناس ويدعوهم إلى طريقتهم، وكان يلقى دروسه فى مسجد

---

(٥) هو أبو محمد بن أبى بكر المهدوى من شيوخ الصوفية الكبار ولقد أشار ابن عربى إلى علمه وفضله فى غير موضع من كتابه الفتوحات الملكية. وتوفى المهدوى بتونس سنة ٦٢١ هـ ولما علم أبو يوسف خليفة الموحدين بوفاته تأسف له

(٦) هو خلف بن يحيى التميمى من أهل باجة بتونس اشتهر باسم أبى سعيد الباجى وهو أشهر متصوفة عصره. سلك طريق القوم على يد أبى مدين. توفى سنة ٦٢٨ هـ

(٧، ٨) أعلام الإسكندرية للمرحوم الأستاذ الدكتور الشيال ص ١٦٥.

العطارين، وقد قامت بينه وبين علماء الإسكندرية وفقهائها مساجلات وخصومات علمية كثيرة وتوفى بالإسكندرية في سنة ٦٣٢ هـ، ومازال ضريحه موجودا بالقرب من ضريح أبى الدرداء[٩].

يقول الشاذلى «دخلت العراق، ولقيت جملة من المشايخ، فلم أر أحسن من الشيخ أبى الفتح الواسطى»[١٠] ومن هنا نؤكد مرة أخرى أثر الواسطى الكبير فى حركة الطرق الصوفية، فهو التلميذ النجيب لشيخ الطريقة الرفاعية وهو كما ذكرنا أستاذ الشاذلى صاحب الطريقة الشاذلية الكبيرة، ثم هو جد الإمام إبراهيم الدسوقى شيخ الطريقة البرهامية..

ومن هذا كله نرى أن الواسطى لم يسهم فى إرساء تأسيس حركة الطرق الصوفيه فى مصر فقط، بل كان وراء نجاحها الكبير فى القرن السابع الهجرى أيضا، ولعله فى مقدورنا الآن أن ندلل على هذا أن الطرق الصوفية فى مصر معظمها إن لم يكن كلها، ذات أصل مغربى، أو عراقى وليس هناك تصوف محلى ذو قيمة تذكر حتى الدسوقى، الذى ولد وعاش فى مصر كان حفيدا لأبى الفتح الواسطى العراقى[١١].

وكان للقاء الواسطى بأبى الحسن الشاذلى أثر كبير فى مجرى حياة الشيخ الشاذلى، فحين ذهب للعراق، واجتمع به عام ٦١٨ هـ بلغه أنه جاء للعراق يطلب القطب، فقال له أبو الفتح الواسطى أتتطلب القطب بالعراق والقطب ببلادك؟ فرجع للمغرب، واجتمع بالقطب الجليل أستاذه الروحى الكبير أبى محمد عبد السلام بن مشيش، وكانت مقابلته الأولى لأستاذه ابن مشيش فى رأس جبل، حيث كان يرابط متعبدًا زاهدًا خاشعًا، قال الشاذلى: «لما قدمت عليه وهو ساكن برباطه برأس جبل اغتسلت، وذكرت نسبى إلى رسول الله ﷺ، ثم قال: يا على طلعت إلينا فقيرا من علمك أخذت منا علمى الدنيا والآخرة، فأخذنى الدهش، وأقمت عنده أيامًا إلى أن فتح الله على بصيرتى، ورأيت له خوارق عادات وكرامات[١٢].

وبعد أن صحبه مدة قال ابن مشيش للشاذلى: «يا على: ارتحل إلى أفريقيا واسكن بها بلدا تسمى شاذلة فإن الله تعالى يسميك الشاذلى، وبعد ذلك تنتقل إلى بلاد تونس، ويؤتى عليك من قبل السلطة، وبعد ذلك تنتقل إلى بلاد المشرق وترث فيها القطبانية قال: فقلت له يا سيدى أوصنى فقال لى: الله الله، والناس تنزه لسانك عن ذكرهم، وقلبك عن التماثيل من قبلهم، وعليك بحفظ الجوارح وأداء الفرائض، وقد تمت ولاية الله عليك ولا تذكرهم إلا بواجب حق الله عليك وقد تم ورعك»[١٣].

وصدع الشاذلى لأمر أستاذه وارتحل إلى «شاذلة»، وهى قرية من تونس وهناك قابل الشيخ التقى

(٩، ١٠) كتاب أعلام الإسكندرية للدكتور الشيال ص ١٦٦.

(١١) هذا لا يعنى أنه كان للطرق الصوفية أهداف سياسية وراء التصوف، والذى يمكننا قوله: هو أنه من الصحيح أن أصحاب الطرق علويون نسبًا، لكن الحقيقة أن سلوك أصحاب الطرق الصوفية - كما وجدنا وكما سنرى - كان مثالاً للتصوف الإسلامى العملى الخلقى بحيث يكون من الظلم أن نتجنى على هؤلاء القوم ونقول بلا رؤية موضوعية أن أصحاب الطريق لهم أهداف سياسية وراء دعوتهم.

(١٢) المواهب السنية فى المآثر الشاذلية للاخميمى ص ١٥.

(١٣) المرجع السابق ص ١٦.

الصالح سيدى أبى محمد عبد الله بن سلامة الحبيبى الذى كان يرتقب لقاء الشاذلى من مدة، ويقول الشيخ الحبيبى كنت أحضر مجلس سيدنا الشيخ العارف أبى حفص الجاسوس، فأخذت بيده يوما أطلب منه أن يقبلنى تلميذا له وقلت له: يا سيدى إنى اتخذتك شيخى، فقال لى يابنى لترقب أستاذك حتى يصل من المغرب، وهو شريف حَسَنى من كبار الأولياء، وهو أستاذك وإليه تنتسب، فكنت أرتقب كل من يأتى من الفقراء المغاربة وأصحابه، إلى أن من الله على بلقاء الشيخ أبى الحسن فاتخذته شيخى وصحبته[١٤]. وعلى نهج استاذه ابن مشيش لجأ الشاذلى إلى الجبل.

وفى غارٍ بجبل «زغوان» المطل على شاذلة سكن أبو الحسن الجبل وصحبه فى معظم الأوقات تلميذه الحبيبى.

وظل الشاذلى فى مغارته متعبدًا واصلًا الليل بالنهار فى عبادة ربه والتقرب إليه بالنوافل والصيام.

وطالت إقامة الشاذلى «بشاذلة»، وعرف هناك وذاع صيته، وبدأت نبوءة أستاذه ابن مشيش تتحقق، فعرف منذ ذلك الحين بالشاذلى، وبدأ الناس يقصدونه، ثم إنه خرج عن رباطه فاتخذ له دارًا (بمسجد البلاد) بمدينة تونس وأصبح ينتقل بينها وبين زاوية بجبل زغوان.

وأصبحت دروس الشيخ الشاذلى ومواعظه وتعاليمه بالمسجد من الأمور التى يحرص على الذهاب إليها مئات المريدين... فبدأت حلقة الشيخ تتسع يوما بعد يوم، ويزداد صيته فى طول البلاد وعرضها، فكان إذا جلس للدرس التف حوله الأتباع المتكاثرون، وإذا سار مشى فى ركبه عشرات وعشرات.

وهذا الإقبال المتزايد من أهل تونس حول الشيخ الشاذلى، عرضه لأحقاد ودسائس قاضى الجماعة بمدينة تونس (أبى القاسم بن البراء) فبدأ يكيد للشاذلى لدى سلطان تونس (أبى زكريا الحفصى) واتهمه بأنه جاسوس فاطمى، جاء يتآمر عليه فهو حسنى علوى.

والحق أن أبا القاسم بن البراء قاضى الجماعة بتونس كان ذكيا فى ادعائه.. فقد كانت تونس قبل ذلك فاطمية، وابن البراء لا يرى خلافا فى كلمة القطب إلا أنها ستار يخفى وراءه معنى الإمام الفاطمى، أو المهدى: لكن ابن البراء لم يكن على حق... فالشاذلى كان يقد ر ويحترم الخلفاء الراشدين الأربعة، ويعتبر أنه لا فرق بين أبى بكر أو عمر أو عثمان أو على، فقد كان الشاذلى يجيب من يسأله عن شيخه بقوله: أما فيما مضى فعبد السلام بن مشيش، وأما الآن فأنا أستقى من عشرة أبحر: خمسة آدمية، وخمسة سماوية، فالخمسة الآدمية: أبو بكر وعمر وعثمان وعلى والنبى ﷺ.

ويحدثنا صاحب (درة الأسرار) وصاحب (المفاخر العلية)[١٥]، عن حسد ابن البراء ومحاولاته الوقيعة بين الشاذلى، وبين سلطان تونس فيقول: إن ابن البراء أبلغ السلطان أن هاهنا رجلا من أهل شاذلة سراقى الحمير يدعى الشرف، ويدعى أنه الفاطمى، ويشوش عليك فى بلادك، واتهمه بالزندقة..

---

(١٤) درة الأسرار لابن الصباغ ص ١٠.

(١٥) كتاب «درة الأسرار» لابن الصباغ من ص ١٠ إلى ص ١٣ بتصرف يسير وكتاب «المفاخر العلية» ص ٢١٠ بتصرف يسير.

فأمر السلطان بأن يعقد مجلس يحضره الشاذلى والعلماء والفقهاء ويناقشون أبا الحسن، وعقد المجلس وسألوه عن نسبه مرارا والشيخ يجيب.. وتحدثوا معه فى علوم الدين والفقه فوجدوه عالما فقيها أذهل الجميع بحسن إجاباته، فقال لهم السلطان دعوه عنكم هذا رجل من أكابر الأولياء، فقال له ابن البراء والله إن تركته ليدخلن عليك أهل تونس، ويخرجنك من أظهرهم، فإنهم مجتمعون على بابك، ولكن السلطان الذى تأكد من علم وتقى الشيخ الشاذلى، لم يهتم بقول قاضى الجماعة، وأمر الفقراء أن ينصرفوا، ولبث مع الشيخ وقتًا طيبًا إلى أن حضر أخو السلطان أبو عبد الله اللحيانى، وكان كثير الاعتقاد فى الشيخ، فخرج مع الشاذلى إلى داره وصحبه وأكرمه.

وأحس أبو الحسن الشاذلى بغيرة وحقد قاضى القضاه نحوه، فعزم على أن يترك تونس، فلما علم السلطان قال: أى شيء يسمع به عن إقليمنا؟ إنه أتاه ولى من أولياء الله فضاق عليه حتى خرج فارا بنفسه، فقال الشيخ الشاذلى. ما خرجت إلا بنية الحج، وإذا قضى الله حاجتى أعود إلى تونس إن شاء الله تعالى فسمح له السلطان بالخروج.

ولكن ابن البراء الذى لا يزال قلبه مملوءًا بالغيرة كاد للشاذلى مكيدة أخرى خارج تونس، فأعد رسالة سريعة إلى سلطان مصر الملك الكامل محمد الأيوبى.. ووصل رسول ابن البراء للملك قبل وصول الشاذلى لمصر فى طريقه إلى الحج، وفى هذه الرسالة يقول قاضى الجماعة بتونس: (إن هذا الواصل إليكم) يقصد الشاذلى (شوش علينا بلادنا وكذلك يفعل ببلادكم).

ولم يكد الشاذلى يصل الإسكندرية حتى قبض عليه، وأرسل فى حراسة مشددة للقلعة، وهناك عقد له مجلس من القضاة والعلماء وفقهاء الدين، واكتشفوا علمه وورعه وصدق إيمانه.. وأحس السلطان بأنها مكيدة من ابن البراء، فاعتذر للشاذلى وأكرم وفادته.. وذهب أبو الحسن لحج بيت الله تعالى الحرام ثم عاد إلى تونس وفاء لوعده لدى السلطان التونسى، وهناك فى هذه المرة التقى بتلميذه الكبير أبى العباس المرسى) ومكث هناك حوالى عامين عمل خلالها على تصفية أموره بتونس، وأعد رحيله إلى الشرق فى سنة ٦٤٢ هـ، حيث سافر إلى الإسكندرية ليقيم بها، وصحب معه أخلص تلاميذه أبا العباس المرسى[١٦] الذى تعرف عليه حوالى عام ٦٤٠ هـ بتونس، وكذا صحب معه إلى الإسكندرية خادمه الأمين أبا العزايم ماضى بن سلطان، والحاج محمد القرطبى، وأبا عبد الله البجائى وأبا الحسن البجائى، والخزاز وعددًا كبيرًا من أتباعه الذين أخذوا فى التزايد كلما مر بمدينة من المدن فى طريقهم إلى الإسكندرية، ولما وصل الشيخ وأتباعه الإسكندرية اتخذ له دارًا بالقرب من (كوم الدكة) ببرج من أبراج السور حبسه السلطان عليه وعلى ذريته، فى أسفله مرابط للبهائم، وفى الوسطى منه مساكن للفقراء، وجامع كبير وفى أعلاه مسكنه.

ويدأ الشاذلى يلقى دروسه ويدعو الناس إلى طريقته فى مسجد العطارين، كما كان يعقد كل ليلة فى داره مجلسا يأتى الناس إليه من البلد يسمعون كلامه..

---

(١٦) ولد أبو العباس المرسى عرسية سنة ٦١٦ هـ وتوفى بالإسكندرية سنة ٦٨٥ هـ

ويقول أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه: إنه انتقل إلى الإسكندرية بناء على رؤيا رآها.. وفيها يأمره النبى ﷺ أن ينتقل إلى الديار المصرية.

وهنا نجد تشابهًا واضحًا بين رؤيا الشاذلى وسيدى أحمد البدوى، ونلاحظ أن مشايخ الطرق الصوفية يقولون: إنهم لا يتحركون من مكان إلى مكان إلا بإلهام أو رؤيا تأمرهم بالرحيل إلى هذا المكان أو غيره من الأمكنة على ما أشرنا من قبل.

المهم.. أن الإمام الشاذلى انتقل للديار المصرية، وأسس بها طريقته الكبيرة التى انتشرت بها انتشارًا سريعًا.

يقول الأستاذ السندوبى: وما مثل مجيء الشاذلى إلى الديار المصرية من المغرب إلا كمثل مجيء السيد جمال الدين الأفغانى لها من المشرق، كلاهما أحيا نفوسًا بمعارفه، وبعث هِمَما بمواقفه، وأنار عقولاً، وملأ صدورا، وحرك قلوبا، ذلك باللطائف العلية والمعارف اللدنية، وهذا بالشرائع القدسية والعلوم الكونية، وكلاهما ترك تلاميذ ومريدين حملوا لواءه، وأذاعوا فضله، وأعلنوا نداءه، وترسموا منهج إصلاحه، وساروا فى ضوء مصباحه، وكلاهما تركزت معارفه فى واحد من أصحابه بذ أقرانه، وفاق إخوانه، فكان أبو العباس المرسى للشاذلى كمحمد عبده للأفغانى، كما كان ابن عطاء الله السكندرى(١٧) فى إذاعة فضلها ومبادئها (بالنسبة للمرسى والشاذلى) كالسيد رشيد رضا بالنسبة لمحمد عبده والأفغانى(١٨).

وظل الشاذلى بمصر قرابة أربعة عشر عاما من عام ٦٤٢ هـ إلى أن توفى سنة ٦٥٦ هـ بحميثرا فى صعيد مصر فى صحراء «عيذاب» وهو فى طريقه إلى الحج.

وبهذا المكان حميثرا قبره(١٩).

وبموت الشاذلى، خلفه فى طريقته تلميذه الكبير وأقرب الناس إلى قلبه أبو العباس المرسى (٦١٦ هـ – ٦٨٥) تلميذه وصاحبه وزوج ابنة الشاذلى، وقد أوصى أبو الحسن أتباعه به قبل أن يموت، فقال لهم إذا أنا مت فعليكم بأبى العباس المرسى، فإنه الخليفة من بعدى.

هذا هو الشاذلى: رحلة فى طريق الله من المغرب إلى العراق إلى تونس إلى مصر.

---

(١٧) ابن عطاء الله السكندرى: هو تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله الجراحى السكندرى. ولد بالإسكندرية حوالى ٦٥٨ هـ وتوفى بالقاهرة فى جمادى الآخر سنة ٧٠٩ هـ ودفن بالقرافة الصغرى.

وقبره معروف بها حتى اليوم، وهو تلميذ أبى العباس المرسى والذى تولى رئاسة الطريقة الشاذلية بعد وفاة المرسى. وكان ابن عطاء الله السكندرى عالما فقيها له مؤلفات كثيرة أهمها «التنوير فى إسقاط التدبير» و«الحكم العطائية» و «تاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس» و «لطائف المنن» وهو أشهرها جميعا.

(١٨) كتاب «أبو العباس المرسى» للاستاذ حسن السندوبى ص ٣١.

(١٩) حميزا، من صحراء عيذاب.. وعيذاب بليدة صغيرة على شاطيء بحر جدة كان يعبر منها الركب المصرى المتجه إلى الحجاز على طريق توحى فى ليلة واحدة فى أغلب الأوقات فيصل إلى جدة (الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك جـ ١٤ ص ٥٤). ملحوظة: بالطبع هذا أيام كان حجاج بيت الله يسافرون على الجمال.

ونستطيع أن نلمح من خلال ما كتب عنه الخطوط العريضة لهذه الشخصية الكبيرة، التى كان لها تأثير واضح فى حركة الطرق الصوفية فى مصر، والتى لا تزال آثارها حتى الآن أوضح ما يكون فى انضمام كثير من عامة الشعب وخاصته، إلى هذه الطريقة الكبيرة من الطرق الصوفية.

ولعل أوضح ما فى شخصية الشاذلى معرفتها الحقة بالله.

يقول الشاذلى فى روعة وجلال: (اعرف الله وكن كيف شئت)[٢٠].

ولهذا فقد رأينا أبا الحسن يختلف عن بعض أصحاب الطريق، حيث كان يرتدى أحسن الثياب وأجملها، (دخل عليه مرة فقير وعليه لباس من شعر فلما فرغ الشيخ من كلامه ، دنا من الشيخ، وأمسك بملبسه وقال: يا سيدى، ما عبد الله بمثل هذا اللباس الذى عليك، فأمسك الشيخ ملبسه فوجده فيه خشونة فقال: ولا عبد الله بمثل هذا اللباس الذى عليك، لباسى يقول: أنا غنى عنكم فلا تعطونى.، ولباسك يقول: أنا فقير فأعطونى[٢١].

ودخل أبو العباس المرسى يوما على الشاذلى، وفى نفسه أن يأكل الخشن وأن يلبس الخشن، فقال له الشيخ: يا أبا العباس (اعرف الله وكن كيف شئت).

ويقول أبو الحسن: يابنى: برد الماء، فإنك إذا شربت الماء الساخن فقلت الحمد لله تقولها بكزازة، وإذا شربت الماء البارد، فقلت الحمد لله استجاب كل عضو فيك بالحمد لله[٢٢] الحق أن مثل هذه الأمثلة تعكس مزاجين مختلفين فى التصوف.

(أ) العزيمة والتضييق والتشدد.

(ب) السهولة والرخص والانبساط.

من الفريق الأول: التسترى والسرى السقطى.

ومن الفريق الثانى: الجنيد والجيلى عبد القادر والشاذلى.

وقد وردت مثل هذه القصة مع خلاف فى الحكم فى الرسالة القشيرية واللمع.

ويقول فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود إن النظرية الشاذلية فى الغنى والفقر تفضل الغنى الشاكر على الفقير الصابر، وتعلل ذلك بأن الصبر فضيلة فى الدنيا فقط، أما الشكر فإنه فضيلة فى الدنيا والآخرة[٢٣].

ويؤكد هذا المعنى أبو الحسن الشاذلى حين يقول: ليس هذا الطريق بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة، ولا بقبقبة الصناعة، وإنما هو بالصبر على الأوامر، واليقين فى الهداية[٢٤].

---

(٢٠) لطائف المنن لابن عطاء الله السكندرى ص ١٤٥.

(٢١) لطائف المنن لاس عطاء الله السكندرى ص ١٦٤، ص ١٤٥.

(٢٢) لطائف المنن لابن عطاء الله السكندرى ص ١٦٤، ص ١٤٥.

(٢٣) كتاب أبو الحسن الشاذلى للمغفور له الإمام عبد الحليم محمود ص ١٧٠.

(٢٤) لطائف المنن لابن عطاء الله السكندرى ص ١٦٤.

ويقول تعالى فى كتابه العزيز: ﴿قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ سورة الأعراف - آية ٣٢.

وكان مما يميز شخصية الشاذلى أيضا، سعيه للخير ولقضاء مصالح الناس. يقول ابن عطاء الله السكندرى: «أخبرنى بعض أصحابنا قال: استشفع طالب الشيخ أبا الحسن إلى القاضى تاج الدين ابن بنت الأعز أن يزاد على مرتبه فذهب الشيخ إليه، فأكبر القاضى تاج الدين مجيئه إليه وسأله فيم مجيئه، فقال الشيخ من أجل فلان الطالب، كى تزيده فى مرتبه عشرة دراهم.. فقال القاضى يا سيدى هذا له فى المكان الفلانى كذا، وفى المكان الفلانى كذا وكذا، فقال له الشيخ: يا تاج الدين، لا تستكثر على مؤمن عشرة دراهم تزيده إياها، فإن الله تعالى لم يقنع المؤمن بالجنة جزاء له حتى زاده النظر إلى وجهه الكريم[٢٥].

وكان رضى الله عنه لا يرد من يقصده بل يسعى لقضاء مصالحه، وإلى جانب هذا كله، فقد كان الشاذلى مكافحًا بمعنى الكلمة وبنضاله المجيد الذى يذكره له التاريخ هدم الشيخ فكرة عن الصوفية بأنهم سلبيون فى الحياة، وأن تصوفهم ضعف فها هو أبو الحسن الشاذلى وهو فى أخريات حياته، يذهب بنفسه لميدان الوغى فى معركة المنصورة يلهم جند الله، ويبث فيهم من روحه وقلبه إيمانا بالنصر.

وكان الشيخ فى أخريات حياته قد كف بصره ووهن عظمه ولكن عزيمته لم تهن، فذهب إلى ميدان المعركة مع جند مصر فى مواجهة جيوش الغرب الصليبية بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، «ذهب هناك للمنصورة مع قافلة النور تضم رجالات من أعظم الرجال فى العلم والدين، العز بن عبد السلام، مجد الدين القشيرى، ومحيى الدين بن سراقة، ومجد الدين الأخميمى، والفقيه الكامل بن القاضى صدر الدين، والفقيه عبد الحكيم بن أبى الحوافر.

وكان وجود هؤلاء العلماء الأجلاء فى المنصورة من عوامل رفع الروح المعنوية للمقاتلين وتقوية إيمانهم وعزمهم.

وكما كان الشاذلى مكافحًا وداعيًا لنصرة الإسلام والمسلمين.، فقد كان يدعو أتباعه إلى السعى للرزق وإلى العمل.

وكان يكره المريد المتعطل الذى يسأل الناس، وكثيرا ما حثَّ أتباعه على العمل ويقول لهم عليكم بالسبب.

يقول أبو العباس المرسى: «دخلت يوما على الشيخ أبى الحسن - رضى الله عنه - فقال لى: إن أردت أن تكون من أصحابى، فلا تسأل أحدا شيئا، وإن أتاك شىء من غير مسألة فلا تقبله، فقلت فى نفسى. كان النبى ﷺ يقبل الهدية وقال: «ما أتاك من غير مسألة فخذه فقال الشيخ إن كنت مقتديا به

---

(٢٥) لطائف المنن: لابن عطاء الله السكندرى ص ١٦٥.

فى الأخذ، فكن مقتديا به كيف يأخذ. كان ﷺ، لا يأخذ شيئا إلا ليثيب من يعطيه ويعوضه عليه فإن تطهرت نفسك وتقدمت هكذا فاقبل وإلا فلا(٢٦).

ثانيًا – الشاذلى العالم:

كان الشاذلى رحمه الله على قدر كبير من العلم والمعرفة، وكان يحضر مجلسه بعض علماء ونجباء مصر، مثل «العز بن عبد السلام وابن دقيق العيد والحافظ المنذرى وابن الحاجب وابن الصلاح وابن عصفور»(٢٧).

ومما يدلنا على علم الشاذلى: آراؤه المختلفة فى النفس، والذات، والصفات وإرشاداته القرآنية لبعض الآيات الحكيمة.

فمثلا يقول الشاذلى عن النفس: مراكز النفس أربع: مركز للشهوة فى المخالفات، ومركز للشهوة فى الطاعات، ومركز فى الميل إلى الراحات، ومركز فى العجز عن أداء المفروضات لله، **﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد﴾**(٢٨) سورة التوبة – آية ٥.

ويقول: «رأس النفس إرادتها، ويداها وعلمها وعقلها، وجلاها: تدبيرها واختيارها، فإذا أردت جهاد النفس فاحكم عليها بالعلم فى كل حركة، واضربها بالخوف عن كل حظوظ، واسجنها فى قبضة الله فيما كنت، واشك عجزك إلى الله كلما غفلت»(٢٩).

وقد كان الإمام الشاذلى بنفسه يختار الكتب التى يقرأها أو يدرسها ويشرحها لتلاميذه ومريديه..، ومن أهم هذه الكتب، إحياء علوم الدين للإمام الغزالى، والمواقف والمخاطبات للشيخ محمد بن عبد الجبار النفرى، وقوت القلوب لأبى طالب المكى، والرسالة القشيرية للإمام القشيرى، والشفاء للقاضى عياض.

وداخل جدران مدرسة الشاذلى استطاع هذا الرجل أن يربى الرجال ويعلمهم منهجه وطريقته، ولكنه لم يضع كتبا..، وعندما سئل لِمَ لَمْ تضع الكتب؟ قال: كتبى أصحابى.

وللشاذلى إشارات لطيفة لبعض آى القرآن الكريم، تعد بمثابة تفسير صوفى لهذه الآيات الشريفة.

وقبل أن نستعرض هذه الإشارات الصوفية، يجدر بنا أن نشير إلى قضية تأويل القرآن لدى الصوفية.

يعتمد الصوفية فى تأويلهم القرآن – أى فى مذهبهم الصوفى فى تفسير القرآن – على حديث ذكر

---

(٢٦) لطائف المنن: لابن عطاء الله السكندرى ص ١٦٥.

(٢٧) شرح الربيدى على حزب البر ص ٤.

(٢٨) لطائف المنن ص ٨٠.

(٢٩) درة الأسرار لابن صباغ ص ١٠٧.

بروايات متعددة، وبألفاظ مختلفة ينسب إلى رسول الله ﷺ «ما من آية فى القرآن إلّا ولها ظاهر وباطن وحد ومطلع».

يقول الدكتور كمال جعفر: «ونرى أن اللفظين ظاهر و باطن» قرآنيان ولا يمكننا أن نعترض على الفكرة القائلة، بأن فى القرآن ناحية واضحة تدرك فى ضوء الاشتقاق والتاريخ، كما أن به ناحية أخرى ربما كانت أخفى وأعمق بالنسبة الأولى، لأن هذه الفكرة يمكن أن تطبق فى الواقع على أى نص، «وأن التعبيرات الحديثة، مثل قولنا: قراءة «ما بين السطور» لشاهد على أن لكل نص ناحية قريبة مباشرة تدرك بلا عناء، وناحية أخرى تحتاج إلى تعب وجهد فى استيعابها وفهمها، كما لا يمكننا أن ننكر أن الحقيقة الإنسانية الثانية تشير إلى عدم تساوى الناس فى الفهم والإدراك»(٣٠).

ثم يذكر الدكتور جعفر ما نصه: «ويرى بعض النقاد أنه بالنسبة للتفسير الصوفى للقرآن، يجب التفريق بين نوعين هامين، هما: التفسير الذى يتخذ أسسا فلسفية عمادا له، والثانى ذلك التفسير الإشارى الذى لا يستند إلى نظريات أو مبادئ فلسفية، على أن بعض المتطرفين لا يقبلون أى تفسير صوفى للقرآن مهما دعا إلى سمو روحى أو أخلاقى، وفى ذلك ما لا يخفى من تضييق وتزمت لا مبرر له، والفريق الأول من النقاد يرون أن فى القرآن ذاته ما يشهد لهذا اللون من التفسير الإشارى أو الفيض ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾(٣١).. سورة محمد - آية ٢٤.

والدكتور جعفر ممن يرون فائدة هذا اللون من التفسير الإشارى، أو فهم القرآن، «على أن يراعى فيه اتفاقه مع الروح العامة للقرآن ومع الاستعمال اللغوى، وما أثر من تعاليمه ﷺ، وعلى أن يكون لهذا الفهم دوره الفعال فى التأثير والتنشيط الروحى، الذى يبعث على تنمية المشاعر النبيلة، وتحصيل مكارم الأخلاق، وبعد فهو فهم يضيف ثروة لا يستهان بها إلى تراثنا الروحى الإسلامى(٣٢).

ومن المعلوم أن رسول الله ﷺ لم يقم بتفسير القرآن، وإنما نقل عنه كلمات وإشارات صغيرة لبعض آياته الكريمة..، وقد كان سلوكه وخلقه قرآنيا، ونستطيع أن نقول من ناحية أخرى: إن أحاديث الرسول ﷺ تعد بمثابة ضوء وتفسير للقرآن العظيم.

يقول سهل بن عبد الله رضى الله عنه عن فهم القرآن، «لو أعطى العبد كل حرف من القرآن ألف فهم لما بلغ نهاية ما جعل الله تعالى فى آية عن كتاب الله تعالى من الفهم، لأنه كلام الله تعالى، وكلامه صفته، وكما أنه ليس لله نهاية. فكذلك لا نهاية لفهم كلامه، وإنما يفهمون على مقدار ما يفتح الله تعالى على قلوب أوليائه من فهم كلامه، وكلام الله غير مخلوق فلا تبلغ إلى نهاية الفهم فيه فهوم الخلق، لأنها محدثة مخلوقة»(٣٣).

وعن إشارات الصوفية يقول الدكتور عبد الحليم محمود: «وينبغى أن نلاحظ أمرين:

(٣٠، ٣١) كتاب التصوف: طريقا ومذهبا للأستاذ الدكتور محمد كمال جعفر ص ١٥٧، ١٥٨، ص ١٦٠
(٣٢) التصوف: طريقا ومذهبا ص ١٦٠، ١٦١.
(٣٣) اللمع: للطوسى ص ١٠٧.

الأول: أن هذه الإشارات لا تهدف فى قليل ولا فى كثير إلى أن تحل محل التفسير المألوف.

الثانى: أن هذه الإشارات لا تتعارض مع التفسير المألوف... إنها إشارات وليست تفسيرًا، ومن أجل ذلك فإنه لا تعارض بين الصوفية والمفسرين»(٣٤).

والحق «أن أهم القضايا التى يصر عليها النقاد لقبول هذا الفهم، ألا يدعى الصوفى أولوية هذا الفهم بالصدق مع استبعاد المعانى الأخرى، بل لابد من التسليم أولا بالتفسير الظاهرى أو بالمعنى الحرفى، ولا ضَيْر بعد ذلك أن نذكر معانى أخرى تتكشف للنفس الصافية، فإن هذا ثمرة الإيمان كما يقول سعد الدين التفتازانى(٣٥).

وإذا كان علماء الظاهر يختلفون فى تفسيراتهم وفهمهم واجتهاداتهم، ويعد اختلافهم رحمة، فإن اختلاف أهل الحقائق رحمة من الله أيضا، لأن كل واحد يتكلم من حيث وقته، ويجيب من حيث حاله، ويشير من حيث وجده، فتكون فيهم لكل واحد من أهل الطاعات، وأرباب القلوب والمريدين، والمتحققين فائدة من كلامهم»(٣٦).

ورأينا أن هذه الإشارات الصوفية فيها إثراء روحى، ولون من ألوان الكشف عن الإعجاز القرآنى، طالما أن الصوفى يؤمن بالتفسير الظاهرى للقرآن، ولا يرى أن إشاراته تقوم مقام التفسير الظاهرى لكتاب الله العزيز، وإننا نعتبر مثل هذه المحاولات الصوفية لتأويل القرآن الكريم مجرد إشارات لا أكثر ولا أقل، وإن كان فيها إثراء روحى مشرق المضمون ونفحة إلهية جميلة.

ولقد قام الشاذلى ببعض هذه المحاولات، فمثلا فسر آية: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ هكذا «يقال للولى. وما تلك بيمينك أيها الولى؟ فيقول: هى دنياى أنفق منها على نفسى وأهلى وإخوانى، فيقال له: ألقها فيلقيها فيجدها حية تسعى فى هلاك قابضها، فيأخذ حذره منها، فإذا حذر منها يقال له: خذها ولا تخف، فكما ألقاها أولا بإذن حال بدايته، فكذلك بإذن حال نهايته»(٣٧).

ويقول الإمام الشاذلى فى تفسير آية ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى﴾(٣٨)* ومن يظن أن هذا العلم. أعنى علم الروح وغيره مما ذكره وما لم يذكر، لم يحط به الخاصة العليا أهل البدء الأعلى، فقد وقع فى عظيمتين. جهل أولياء الله إذ وصفهم بالقصور عن ذلك، وظن بربه أنه منعهم وكيف يجوز أن يظن على مخصوص؟ وسرى به للتكذيب إلى القدرة والشرع بقوله عن اليهود أو عن العرب

---

(٣٤) كتاب «أبو العباس المرسى» للإمام الدكتور عبد الحليم محمود ص ٥٧.

(٣٥) التصوف: طريقا ومذهبا للأستاذ الدكتور كمال جعفر ص ١٦١.

(٣٦) اللمع: للطوسى ص ١٥٠

(٣٧) التصوف الإسلامى للدكتور مبارك جـ٢ ص ٣٠٥ نقلا عن اللواتح للشعرانى ص ٣٥٥.

(٣٨) كتاب أبو الحسن الشاذلى للإمام الأكبر عبد الحليم محمود ص ٥٧ - ٥٩ نقلا عن لطائف المنن لابن عطاء الله السكندرى.

* سوره الإسراء - آية ٨٥.

كما تضمن الخلاف، ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ فما الدليل لك منها على جعل الصديقين وأهل خاصة الله العليا، والكشف عن هذا أن السؤال يقع بأربعة أحرف: هل، وكيف، ولِمَ، ومن.

فهل يقع بها السؤال عن الشيء أموجود هو أو معدوم، وكيف يقع بها السؤال عن حال الشيء...، ولم يقع بها السؤال عن العلة.، وليس في الآية شيء من هذا.

فإنك إن قلت فيها معنى هل يقتضي: هل الروح موجود أو معدوم؟ وقد عرفوا وجوده من قبل، ولولا ذلك لما قال ﴿ويسألونك عن الروح﴾ فثبت أنهم عرفوا وجوده، فبطل هذا وليس فيها سؤال عن الحال كيف هو، ولا سؤال عن العلة لم كذا وكذا، ولو كان سؤالهم عن هذين لما قنعوا بقول الله: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ ولشغبوا وترددوا إذ هذا شغلهم وعادتهم وإرادتهم. فثبت أن السؤال إنما كان عن الشيء من أين هو، بدليل الجواب والبيان الشافي بقوله: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾، إذ الرسول عالم بما سألوا عنه فأجاب عن الله بذلك. كما تقول آدم فسألك عنه، وفهم المسئول السؤال فقال: آدم من تراب، فإذا رضى الجواب قنع، وليس يرجع العدو إلا لفهم عظيم من الحق العظيم الذى لا مرد له، فكيف يزعم الزاعم أنه لا يعرف ولا يجوز أن يعرف، فقد أوجب الله علينا معرفته ولا مثل له. ولو ضيعناها لكنّا كفارا أو عصاة، فكيف بوجود مخلوق أمثاله كثيرة؛ هذا عين الجهل أن يقال: لا يجوز أن يعرف من له المثل والنظير وهو الروح، (ويوجب معرفة من لا شبيه له ولا نظير، فنعوذ بالله من جهل الجاهلين وظلم الظالمين، والذى أقول به: إن لله أسرارًا لا يسع فيها الرسم. ولا يليق بها الكتم. أن ترسم في الدواوين لعمى البصائر وضعفاء النحائز، ولا يليق بها الكتم لوضوحها وشدة ظهورها.

فلا تعبأ بهم مع كثرة حججهم، وذل للحق، واخضع له فيما هم فيه. واعرض عنهم فيما لا علم لهم به، وقد أمر الله تعالى نبينا محمدًا ﷺ بالاقتداء بإبراهيم وسائر الأنبياء عليهم السلام، وهو الفاضل الذى لا يصل إليه أحد، ويقول قد شاركتهم في النبوة والرسالة والهداية والأمور الطارئة على النفوس والأبدان والقلوب والأرواح، وابتدبهم فيما فيه الشركة وما خصصنا به، ففينا كذلك أيضا من فهم هذا السر، وإن الله مع عامة المؤمنين ومع أوساطهم ومع الأهلين، وفارقهم فيما هو خاص للمخصوصين.

فإن تكن منهم فازدد بعلمك وعملك فقرًا إلى الله، وتواضعًا لعباده، واعطف بالرحمة على عامة المؤمنين وإن كانوا ظالمين إلا حيث أمرك الله بالغلظة عليهم مع الدعاء الصالح والدفع عنهم.

«والحق أن هذه رؤيا جديدة للآية الشريفة، ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾، وهذه الآية الكريمة كانت مثار خلاف شديد بين المفسرين من مختلف النزعات، وذلك أن كثيرا من المفسرين رأوا: أن الآية إنما هي نهى عن البحث في الروح بمعنى النفس الإنسانية، لأنها من أمر الله. وعارض هؤلاء كثيرون، ويرون أن الروح في الآية الكريمة، إنما هو القرآن الكريم، بدليل سياق الآيات السابقة، واللاحقة فإنها كلها في القرآن الكريم، والقرآن يسمى روحا كما أن جبريل عليه

السلام يسمى روحا..، ولم يأخذ أبو الحسن بهذا الرأى أو ذلك، وإنما أدلى برأى نشهد بأصالته وعمقه ودقته»(٣٩).

ومن أمثلة تفسيرات الشاذلى وإشاراته واستشهاده بالآيات القرآنية.

قال الشاذلى: إذا عرض لك عارض يصدك عن الله فاثبت، قال الله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون﴾(٤٠). سورة الأنفال - آية ٤٥.

وقال الشاذلى: (من الشهوة الخفية للولى إرادته النصرة على من ظلمه). قال الله تعالى للمعصوم الأكبر: ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾ سورة الأحقاف - آية ٣٥.
أى فإن الله قد لا يشاء أهلاكهم(٤١).

الشاذلى.. ووحدة الوجود:

نلاحظ أن ابن تيمية حينما هاجم أصحاب وحدة الوجود، استشهد فى هجومه عليهم بقول تلميذ الشاذلى (سيدى أبى العباس المرسى): فى أصحاب وحدة الوجود وهو، (هؤلاء كفار يعتقدون أن الصنعة هى الصانع)(٤٢).

وهذا يعنى أن ابن تيمية يرى أن المدرسة الشاذلية بريئة تمامًا من القول بوحدة الوجود.

ويقول الدكتور التفتازانى: كان تصوف الشاذلى والمرسى وابن عطاء الله، وهم أركان المدرسة الساذلية، مبتعدا عن تيار مدرسة ابن عربى ومذهبها فى وحدة الوجود، فلم يكن واحد منهم قائلا بهذا المذهب(٤٣).

وكذلك يقول الدكتور على صافى: فلست أجد فى قول الشاذلى ومأثوراته جميعا سواء منها الأذكار أو الأوراد والأحزاب. عبارة ولا جملة تدل على أنه كان يذهب مذهب الحلوليين أو الاتحاديين أو القائلين بوحدة الوجود، اللهم إلا ما أخذه عليه ابن تيمية وذلك فى قوله - أعنى الشاذلى: اللهم أنقذنى من أوحال التوحيد(٤٤)، ومع ذلك فإن الدكتور صافى يرد على مأخذ ابن تيمية فيقول: على أن مأخذ ابن تيمية هذا على الشاذلى فى الإمكان رده، بأن يقال: إن الشاذلى أراد النجاة من التوحيد المتسبب عن الأدلة العقلية والبراهين المنطقية، لأنه فى رأيه اعتقاد غير راسخ أو هو عرضة للتزعزع والارتياب، أما التوحيد الذى يصبو إليه، أو يبتغيه ويسأل الله أن يبلغه إياه، فهو تلك العقيدة النظرية المستقره فى

(٣٩) كتاب أبو الحسن الشاذلى للإمام الدكتور عبد الحليم محمود ص ٥٧.
(٤٠) لطائف المنن للسكندرى ص ١١٠.
(٤١) المفاخر العلية لاس عياد ص ٨٦.
(٤٢) رسالة الاتحاد لابن تيمية «مجموعة الرسائل» ص ٧٥.
(٤٣) ابن عطاء الله السكندرى للأستاذ الدكتور التفتازانى ص ٥٦.
(٤٤) الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى للأستاذ الدكتور على صافى ص ٦٩.

أعماق النفس التى لم تكن مسببة عن نظر واستدلال، وإنما هى وليدة الإحساس القلبى، أو الفهم الوجدانى، الذى يعبر عنه لدى الصوفية بالإلهام[٤٥].

وأنا أقرر بعد معاسرتى الطويلة لفكر الشاذلى، أنه رضى الله عنه، لم يكن من أصحاب وحدة الوجود أو القائلين بهذا المذهب، بل كان رضى الله عنه «لا يندفع فى تيار الشطحات العنيفة، ولا يغرم بالفلسفة العميقة، ويحرص على كل مظاهر الدين المثبت بسياج الشرع المكين، ولا يذهب للسكر الذى يذهب العقل»[٤٦].

ولعل ذلك ما دعا السيوطى لأن يقول: «ولو أن فى طريق الشاذلية أدنى عوج لم يثن عليها ابن السبكى، ولا ولده تقى الدين، ولا أئمة عصره ومن قاربهم»[٤٧]

ثالثًا – أصول الطريقة الشاذلية:

تشهد أقوال الإمام الشاذلى الكثيرة تأكيده المستمر على ضرورة الالتزام بمتابعة السنة، فمن هذه الأقوال قوله: «إذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة، ودع الكشف، وقل لنفسك: إن الله تعالى قد ضمن لى العصمة فى الكتاب والسنة، ولم يضمنها لى فى جانب الكشف، ولا الإلهام، ولا المشاهدة إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة»[٤٨].

وتكشف أقواله عن شدة تمسكه بالسنة حين يقول: «ارجع عن منازعة ربك تكن موحدًا، واعمل بأركان الشرع تكن سنيًّا، واجمع بينهما تكن محققًا»[٤٩] وحين يقول: «إذا لم يواظب الفقير على حضور الصلوات الخمس والجماعات فلا تعبأن به»[٥٠].

وأكثر من ذلك يقول الشاذلى: «إذا أردت أن يكون لك نصيب مما لأولياء الله تعالى، فعليك برفض الناس جملةً واحدةً إلا من يدلك على الله بإشارة صادقة وأعمال ثابتة، لا ينقضها كتاب ولا سنة»[٥١].

الحق أن الشاذلى كان عاملًا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن يتأمل أقواله وآراءه يجده مثالًا نادرًا للمتصوف العامل على ربط الشريعة بالحقيقة، داعيًا أتباعه أنه لا حقيقة بلا شريعة، وأن أساس الحقيقة الشريعة، وأنه إذا عارض كشفك الشريعة، فعليك بترك هذا الكشف الضال.

ولقد كان الدكتور صافى محقًّا حين قال: «درست حياة الشاذلى والمرسى وغيرهما من المتصوفين المعتدلين؛ كعبد الرازق بن حسام بن رزق الله، وابراهيم بن معضاد الجعبرى، فوجدت أنهم كانوا

---

(٤٥) المرجع السابق ص ٧٠. هذا وسنقوم بعرض آراء ابن تيمية ونقده لأحزاب الشاذلى إن شاء الله فى موضعها المناسب من هذا الكتاب، ثم إن قول الشاذلى اللهم أنقذنى من أوحال التوحيد من الصلاة المأثورة لابن مشيش

(٤٦) أبو الحسن الشاذلى للأستاذ على سالم عمار جـ ١ ص ١٧.

(٤٧) تأييد الحقيقة العلية وتشديد الطريقة الشاذلية للسيوطى ص ٦٨

(٤٨، ٤٩، ٥٠) من كتاب طبقات الشاذلية الكبرى ص ٢٠، ٢١، ٢٢ على التوالى.

(٥١) المفاخر العلية ص ٧٤.

حميعا على مذهب أهل السنة والجماعة من حيث الأصولِ والفروع، ومن هنا كان تصوفهم العملى والنظرى قائمًا على أساس من ظاهر السنة والكتاب»(٥٢).

وتدل أقوال الشاذلى وأفعاله: «أنه يعتنق فى التوحيد مذهب الأشاعرة، فالله عنده واجب الوجود، ومتصف بالقدرة والبقاء، أزلى، أبدى، سميع بصير، متكلم عليم، أما أحزابه(٥٣)، فهى صريحة فى الإقرار لله بالوحدانية والقدرة المطلقة، وأنه هو وحده المتصرف فى كل شىء، فحزب البر، وحزب البحر وغيرهما من الأذكار ناطقة بذلك معربة عنه فى وضوح وجلاء»(٥٤)، وبالطبع إنه لا يتصور من صوفى حق غير ذلك، والحق أن ما توصل إليه الدكتور صافى هو ما توصلت إليه بعد ذلك من معايشتى للشاذلى وفكره، ونلاحظ أن تلاميذ الشاذلى أخذوا بالمبادئ المثلى للتصوف، فهو لم يكن يفهم التصوف كما كان يفهمه بعض معاصريه وبعض المتدروشين حتى اليوم على أنه بطالة تامة بحجة الزهد، والتفرغ للعبادة، بل كان يفهمه على أنه صفاء تام فى النفس، وتقوى خالصة لله، وحب لله تعالى وتعلق به، وارتفاع بالروح بالعمل، «وكان الشاذلى يكره من المتصوفة التظاهر بالفقر، فهو نوع من الادعاء، ولكى يضرب لأتباعه المثل والقدوة كان يحيا حياة نظيفة منعمة»(٥٥).

وقد مر بنا كيف كان يكره الإمام الشاذلى المريد المتعطل، ويدعو أتباعه للعمل والبحث عن الرزق الحلال، وذلك هو فى رأينا التصوف العملى الخلقى الحق، الذى يتقيد بالشريعة الغراء وأحكامها الرشيدة، يقول الشاذلى عن الصوفى الصحيح: «للصوفى أربع صفات، التخلق بأخلاق الله، وحسن المجاورة لأوامر الله، وترك الانتصار للنفس حياء من الله، وملازمة البساط بصدق الفناء مع الله»(٥٦).

الشاذلى.. والكرامات:

كان للإمام الشاذلى رضى الله عنه رأى فى الكرامات يقول فيه: «ما ثم، كرامة أعظم من كرامة الإيمان، ومتابعة السنة، فمن أعطيها، وجعل يشتاق إلى غيرهما فهو عبد مفتر، كذاب، أو ذو خطأ فى العلم بالصواب، كمن أكرم بشهود الملك فاشتاق إلى سياسة الدواب، كل كرامة لا يصحبها الرضا من الله، وعن الله، والمحبة لله، ومن الله، فصاحبها مستدرج مغرور أو ناقص هالك مثبور»(٥٧).

ويحدثنا الإمام الشاذلى عن فائدة الكرامة فيقول:

أولًا – فائدة الكرامة: تعريف اليقين من الله تعالى بالعلم والقدرة والإرادة والصفات الأزلية، مجتمع لا يفترق، وأمر لا ينعقد، كأنها صفة واحدة قائمة بذات الواحد، لا يستوى من تعرف الله إليه بنوره، ومن تعرف إليه بعقله.

(٥٢) الأدب الصوفى للدكتور على صافى ص ٣٦.
(٥٣) أحزاب وأوراد الشاذلى بملحق النصوص
(٥٤) الأدب الصوفى للدكتور التفتازانى ص ٦٧، ص ٦٨.
(٥٥) أعلام الإسكندرية للأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال ص ١٧٨.
(٥٦) اتحاف أهل العناية الربانية ص ١١٢.
(٥٧) نور التحقيق من صحة أعمال الطريق ص ١٣٣، ص ١٣٤

ثانيًا – ولأجل أنها تثبت من ظهرت له، فربما وجدها أهل البدايات فى بداياتهم وفقدها أهل النهايات فى نهاياتهم، إذ ما عليه أهل النهايات من الرسوخ فى اليقين والقوة والتمكين لا يحتاجون معه إلى تثبيت، وهكذا كان السلف رضى الله عنهم لم يحوجهم الحق سبحانه وتعالى إلى ظهور الكرامات الحسية، لما أعطاهم من المعارف الغيبية والعلوم الإشهادية.

ثالثًا – لمعرفة تفضيل الله تعالى فيمن أظهرت عليه، شاهدة له بالاستقامة مع الله سبحانه وتعالى.

قال الشاذلى أيضا: «الكرامة الحقيقية إنما هى حصول الاستقامة، والوصول إلى كمالها، ومرجعها أمران: صحة الإيمان بالله عز وجل، واتباع ما جاء به رسول الله ﷺ ظاهرا وباطنا، فالواجب على العبد ألا يحرص إلا عليهما، ولا تكون له همة إلا فى الوصول إليهما، وأما الكرامة بمعنى خرق العادة، فلا عبرة بها عند المحققين، إذ قد يرزق بها من لم تكمل استقامته، وقد يرزق بها المستدرجون»(٥٨).

ومن هذا كله نلاحظ أن الإمام الشاذلى نفسه، يقدر الكرامة المعنوية ويعتبرها الكرامة الصادقة.

أما الكرامات الحسية والتى بالغ فيها أتباعه، وأضفوا عليها شيئا من القداسة كمعجزات الأنبياء، رغم أن افتراءها واضح فقد قرر الشاذلى نفسه، كما رأينا ، أن مثل هذه الأشياء لا عبرة بها عند المحققين، إذ قد يرزق بها المستدرجون ، ومع ذلك فقد ألفوا وافتروا كرامات للشاذلى ما أنزل الله بها من سلطان: منها قولهم: «قال رضى الله عنه : «الشاذلى» ليلة أخذت ميراثى من رسول الله ﷺ مكنت من خزائن السماء، فلو أن الجن والإنس يكتبون عنى إلى يوم القيامة لكلوا وملوا»(٥٩).

وليس معنى ذلك أن كل الكرامات التى قيلت عن الشاذلى غير مقبولة، فهناك كرامات مقبولة كثيرة: منها على سبيل المثال، قول ابن عطاء الله السكندرى «قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى: «كنت فى بعض سياحاتى وقد أويت إلى مغارة بالقرب من مدينة المسلمين فمكثت فيها ثلاثة أيام، لم أذق طعاما، فبعد الثلاثة أيام دخل على ناس من الروم، كانت قد أرست سفينتهم هنالك، فلما رأونى قالوا: قسيس من المسلمين، فوضعوا عندى طعامًا وإدامًا كثيرًا فعجبت كيف رزقت على أيدى الروم ومنعت ذلك من المسلمين؟ وإذا قائل يقول لى، ليس الرجل من نصر بأحبابه، إنما الرجل من نصر بأعدائه»(٦٠).

وفى رحلته الأخيرة إلى الأراضى الحجازية التى توفى وهو فى طريقه إليها، كان قد أوصى أصحابه أن يجهزوا معهم فأسا وحانوطا وبعض الأشياء التى يجهز بها الموتى، وكأن فى ذلك كانت إشارة لقرب أجله.

لقد كان الشاذلى رحمه الله مباركًا تقيًا، فأكرمه الله بأعظم كرامة وهى هداية الناس لطريق الله، والعمل بكتاب الله وسنة رسوله الكريم.

---

(٥٨) نور التحقيق فى صحة أعمال الطريق ص ١٣٣، ١٣٤.

(٥٩) مخطوط تعطير الأنفاس ورقة ٩.

(٦٠) لطائف المنن ص ٦٣.

أصول وتعاليم الطريقة الشاذلية:

تتمثل أصول الطريقة الشاذلية فى تعاليم خمسة: «تقوى الله فى السر والعلانية، واتباع السنة فى الأقوال والأفعال، والإعراض عن الخلق فى الإقبال والإدبار، والرضا عن الله فى القليل والكثير، والرجوع إلى الله تعالى فى السراء والضراء»(٦١).

ونلاحظ أن هناك تشابهًا وصلات قويةً بين الطريقة الشاذلية والطريقة القادرية، فنجد أن أصول القادرية أيضا خمسة «علو الهمة، وحفظ الحرمة، وحسن الخدمة، ونفوذ العزمة، وتعظيم النعمة»(٦٢).

وأصول سائر الطرق خمسة أيضا: «طلب العلم للقيام بالأمر، وصحبة المشايخ والإخوان للتبصر، وترك الرخص والتأويلات للحفظ، وضبط الأوقات بالأوراد للحضور، واتهام النفس فى كل شىء للخروج عن الهوى والسلامة من الغلط»(٦٣).

ولقد أوضح الإمام الشاذلى أساس طريقته حين قال: «طريق القصد إلى الله الذكر، وبساطة العمل الصالح، وثمرته النور، والتفكر، وبساطه الصبر، وثمرته العلم، والفقر، وبساطه الشكر، وثمرته المزيد منه، والحب، وبساطه، بغض الدنيا وأهلها، وثمرته الوصول للمحبوب(٦٤)، ويقول الشاذلى: «خصلتان تسهلان الطريق إلى الله، المعرفة والحب»(٦٥).

والمعرفة لا تأتى إلا عن طريق العلم، أما الحب حقيقة فهو أساس الطريقة الشاذلية، يقول الإمام الشاذلى رضى الله عنه: «إننا ننظر إلى الله ببصر الإيمان والإيقان، فأغنانا عن الدليل والبرهان، فبالحب تهبط المعرفة فى القلب بلا دليل ولا برهان، وإنا لا نرى أحدا من الخلق، هل فى الوجود سوى الملك الحق، وإن كان ولابد فكالهباء فى الهواء، إذا تحققناه لم نجده شيئا»(٦٦).

ويقول الشيخ زروق عن الطريقة الشاذلية(٦٧): الطريقة الشاذلية مبنية على:

١ - الذكر مع الافتكار.

٢ - واليقظة مع الاصطبار.

٣ - وترك التدبير والاختيار.

٤ - والجمع على الله مع عدم التفرقة(٦٨).

---

(٦١) جامع الأصول ص ٤٩.

(٦٢) جامع الأصول ص ٤٩.

(٦٣) نفس المرجع ص ٥٠.

(٦٤) لطائف المنن ص ١١٢.

(٦٥) درة الأسرار ص ٧١.

(٦٦) درة الأسرار ص ٧١

(٦٧) الأصول والأمهات ، لابن زروق ص ١٤.

(٦٨) الجمع على الله: معناه حضور القلب مع الله أو هو شهود الوجود الحق وشهود الأحدية فيه. وأما وجود العوالم والأكوان فوجود متوهم، وذلك عدم التفرقة عن كتاب على سالم عمار «أبو الحسن الشاذلى جـ ٢ ص ٤٣.

١ - وذكر الشاذلية هو ذكر مع افتكار، يقول تعالى: ﴿فاذكرونى أذكركم﴾(٦٩)، ويحدثنا الإمام الشاذلى عن الأذكار فيقول: «الأذكار أربعة ذكر تذكره وهو الذى تطرد به الغفلة، أو ما تخافه من الغفلة، وذكر تذكر به، أى خوف العذاب أو البعد، وحب النعيم أو القرب، وذكر يذكرك أن الحسنات من الله والسيئات من نفسك، وإن كان الله هو الفاعل المختار، وذكر تذكر به: يقول الله فيه ﴿فاذكرونى أذكركم﴾ فيذكر الله عبده به وليس للعبد فيه متعلق، وأن يجرى لسانه وهو موضع الغناء بالذكر، والمذكور العلى الأعلى، فإذا دخلت فيه صار الذاكر مذكورًا والمذكور ذاكرًا»(٧٠).

ويقول الشاذلى: «هن ثلاث: فرغ لسانك للذكر، وقلبك للتفكر، وبدنك لمتابعة الأمر، وأنت إذن من الصالحين»(٧١).

٢ - واليقظة أو المراقبة: «تسير مع الذكر جنبًا إلى جنب، فيجب على الذاكر أن يكون مراقبًا ربه يقظًا حذرًا مما يمر عليه من الخواطر والواقعات»(٧٢).

وتكون المراقبة التامة لهواجس النفس واليقظة لها بدوام بذكر (لا إله إلا الله).

ومن أسس الطريقة الشاذلية: ترك التدبير والاختيار، فأبو الحسن الشاذلى هنا يدعو سالك طريقه - حتى يحصل على المحبة مع الله، أن يترك تدبيره إلى تدبير الله، واختياره إلى اختياره سبحانه وتعالى، فهو مدبر الأشياء، وكل شىء بمشيئته تعالى يقول الشاذلى: «المحبة مع الله برفض الشهوات والمشيئات، ولن يصل العبد إلى الله وقد بقى معه شهوة من شهواته أو مشيئة من مشيئاته»(٧٣).

وقال أيضا: «من انقطع عن تدبيره إلى تدبير الله، ومن اختياره إلى اختيار الله وعن نظره إلى نظر الله، وعن مصالحه إلى علم الله بملازمة التسليم والرضا والتفويض والتوكل على الله، فقد آتاه الله حسن الثواب»(٧٤).

ويتابع الشاذلى آراءه فى ذلك فيقول: «لا تختر من أمرك شيئًا، واختر ألا تختار، وفر من المختار، ومن فرارك ، ومن كل شىء إلى الله «وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة»*(٧٥).

وعن أسبابُ حجب الخلق عن الله تعالى يقول الشاذلى: «أكثر ما حجب الخلق عن الله شيئان: هَمّ الرزق، وخوف الخلق، وهم الرزق أشد الحجابين، وذلك لأن أكثر الناس يخلون من خوف الخلق،

---

(٦٩) آية ١٥٢ سورة البقرة.
(٧٠) المفاخر العلية ص ٤٩، ٧١.
(٧١) المصدر السابق نفس الصفحات.
(٧٢) كتاب أبو الحسن الشادلى: لعلى سالم عمار جـ ٢ ص ٦٥.
(٧٣) درة الأسرار ص ١١٤.
(٧٤، ٧٥) المفاخر العلية ص ٧٨، ٧٩ على التوالى.
* سورة القصص - آية (٦٨).

ولكنهم لا يخلو أحد منهم من هَمّ الرزق إلا القليل، لاسيا وشاهد الفاقة قائم بوجود ذلك، فأنت مفتقر إلى ما يقيم بنيتك ويشد قوتك»(٧٦).

وهنا يحسن بنا أن نتوقف قليلاً ونتمهل فى العرض، فقد يفهم من هذا كله أن الشيخ الشاذلى من الآخذين بمذهب الجبر، وأن فى هذا القول بترك التدبير والاختيار لله وحده، قولاً بالسلبية والتواكل.

إن الشاذلى يدعو إلى التوكل على الله، لا إلى التواكل والخمول، ولقد ذكرنا من قبل كيف كان يكره المريد المتعطل الذى لا عمل له، بل إنه يعد واحدًا من كبار الصوفية الداعين للأخذ بالأسباب.

يقول ابن عطاء الله السكندرى تلميذ تلميذه الكبير أبى العباس المرسى: قال شيخى أبو العباس المرسى: «.. نحن إذا صحبنا تاجرًا ما نقول له اترك صنعتك وتعال، أو طالب علم ما نقول له إترك طلبك وتعال، ولكن نقر كل واحد فيما أقامه الله تعالى، وما قسمه له على أيدينا هو واصل إليه.

«وقد صحب رسول الله ﷺ صحابة فما قال لتاجر: اترك تجارتك ولا لذى صنعة اترك صنعتك، بل أقرهم على أسبابهم وأمرهم بتقوى الله فيها»(٧٧).

.. ويقول صاحب «المفاخر العلية»: «والسادة الشاذلية رضى الله عنهم أشد المشايخ حثا على عمل الحرفة، حتى كان الشيخ أبو العباس المرسى يقول: عليكم بالسبب، وليجعل أحدكم مكوكه سبحته، أو تحريك أصابعه فى الخياطة سبحته أو الضفر»(٧٨).

ولقد تحدث عن التدبير ابن عطاء الله السكندرى فى كتابه: «التنوير فى إسقاط التدبير» بأسلوب رائع فقال: واعلم أن التدبير أكثر جريانه على العباد المتوجهين إلى الله، وأهل السلوك من المريدين قبل الرسوخ فى اليقين ووجود القوة والتمكين، وذلك لأن أهل الغفلة، قد أجابوا الشيطان فى الكبائر والمخالفات واتباع الشهوات، وليس هو أكبر أسبابه فيهم، وإنما يدخل الشيطان على أهل الطاعات والمتوجهين لعجزه عن أن يدخل من غير ذلك عليهم فرب صاحب ورد عطله عن ورده، أو عن الحضور مع الله، ورب مريد استضعفه الشيطان، وألقى إليه دسائس التدبير، ليعكر عليه صفاء قلبه»(٧٩).

وبعد ذلك يلقى ابن عطاء الله السكندرى الضوء على الأدلة التى تحمله على ترك التدبير والاختيار فيقول:(٨٠).

---

(٧٦) التنوير فى إسقاط التدبير لابن عطاء الله السكندرى ص ٦٣.

(٧٧) لطائف المنن ص ٦٥.

(٧٨) المفاخر العلية ص ٦٠.

(٧٩) التنوير لابن عطاء الله ص ٣٥.

(٨٠) التنوير لابن عطاء الله ص ٣٥.

واعلم أن الذى يحملك على ترك التدبير والاختيار أمور:

١ - علمك بسابق تدبير الله فيك، وذلك أن تعلم أن الله كان لك قبل أن تكون لنفسك فكن له كما كنت.

٢ - أن تعلم أن التدبير منك لنفسك معناه: حسن نظر الإنسان لنفسه.

٣ - أن القدر لا يجرى حسب تدبير الإنسان لنفسه.

٤ - أن الله هو المتولى تدبير مملكته، وماذا يكون الإنسان فى هذه المملكة فالاهتمام بالتدبير جهل بالله.

٥ - علمك أنك ملك الله، فليس لله معه تدبير ما هو لغيره، فما ليس لك فى ملكه ليس لك تدبيره، وإنك بايعت الله، فلا ينبغى لعبد بعد المبايعة تدبير أو منازعة، وإلا كان ذلك نقضا للمبايعة.

٦ - إنك فى ضيافة الله، لأن الدنيا دار الله وأنت نازل فيها عليه، ومن حق الضيف ألا يعول هما مع رب المنزل.

٧ - النظر إلى قيومية الله فى كل شىء، فهو قيوم الدنيا والآخرة، فى الدنيا بالرزق والعطاء، وفى الآخرة، بالأجر والجزاء، فإذا علم العبد قيومية ربه وقيامه عليه ألقى قياده إليه وانطرح بالاستسلام بين يديه.

٨ - اشتغال العبد بوظائف العبودية، فإذا توجهت همة العبد إلى رعاية عبوديته، شغله ذلك عن التدبير لنفسه.

٩ - إنك عبد مربوب، وحق العبد ألا يعول همًّا مع سيده، فإن مقام العبودية للثقة بالله والاستسلام إليه.

١٠ - عدم العلم بعواقب الأمور، فربما دبرت أمرًا ظننت أنه لك فكان عليك.

من هذا كله فإن الإمام الشاذلى كما ذكرت سابقًا ليس كأهل الجبر الذين يعتقدون أن الإنسان كالريشة المعلقة فى مهب الرياح يحركها الله كيف يشاء، ذلك أن الإنسان فى نظر هؤلاء الجبريين لا اختيار له ولا قدرة، وأن الله قدر الأعمال أزلاً وخلقها.

لم يقل الشاذلى بمثل هذا الرأى الجبرى وإنما - على ما بينا - كان صاحب دعوة إلى التوكل على الله، فى كل الأعمال، وتفويض الأمر إليه دون أن يدعو مريديه إلى التواكل، وإنما يدعوهم إلى التكسب والعمل والسعى فى الأرض والكفاح فيها، فالطريق الشاذلى طريق عمل ودعوة إلى الأخذ بالأسباب وليس طريق تواكل، وإنما طريق عمل بكتاب الله وسنة رسوله، فالطريقة الشاذلية كما يقول الدكتور على صافى: «تقوم من الناحية السلوكية على العمل بالكتاب والسنة، أعنى أن الشاذلى يلزم أصحابه وأتباعه ألا يقولوا قولاً يخالف فى ظاهره ما تعارف عليه أهل السنة والجماعة من جهة، ولاما

يأباه ظاهر الكتاب والسنة من جهة أخرى، ثم تلاوة الأحزاب، وعقد مجالس الذكر التى قد تنشد فيها الأشعار، هذا من الناحية العملية.

أما من الناحية النظرية: «فإن طريقة الشاذلى تقوم أولاً على الاعتقاد بأن الموجود شيئان، خالق ومخلوق، أو رب ومربوب، أو عباد وإله معبود، وهو فى إيمانه بالله وتصوره العلاقة بينه وبين الخلق متفق مع مذهب الأشاعرة وأهل السنة»(٨١).

حقًا كما أكدنا من خلال هذا الكتاب لقد كان الشاذلى صوفيًا متسننًا عاملاً بكتاب الله وسنة رسوله.

الشاذلى.. والسماع:

كان الإمام الشاذلى رحمه الله من القائلين بعدم إباحة السماع لأهل الطريق، ويقول فى ذلك ابن عطاء الله: «قيل لسيدى أبى الحسن لم يا سيدى لا تحب السماع؟ فقال: السماع من الخلق جفاء»(٨٢).

وقال الشاذلى: «سألت أستاذى – يقصد ابن مشيش – رحمه الله عن السماع: فأجابنى بقوله تعالى: ﴿إنهم ألفوا آباءهم ضالين، فهم على آثارهم يهرعون﴾ الآيتان ٦٩ – ٧٠ من سورة الصافات.

وهناك نصوص كثيرة تؤكد أن الإمام الشاذلى من المنكرين للسماع، مع أن بعض أتباعه الآن يستخدمون فى احتفالاتهم وموالدهم الموسيقى والإنشاد.

وهأنذا أقدم نصًا آخر يؤكد، انفصال الخلف عن السلف، باستعمالهم أدوات الموسيقى والغناء، مع أن شيخهم الأكبر للطريقة الشاذلية لم يقل بهذا أبدًا.

قال الشاذلى رحمه الله: «رأيت فى النوم كأن بين يدى كتاب الفقيه ابن عبد السلام، وأوراقًا فيها شعر من جزء، وإذا بأستاذى رحمه الله واقف، فتناول كتاب الفقيه بيمينه والأوراق بشماله، فقال لى كالمستهزئ: أتعدلون عن العلوم الذكية؟ وأشار بيده إلى كتاب الفقيه إلى أشعار ذوى الأهواء الرديئة وأشار بيده إلى أوراق الشعر، ثم رماه فى الأرض وقال لى: من أكثر من هذا فهو عبد مرقوق لهواه، وأسير لشهوته ومناه، يسترقون بها القلوب بالغفلة والنسيان، ولا إرادة لهم فى عمل الخير واكتساب العرفان، يتمايلون عند سماعها تمايل اليهود، ولم يحظ أحد منهم بما حظى أهل الشهود، لئن لم ينته الظالم ليقلبن الله أرضه سماء وسماءه أرضًا»(٨٣).

---

(٨١) الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى ص ٤١.

(٨٢) لطائف المنن ص ٥١.

(٨٣) الحقيقة العلية للسيوطى ص ٩١.

ويقول الحافظ جلال الدين السيوطى: «وكان الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه ليس فى طريقه السماع»(٨٤).

من هذا كله يتضح لنا بجلاء أن إمام الطريقة الشاذلية ورائدها لم يأذن لأتباعه بالسماع ومع ذلك فقد خالفوا شيخهم العظيم.

وها نحن نراهم فى مناسباتهم المختلفة، يقبلون على السماع يستمعون أو يسمعون وهذا على خلاف ما قال به الإمام الشاذلى(٨٥)

---

(٨٤) المفاخر العلية ص ١٥٠.

(٨٥) أشرت من قبل أن موقفى من السماع قد تغير بعد تحقيق أحاديث تحريم الغناء من خلال ابن حزم مثل: حديث السيدة عائشة رضى الله عنها «إن الله حرّم المغنية وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع إليها».

ففى سند هذا الحديث من الرواة «ليث» وهو ضعيف، وسعيد بن أبى رزين، وهو مجهول لا يدرى من هو؟ عن أخيه.. وإذا كان هو ما يُعرف وقد سُمّى فكيف أخوه الذى لم يسم؟

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ جَلَس إلى قينةٍ فَسمع منها صَبَّ الله فى أذنيه الآنُكُ يوم القيامة» والآنُكُ هو الرصاص المذاب.

قال ابن حزم: هذا حديث موضوع فضيحة، ما عُرِف قط عن طريق أنس.

وعن مكحول عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «من مات وعنده جارية مغنية فلا تصلوا عليه».

قال ابن حزم. مكحول لم يلق عائشة، وهاشم وعمر الراويان مجاهيل.

وعن معاوية قال: نهى رسول الله ﷺ عن تسع، وأنا أنهاكم عنهن الآن، فَذَكَرَ فيهن الغناء والنوح».

قال ابن حزم: فى رواته محمد بن المهاجر ضعيف وكيسان مجهول

وعن على بن أبى طالب قال. قال رسول الله ﷺ: «إذا علمت أمتى خمس عشرة خصلة حلّ بها البلاء.. منهن «واتخذوا القينات [أى: الإماء المغنيات] والمعازف، فليتوقفوا عند ذلك ريحا حمراء ومسخا وخسفا».

قال ابن حزم فى رواة هذا الحديث: لاحق بن الحسين وضرار بن علىّ والحِمْصِ وهم مجهولون. وفرج ابن فضالة متروك.

وروى أبو داود بسنده عن شيخ! عن ابن مسعود يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الغناء ينبت النفاق فى القلب».

يقول ابن حزم: الرواية عن شيخ عجب جدًّا! من هذا الشيخ؟!

أما الإمام البخارى فهو صاحب أصح كتاب بعد القرآن الكريم وهو صحيح البخارى وما جاء به صحيح. ومعلقاته يُؤخذ بها.. وقد روى البخارى معلقا عن أبى مالك الأشعرى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول. ليكونن من أمتى قوم يستحلون الخز والحرير والخمر والمعازف».

وكما قلنا فإن معلقات البخارى يؤخذ بها لأنها متصلة الأسانيد إلاّ أن السند فى هذا الحديث بالذات منقطع لأنه لم يتصل ما بين البخارى وصدقة بن خالد راوى الحديث.

ولعل البخارى يقصد جميع أجزاء الصورة التى تضم الخمر والغناء والموسيقى والفسوق.. وهذا حرام بالإجماع.

وبحث ابن حزم فى قول الله تعالى: ﴿ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله﴾ فنفى أن تكون فى الغناء وقال إن نصها يشرح المراد منها، فإن من يريد أن يضل عن سبيل الله واتخاذها هزوا كافر بإجماع المسلمين. ولو أن امرءًا اشترى مصحفًا ليضل عن سبيل الله لكان كافرًا.

وبعد هذه الرؤية المحققة نستطيع أن نقول: إن الغناء كلام جَميلُهُ جميل وقبيحه قبيح.. فكل الأغانى الهابطة التى تدعو إلى الآثام والرغبات حرام.. أما الأغانى الرفيعة الكلمات الحسنة الأداء الدينية والوطنية والاجتماعية والعاطفية الرقيقة المشاعر النقية المعانى فلا حرمة فى سماعها أو أدائها.. والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم.

كيفية الانتساب إلى الطريقة الشاذلية:

يرى الشيخ زروق أن الانتساب للطريقة الشاذلية يكون عن طريق أخذ العهد، أى الأخذ والمصافحة ثم التلقى والمتابعة.

أما الشيخ إبراهيم المواهبى فيقول عن كيفية الانتساب للطريقة الشاذلية ما يلى: «اعلم أن الأخذ على أربعة أقسام:

أحدها - أخذ المصافحة والتلقين للذكر، ولبس الخرقة، والعذبة للتبرك أو النسبة فقط.

وثانيها - أخذ رواية، وهى قراءة كتبهم من غير حل لمعانيها، وهو قد يكون للتبرك، أو للنسبة أيضًا فقط.

وثالثها - أخذ دراية، وهو حل كتبهم لإدراك معانيها كذلك فقط من غير عمل بها.

ورابعها- أخذ تدريب وتهذيب وترق فى الخدمة بالمجاهدة للمشاهدة.

ويقول صاحب المفاخر العلية: «وينبغى لمن انتسب إلى ولى من أولياء الله أن يتشبه به فى أصول طريقته، وفروعها المهمة ثم لا عليه من دقائقها، ويعلم أن هذا الولى باب من أبواب الله تعالى يقف به ليأتيه من ذلك الباب نفحة رحمة على حسب مراده وقصده، وليكن قصده القرب لله تعالى دون ما سواه»(٨٦).

فروع الطريقة الشاذلية:

فروع الطريقة الشاذلية بمصر هى:

البكرية - السلامية - الخواطرية - القاوقجية - الوفائية - الحامدية - الجوهرية - العزمية - الفيضية - الهاشمية - السمانية - العفيفية - القاسمية - العروسية - الهندوشية.

أما فروع الشاذلية بالمغرب العربى فهى:

الجازولية: وهى الشاذلية بعد أن تناولها المراكشيون بالإصلاح حوالى سنة ١٤٦٥ م، أى حوالى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى.

وللجازولية الشاذلية فروع بالمغرب العربى هى: الدرقاوة، والحمادشة، والعيسوية، والشرقاوة، والطيبة.

وهناك فروع أخرى للطريقة الشاذلية بالمغرب العربى.

وهى العلوية: (فرع جزائرى من الدرقاوة بمستغنام بنى علوية) والطريقة الدغوغية والرباحية

---

(٨٦) المفاخر العلية ص ١٥٢.

والقاسمية – والصداقية، وهى فروع للحمادسة الشاذلية فى «مكناس»، و «صلا»، والطريقة الزروقية الشاذلية بمدينة فاس.

والطريقة السهيلية: فرع جزائرى للطريقة الشاذلية أنشئ فى القرن التاسع عشر.

والطريقة الناصرية: فرع «مراكش» من الشاذلية فى «تمكيرون» (أنشئ فى القرن ١٧ م).

والطريقة الشبية: (الفرع التونسى للناصرية الشاذلية).

والطريقة اليوسفية: (فرع من الشاذلية المغربية فى «مليانة» «أنشئ فى القرن ١٦ م»).

والطريقة المدنية: (فرع «طرابلس» من الدرقاوة فى «مصراطة»).

والطريقة الكرازية: (فرع من الشاذلية فى مدينة «تافيلات» الجزائرية. «أنشئ فى القرن ١٩ م»).

والطريقة الحبيبية: (فرع من الشاذلية فى تافيلات «أنشئ سنة ١٨٥٢ م»).

والطريقة السنوسية: (أسسها سيدى محمد بن على السنوسى الكبير بليبيا سنة ١٢٥٠ هـ).

رابعًا – ما أخذه ابن تيمية ومدرسته على الشاذلى:

أخذ ابن تيمية على الإمام الشاذلى عدة نقاط هاجمه فيها وهى:

١ – قول الشاذلى للمرسى: «إذا عرضت لك عند الله حاجة فأقسم عليه بى»[(٨٧)].

٢ – قوله فى حزب البحر فى توسلاته لله: (نسألك العصمة فى الحركات والسكنات والكلمات والإرادات والخطرات من الشكوك والظنون والأوهام الساترة للقلوب عن مطالعة الغيوب)، فأنكرت مدرسة ابن تيمية عليه سؤال العصمة لأنه لا عصمة لغير الأنبياء.

٣ – قوله فى حزب البر مخاطبًا الحضرة الإلهية: «وليس من الكرم أن لا تحسن إلا لمن أحسن إليك، وأنت المفضال الغنى، بل من الكرم أن تحسن إلى من أساء إليك، وأنت الرحيم العلى»، وقالوا: إن هذا يخالف قول العزيز الحكيم: ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها﴾*.

١ – النقطة الأولى[(٨٨)].

إنكار ابن تيمية على الإمام الشاذلى رضى الله عنه قوله: «إذا عرضت لك حاجة عند الله فاقسم عليه بى».

يقول الأستاذ عمار فى كتابه عن الشاذلى: «وابن تيمية ومن تابعه لا يجيزون القسم على الله

---

(٨٧) شرح حرب البر للفاسى ص ١٠٥.

* سورة الإسراء – آية ٧

(٨٨) اعتمدنا فى الرد على ابن تيمية فى هذه النقطة على كتاب جلاء العينين بمحاكمة الأحمدين ص ٢٧٦، وص ٢٩٨ وكتاب «أبو الحسن الشاذلى» جـ ٢ للأستاذ على سالم عمار من ص ٢٥٠ إلى ٢٥٨ بتلخيص وإيجاز، وكتاب المفاخر العلية لابن عياد ص ١٢٧، ١٢٨

بالمخلوق، وهم يضعون التوسل والاستشفاع بالمخلوق، فلا يجوز القسم عندهم بالمخلوق، وإنما يكون بالله وأسمائه وصفاته أصلاً كما لا يستفاد بالمخلوق، والتوسل والشفاعة لا تكون إلا بالعبادة والأعمال الصالحة.

وفسر المانعون معنى الوسيلة فى قوله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة﴾* فقالوا: الوسيلة هى الأعمال الصالحة، وليست شفاعةً كما فى قوله تعالى: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾**، والمانعون لا يفرقون فى هذا بين الولى، وبين النبى، فلا يجوز التوسل بأحد، كما أنهم يطلقون القول بذلك للناس جميعًا، ولا فرق عندهم فيها بين العام والخاص، ولا بين العالم والجاهل.

أما المجوزون: فجمهرة من أئمة علماء السلف يجيزون التوسل والاستشفاع بالنبى ﷺ، وبالصالحين حال الحياة وبعد الموت، منهم على ما يقول صاحب جلاء العينين: ابن السبكى، والقسطلانى، وابن حجر، والسمهودى، وابن الجزرى، وابن الحاج، وابن عرفة، وغيرهم(٨٩).

وهم يعتمدون فى ذلك على بعض الأحاديث النبوية الشريفة، مثل ما رواه الترمذى فى جامعه والنسائى فى عمل اليوم والليلة، وابن ماجه فى السنن، والحاكم فى المستدرك، والبيهقى فى كتابى (الدعوات) و (دلائل النبوة)، والطبرانى فى معاجمه، وغيرهم عن عثمان بن حنيف أنه كان قاعدا مع النبى ﷺ، فجاء ضرير يشكو ذهاب بصره، ويسأل النبى ﷺ، أن يدعو الله ليرد بصره عليه، فقال النبى ﷺ: (أو تصبر خير لك)؟ فقال الضرير: ليس لى قائد وقد شق على ذهاب بصرى، فأمره النبى ﷺ أن يتوضأ، ويصلى ركعتين، ثم يدعو، بهذا الدعاء: اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة، يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربى فى حاجتى هذه لتقضى لى – وتذكر حاجتك – اللهم فشفعه فى «قال عثمان: فلم يطل بنا الحديث حتى جاء الضرير وكأنه لم يكن به ضرر قط.

صحح هذا الحديث الترمذى، والطبرانى، والحاكم، والبيهقى، والذهبى، والمنذرى، والعسقلانى، والسيوطى، وغيرهم من الحفاظ.

ومن أدلة المجوزين أيضا الحديث المروى عن النبى ﷺ وهو: (إن من عباد الله تعالى من لو أقسم على الله لأبره).

---

* سورة المائدة – آية (٣٥).

** سورة الإسراء آية (٥٧).

(٨٩) نلاحظ أن الشفاعة موجودة أيضا فى الفكر الشيعى. يقول الشيخ المفيد الشيعى: «إن الإمامية اتفقت على أن الرسول ﷺ يشفع يوم القيامة لجماعة من مرتكبى الكبائر من أمته، وإن أمير المؤمنين (على بن أبى طالب) يشفع فى أصحاب الذنوب من شيعته، وإن أئمة آل محمد ﷺ يشفعون كذلك، وينجى الله بشفاعته الكثير من الخاطئين». الصلة بين التصوف والتشيع للدكتور الشيبى ص ٣٩٩ عن أوائل المقالات للشيخ المفيد الشيعى ص ٤٧.

رأى الشاذلى فى الوسيلة والشفاعة:

للشيخ الشاذلى قولان: قول عام، وقول خاص.

١ - قول لعامة الناس الذين لم تنضج أفكارهم وأفهامهم فى التوحيد، فهو يفتيهم بما يتفق، ورأى المانعين حتى لا تتسرب الشبهة إليهم من أن للمخلوق فعلا، أو أن الشفاعة والوسيلة تصح دون العمل الصالح.

.. يقول ابن عياد (قال لرجل قد أحاط به الهم والغم حتى كان يمنعه عن الأكل والشرب والنوم: يا ابن فلان، اسكن لقضاء الله، وعلق قلبك بالله، ولا تيأس من روح الله، وانتظر الفرج من الله، وإياك والشرك بالله، والنفاق مع رسول الله ﷺ، وسوء الظن بالله، فإنها موصلة لدوائر السوء من الله، موجبة لغضب الله، ولعنته، وإعداد ناره ﴿وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا﴾*. قال: فرأيت أسيرا مربوطا بين يدى رسول الله ﷺ وهو يتلو: ﴿يأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيرًا يؤتكم خيرًا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم، وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم﴾** فقلت ما النفاق مع رسول الله ﷺ؟ قال: التظاهر بالسنة والله يعلم منك غير ذلك قلت: وما الشرك بالله؟ قال: اتخاذ الأولياء والشفعاء من دون الله ﴿ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون﴾***، فما سوء الظن بالله؟ قال: من رجا غير الله، واستنصر بغير الله، يئس من الله أن ينصره فقد ساء ظنه بالله، ﴿من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ﴾***.

هنا نجد الشاذلى مع هذه الفئة غير الناضجة والحائرة بين الشك واليقين يفتيهم بالمنع، لأن الوسيلة هنا بالنسبة لهم نوع من الشرك نتيجة جهلهم، وهذا قوله بالنسبة للشفاعة لمثل هؤلاء العامة من الناس.

.. أما القول الخاص: فهو لأفراد المحبين، والذين لا سلطان على قلوبهم لغير محبوبهم، ولا مشيئة لهم غير مشيئته، والذين أثبتوا لله ما هو حق له، وأثبتوا لأنفسهم ما هو حق لها، وهم مأخوذون بما هو حق لهم، باقون بما هو حق له، فإذا أقسموا مدللين على الله بفعل من أفعاله، أو أثر من صفاته، فإنما يشهدون فى ذلك الفاعل المختار دون ذات الفعل أو الأثر.

يقول الشاذلى لأهل الخصوص: (الشفاعة هى انصباب النور على جوهر النبوة، فينبسط إلى أهل الشفاعة من الأنبياء والأولياء، وتندفع الأنوار بهم إلى الخلق)(٩٠).

---

* سورة الفتح - آية (٦).

** سورة الأنفال - آيتا (٧٠ - ٧١).

*** سورة السجدة - آية (٤).

*** سورة الحج آية (١٥).

(٩٠) المفاخر العلية ص ١٢٨.

فالأولياء شفعاء للمؤمنين فيما ليس بكفر ولا معصية، كما يقول الشاذلى لذلك الرجل، «فى حق بحق»، وشفاعة الكافر والعاصى هى التوبة، والشفاعة للمؤمنين بالدعاء لهم، والتوسل إلى الله أن يرفع درجاتهم بوصف أن الأولياء ورثة الأنبياء، ينوبون عن صاحب الرسالة، والشفاعة، ويقومون مقامه متى لزم ذلك، وطلب منهم فاستجابوا للسائلين، وهى بذلك تكون شفاعة مأذونة.

ويرى الأستاذ عمار وهو شاذلى الطريقة، أن معنى ذلك كله: (أن الشاذلى يعلم حقيقة الشفاعة تمامًا، وهو ليس بالرجل الشعبى العادى، الذى يجهل دقائق العلم وخطورة الموقف، وهو حينما قال للمرسى: «اقسم على الله بى»، إنما قصد القسم بالمحبة القائمة بينهما فى الله، وبالله وله، ولم يقصد القسم بذاته أى شخص الشاذلى) ومن كالمرسى من عامة الأتباع وهو المستهلك فى محبة الله ومن المدللين عليه؟.

ولابد أن أشير إلى أن معروفًا الكرخى قالها قبل الشاذلى، فقد ذكر القشيرى أن معروفًا الكرخى، قال لتلميذه السرى السقطى المتوفى ٢٥٣ هـ (إذا كانت لك حاجة إلى الله فاقسم عليه بى)[٩١].

أما رأينا الذى نرتضيه، فهو أنه من جهة القسم باسم ولى من أولياء الله تعالى أو غيره حيا أو ميتا، فلا يجوز لحديث عمر وهو يحلف بأبيه فقال: (إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت) «متفق عليه».

وفى رواية قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان حالفا فلا يحلف إلا بالله»، وكانت قريش تحلف بآبائها، فقال: «لا تحلفوا بآبائكم» رواه مسلم وأحمد والنسائى.

يقول فضيلة الشيخ حسنين مخلوف: (والحلف بغير الله تعالى حرام كما جزم به ابن حزم، أو مكروه كما جزم به إمام الحرمين).

وللمالكية والحنابلة قولان، وجمهور الشافعية على أنه مكروه تنزيها، وقال بعض الفقهاء: إن اعتقد فى المخلوقات به ما يعتقد فى الله تعالى كان بذلك الاعتقاد كافرا. (ذكره الشوكانى).

ومن هذا يعلم أنه يحرم أو يكره الحلف بالنبى وبالولى وبالأب وغيرهم[٩٢].

ومن جهة قول الإمام الشاذلى لتلميذه أبى العباس المرسى: إذا عرضت لك عند الله حاجة فاقسم عليه بى، فالحق أننا نرى أنه قول نأخذه على الإمام الشاذلى، ذلك أنه ليس فى الإسلام وسائط بين العبد وربه تعالى، يقول رسول الله ﷺ (إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك).

وفى الحديث القدسى: «يا عبادى، كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم، يا عبادى: كلكم

---

(٩١) أبو الحسن الشاذلى للأستاذ على سالم عمار ج ٢ ص ٢٥٨، ٢٥٩.

(٩٢) فتاوى شرعية للشيخ حسنين مخلوف الجزء الثانى ص ٩١

جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم، يا عبادى: كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم».

فالعبودية الخالصة لوجه الله تعالى تقتضى منا أن نتجرد عن الوسائط، يقول تعالى: ﴿فاعبد الله مخلصا له الدين﴾*. ذلك أنه وحده مالك كل شيء، وهو وحده الذى ينفع ويضر، وهو على كل شيء قدير.

أما النقطة الثانية التى أخذها ابن تيمية ومدرسته على الإمام الشاذلى، وهى قوله فى توسلاته لله، «نسألك العصمة فى الحركات والسكنات والكلمات والإرادات والخطرات من الشكوك والظنون والأوهام السائرة للقلوب عن مطالعة الغيوب»، فهنا أنكرت عليه مدرسة ابن تيمية سؤال العصمة، لأنه لا عصمة لغير الأنبياء.

والحق أن الشاذلى لا يقصد بالعصمة حرفيتها، وإنما بمعنى الوقاية والحفظ، وقد وردت كلمة «عصمة» بهذا المعنى فى بعض من آيات الله المباركات.

﴿قال لا عاصم اليوم من أمر الله﴾** وقال تعالى أيضا ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة، ما لهم من الله من عاصم﴾*** وقال تعالى: ﴿قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءًا أو أراد بكم رحمة﴾ آية ١٧ - الأحزاب.

وقوله سبحانه ﴿والله يعصمك من الناس﴾ آية ٦٧ - المائدة.

لقد كان الشاذلى يريد من لفظة «عصمة» فى هذا التوسل أن يحفظه ويقيه.

هذا ومن قبل الشاذلى بحوالى أربعة قرون، قال إبراهيم بن أدهم: (ت حوالى ١٧٨ هـ)، فى طوافه بمكة «يارب اعصمنى حتى لا أعصيك أبدًا»(٩٣).

أما النقطة الثالثة: وهى قول الشاذلى فى حزب البر أيضا فى تضرعه إلى الله: «وليس من الكرم أن لا تحسن إلا لمن أحسن إليك، وأنت المفضال الغنى، بل من الكرم أن تحسن إلى من أساء إليك، وأنت الرحيم العلى، كيف وقد أمرتنا أن نحسن إلى من أساء إلينا، فأنت أولى بذلك منا ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾***.

فقد أخذت عليه مدرسة ابن تيمية توجيه مثل هذا الخطاب إلى الله بقوله أحسن إلى الله وأساء إلى الله، وفى القرآن الكريم ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة..﴾***.

---

* سورة الزمر - آية (٢)

** سورة هود - آية (٤٣)

*** سورة يونس - آية (٢٧).

(٩٣) قوت القلوب جـ ٢ ص ١٢٦.

*** سورة الأعراف - آية (٢٣).

*** سورة الإسراء - آية (٧).

ويبدو لنا أن ابن تيمية كان محقا فى مأخذه هذا على الشاذلى، فمن الصعب أن نخاطب الحضرة الإلهية بهذا الأسلوب.

وقد حاول الشاذلية من شراح حزب البر، أن يدافعوا عن شيخهم فى هذا، قال أحدهم[٩٤] (قوله: إلا لمن أحسن إليك): رأيت بخط سيدى عبد النور رحمه الله قوله: (إليك): «هذا وكذا على قوله أساء بعدما صورته كذا، وذلك لأنه محل الإشكال، وتوهم المخالفة لقوله تعالى: ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم﴾ الآية، وكذا وجدت منسوبا لسيدى عبدالله بن عباد ما نصه: ينبغى أن يسقط إليك من قوله: «أحسن وأساء» لأنه لا يحسن أحد إلى الله، ولا يسىء إليه، بدليل قوله ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها﴾، غير أنه لا يقدر أحد أن يبدل لفظ الشيخ رضى الله عنه، لأنه يرى بنور الولاية ما لا يراه غيره.

ثم يتابع الفاسى دفاعه فيقول: وقد قال رضى الله[٩٥] عنه أيضا: «كثيرا وما رأيت فى النسخ الصحيحة مكتوبًا، على هذا الفصل «من كان له مع الله بسط حال أو دلائل فليتم بهذه الكلمات، ومن ليس له ذلك فليجاوزها إلى ما بعدها من قوله ظلمنا أنفسنا»[٩٦].

وقال البرزلى «رأيت فى بعض النسخ على هذا الموضع: وهى التى قد أخذناها عن شيخنا الحسن البطوينى، عن الشيخ أبى العزائم سيدى ماضى عن الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه: يسلم لهذا الشيخ فى هذا الموضع ولا يقاس عليه»[١٠٨].

وبعد ذلك يقول رأيت «المفضال الغنى» وإنما جاء الكلام كذلك على سبيل الفرض بالنظر لصورة الحال، وما يقصده العبد من النصح لجناب الحق والوفاء لما يستطيعه، ويقدر عليه فى عزمه وتصميمه، ووجود ضد ذلك منه، فقد جاء النظر بصورة الظاهر، واعتباره فى الشرع كقوله تعالى إنما هو على سبيل المجاز لتعذر الحقيقة فى ذلك، ويشهد لذلك الحديث الإلهى «يا عبادى إنكم لم تبلغوا ضرى فتضرونى» الحديث[٩٨].

ورأينا فى ذلك: أن المدافع عن الشاذلى هكذا نسى قول الله تعالى: ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم..﴾، ولهذا فقد جانب الشاذلى الحق حين خاطب الحضرة الإلهية بهذه الصورة «أحسن إلى الله، وأساء إلى الله»، فلا شك عندنا أن فى هذا القول إساءةً إلى الكريم الوهاب، نأخذها على الإمام الجليل الشاذلى رضى الله عنه رضوانا عظيما.

---

(٩٤) الشيخ عبد الرحمن الفاسى: شرح حرب البر ص ١٤٠، ١٤١.

(٩٥) يقصد الشيخ عبدالله بن عباد.

(٩٦) شرح حزب البر الفاسى ص ١٤١.

(٩٧) المرجع السابق ص ١٤١.

(٩٨) من حديث قدسى أوله «إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته محرما بينكم» رواه مسلم وابن حبان والحاكم

الشـاذلى
إنتاجه.. وتراثه

من المعروف أن الإمام الشاذلى لم يترك كتبا، ولما سئل لمَ لمْ تؤلف الكتب قال: كتبى أصحابى.

والتراث الخالد الذى تركه معظم أصحاب الطرق الصوفية لتلاميذهم وأتباعهم يتمثل فى أحزابهم وأورادهم ووصاياهم لهؤلاء الأصحاب والأتباع.

يقول الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود فى مقدمته لكتاب شرح حزب البر للفاسى نقلا عن صاحب المفاخر: «اعلم أن أحزاب الشيخ رضى الله عنه، جامعة بين إفادة العلم، وآداب التوحيد، وتعريف الطريقة، وتلويح الحقيقة، وذكر جلال الله تعالى وعظمته وكبريائه، وذكر حقارة النفس وخستها، والتنبيه على خدعها وغوايتها، والإشارة لوصف الدنيا والخلق، وطريق الفرار من ذلك ووجه حصوله، والتذكر بالذنوب والعيوب، والتنصل منها مع الدلالة على خاص التوحيد وخالصه، واتباع الشرع ومطالبه، فى تعليم فى قالب التوجيه، وتوجيه فى قالب التعليم».

حقيقة أن أحزاب الشاذلى تكشف عن طاقة روحية هائلة، وقدرة خلاقة على التعبير عن الومضات الروحية، والإشراقات والجوانب الانفعالية الإنسانية، وتكشف عن إبداع فنى جميل، «ولا غرو، فإن التعبير الصوفى بجملته لا يخرج فى الحقيقة وواقع الأمر عن طابع العمل الفنى، إذ الأحوال الصوفية وما يعترى قلوب المتصوفين من تواجد وانجذاب، أو ما يمثلونه فى حياتهم أثناء اليقظة أو فى المنام من مدركات وجدانية، لا تختلف فى شيء عن حقيقة الفن ومعناه، إذ هو - أعنى الفن - لم يخرج فى كنهه وواقع وجوده وتحققه ككائن روحى عن كونه تعبيرًا صادقًا أو تصويرًا رائعًا لواقع الحياة على وجدان الفنان، والعمل الفنى فى ذاته ليس إلا فهم الفنان للكائنات والموجودات، لا بالعقل والفكر ولكن بالشعور والوجدان»(٩٩).

وكنموذج من أحزاب الشاذلى، سأقدم هذا النص الرائع «وهو حزب البر»، وهو أجمل أحزاب الشاذلى، مما جعل المرحوم الدكتور زكى مبارك يقول عنه: «إنها خير ما أنتجت القرائح، ولا يغنى ما فيها من قوة المعنى وطرافة الخيال، إن فقرات الحزب تحتوى على دقائق الأسرار والإشارات التى لا يفهمها إلا كبار الحكماء»(١٠٠).

ولقد رتبه وارثه سيدى أبو العباس المرسى، رضى الله عنه، كورد بعد صلاة الصبح، كما رتب حزب البحر وردا بعد صلاة العصر.

---

(٩٩) الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى للدكتور على صافى ص ٧٧.

(١٠٠) التصوف الإسلامى للأستاذ الدكتور زكى مبارك جـ ٢ ص ٩٢.

وأغلب هذا الحزب آيات من القرآن الكريم، وهذا تتويج وتجميل له، وفى الحديث الشريف «سمع رسول الله ﷺ بلالا يقرأ من هاهنا ومن هناك فسأله عن ذلك فقال: أخلط الطيب بالطيب فقال: أحسنت»، أخرجه أبو داود من حديث أبى هريرة بإسناد صحيح.

وحزب البر حقيقة من أجمل الأحزاب ويتميز بكلماته المشرقة الفياضة[١٠١] وقد أضفت هذا الحزب إلى ملحق النصوص بالكتاب، كنص لتراث من أجمل التراث، الصوفى، الذى تركه سيدى الإمام الشاذلى لأصحابه وأتباعه.

(١٠١) مر بنا فيما سبق بعض الملاحظات على فقرات من هذا الحزب أخذت على الإمام الشاذلى وناقشناها فى حينها.

سيدى إبراهيم الدسوقى
صاحب الطريقة الدسوقية «البرهامية»

أولا – نسبه.. وحياته:

الدسوقى[١٠٢] هو الإمام برهان الدين إبراهيم بن عبد العزيز أبى المجد، بن على قريش، بن محمد أبى الرضا، بن قمر أبى النجا، بن على زين العابدين، بن عبد الخالق، بن محمد الطيب، بن عبدالله الكاتم، بن عبد الخالق، بن موسى الكاظم، بن جعفر الزكى، بن على الهادى، بن محمد الجواد، بن على الرضى، بن موسى الكاظم، بن جعفر الصادق، بن محمد الباقر، بن على زين العابدين بن الإمام الحسين، بن على رضى الله عنهم أجمعين، وأمه السيدة فاطمة، بنت أبى الفتح الواسطى، خليفة السيد أحمد الرفاعى بمصر، والواسطى هو الرجل الذى لعب دورًا كبيرًا فى تأسيس وتشييد بنيان الطرق الصوفية بمصر.

وقد ولد سيدى إبراهيم فى الليلة التالية للتاسع والعشرين من شهر شعبان عام ٦٥٣ هـ، وتوفى عام ٦٩٦ هـ[١٠٣].

وتقول الأسطورة: إنه لما وضعته أمه فى الليلة التالية للتاسع والعشرين من شهر شعبان، سنة ثلاث وخمسين وستمائة، «اتفق وقوع الشك فى هلال رمضان فقال ابن هارون[١٠٤]، انظروا هذا الصغير هل رضع فى هذا اليوم، فأخبرت والدته أنه من الأذان فارق ثدييه ولم يرضع، فأرسل ابن هارون يقول لها: لا تحزنى، فإنه إذا غربت الشمس شرب[١٠٥].

---

(١٠٢) يقول عنه المناوى فى مخطوطه الكواكب الدرية وجه الورقة ٢٢٨ هو «شيخ الخرقة البرهامية، صاحب المحاضرات القدسية والعلوم والأسرار العرفانية، أحد الأئمة الذين أظهر الله لهم المغيبات، وخرق لهم العادات، ذو الباع الطويل، والتصريف النافذ، واليد البيضاء فى أحكام الولاية، والقدم الراسخ فى درجات النهاية، انتهت إليه رياسة الكلام على خواطر الأنام وكان يتكلم بجميع اللغات، ويعرف لغات الوحش والطير».

وليس المناوى وحده الذى يرسم هذه الصورة الأسطورية للدسوقى، فقد وجدنا من قبل كيف كانت تصور كتب المناقب والطبقات مشايخ الطرق الصوفية، ولقد حامت الأسطورة حول الدسوقى – كما سنرى – منذ مولده حتى وفاته

(١٠٣) وإن كانت بعض المصادر ترى أنه ولد سنة ٦٣٣ هـ وتوفى سنة ٦٧٦ هـ مثل الإمام الوترى.

(١٠٤) صوفى معاصر للدسوقى قال عنه الكركى (أنه بشر بمولد الدسوقى، «وكان ابن هارون إذا رأى والد الأستاذ سيدى إبراهيم أعنى أبا المجد قام له، ثم ترك ذلك فسئل فقال. ما كان القيام له بل لبحر فى ظهره، وقد انتقل إلى زوجته «كتاب مسرة العينين ص ٥

(١٠٥) مخطوط لسان التعريف لجلال الدين الكركى ظهر الورقة ١١.

ويحيك البرهاميون الأسطورة حول الشيخ ظانين أنهم بذكرهم مثل هذه الدعاوى، يعلون من قدر سيخهم، والحق أن سُيوخ الطريق براء مما نسبه مثل هؤلاء الأتباع.

فها هو أحد البرهاميين(١٠٦) يقول: «إنه لما بلغ من العمر سنة، أمسك من يحملهم الريح من أولياء الله، وأقعدهم فى الأرض، ولما بلغ سنتين أقرأ مؤمنى الجن القرآن، ولما بلغ التاسعة فك طلسم السماء، ولما بلغ اثنتى عشرة نقل مريديه من النار إلى الجنة بإذن الله، ولما بلغ ثلاث عشرة سنة، جعلت الدنيا فى يده كأكرة الخاتم، قلبها كيف ساء، ولما بلغ خمس عشرة سنة، خاطب جبريل وعرف الإجمال والتفصيل، ولما بلغ ست عشرة، جاوز سدرة المنتهى، وحصل إليه المراد وانتهى. ولما بلغ سبع عشرة سنة، رأى ما يخطه القلم، وما خطه مما كان ويكون كرؤية احدنا الإناء فى يده».

وهكذا نجد أنفسنا أمام جنس آخر أرقى من الأنبياء والملائكة، أمام من جاوز سدرة المنتهى، ورأى الفلم وما يخطه وما خطه، أمام عبد من عباد الله ينقل مريديه من الشقوة إلى السعادة، ومن الجنة إلى النار.

وليس غريبًا بعد ذلك أن يتهم الدسوقى بالقول: بأنه عين الله. يقول مارجوليوث D. S. Margoliouth: «ويذهب الدسوقى إلى أكثر مما ذهب إليه الحلاج، فهو يقول: إنه عين الله فى حين أن الحلاج قد سمى نفسه الحق»(١٠٧).

ومعنى ذلك: أننا نجد أنفسنا أمام من يقول عن نفسه أكثر مما قال الحلاج، يقول الدسوقى: «أنا موسى فى مناجاته، أنا على فى حملاته، أنا كل ولى فى الأراضى جميعهم بيدى، خلع الفقراء ألبسهم الله ربى وربهم ورب كل شىء، أنا فى السماء شاهدته، وعلى الكرسى خاطبته، بيدى أبواب النار غلقتها، أنا بيدى جنة الفردوس فتحتها، من زارنى، أو زاره - يعنى رسول الله ﷺ - بيدى جنة الفردوس أسكنته»(١٠٨).

الحق أن هذا الكتاب (الجوهرة) أو كتاب منير من كلام القطب إبراهيم الدسوقى، والذى ينسب إلى سيدى إبراهيم الدسوقى معظم مادته، ليست من فكر الإمام البرهامى الكبير، لأنها تتعارض مع الخط العام لفكره وتصوفه، فإننا سنلمس فى حينه تيار التصوف الإسلامى السنى فى طريقة الدسوقى العملية، ولهذا ينبغى أن نأخذ من هذا الكتاب بحذر، وأن نتوقف عندما نجد الأسطورة تستشرى خلال صفحاته، مع أن هذا الكتاب يعد مرجعًا أساسيًا لكل الباحثين حول الدسوقى وطريقته.

إن الدسوقى ببساطة يمكننا أن نتصوره مسلمًا طيبًا مباركًا علمه والده، وعنى بتربيته منذ كان صغيرًا، «وكان نبوغه واضحًا ظاهرًا ملفتًا للنظر، وبعد أن حفظ القرآن الكريم وتفقه على المذهب الشافعى، بنيت له خلوة بدسوق»(١٠٩).

---

(١٠٦) صاحب كتاب «مسرة العينين» حسن شمه ص ٦، ٧.

(١٠٧) دائرة المعارف الإسلامية ص ٢٣٨ مادة الدسوقى: ترجمة الشنتناوى.

(١٠٨) كتاب منير المنسوب للدسوقى ص ١٤٩.

(١٠٩) كتاب من قادة الفكر الصوفى للأستاذ أحمد عز الدين ص ١٩.

ويبدو أنه أمضي سنوات طويلة بخلوته هذه متعبدًا متهجدًا آناء الليل وأطراف النهار، ولما توفى والده «خرج من الخلوة وصلى عليه، ثم أراد أن يدخلها فحلف عليه بعض الفقراء ألا يدخلها، فجلس تجاهها، فقطع الناس أسباب معايشهم واشتغلوا بالنظر إليه، وكيف لا وهو مفلح، ومن لا يقع عليه نظر مفلح لا يفلح فأرخى له برقعًا على وجهه»(١١٠).

وإذا كان الدسوقى حفظ القرآن صغيرًا وتفقه بفقه الإمام الشافعى صغيرًا وأظهر هذا النبوغ فى بواكير سنه، فالظاهر أن الذى وجهه إلى ذلك والده. ولم يذكر ذلك أحد من قبل، فمما عرف عن الإمام الدسوقى أن فتحه كان وهبيًّا، وأنه هو نفسه قال: «واعلموا وفقكم الله: أن الفقير كان بقرية لابها فقيه ولا معلم، ولكن ذلك بما فتح الله به من فتوح الغيب، من بركة سيد الأنبياء والمرسلين خير الأنام، ومصباح الظلام، ورسول الملك العلام، على قلب عبده إبراهيم الدسوقى الصوفى القرشى الصوفى المقتدى بالقرآن»(١١١).

والدسوقى ليس وحده القائل بمقام الفتح، فهناك صوفية آخرون ذكروا أن مقامهم مقام الفتح من الوهاب، منهم سيدى أحمد البدوى الذى قال:

ليس لى شيخ ولا قدوة   غير خير الرسل طه الأول

وجدير بالذكر، أنه «لا توجد رواية تدل على أنه سلك الطريق على يد شيخ للقرية لازمه حتى وصل على يديه، وأذنه بتربية المريدين، ولو كان ذلك والده رضى الله تعالى عنه، إذ لو حدث ذلك لاشتهر واستفاض عن المعاصرين نسبة القطب الدسوقى إلى أستاذ معين، بل لأعلن القطب الدسوقى ذلك فى مجالسه العلمية وما أكثرها، كما هو شأن العارفين مع أساتذتهم، والروايات التى صرحت بذكر شيوخه فى الطريق، إنما هى روايات تبرك لا تربية(١١٢) ويقول الدسوقى: «إذا كمل العارف على مقام العرفان أورثه الله علمًا بلا واسطة».

ثانيًا – الدسوقى.. والتصوف:

نطالع فى بعض المصادر(١١٣) رأى الدسوقى فى التصوف، إذ يقول: (ليس التصوف لبس الصوف)، ورفيق صفاته ورونق بهجته ترقية لا تحصل إلا بالتدرج، فإذا وصل الصوفى إلى حقيقة التصوف المعنوى، لا يرضى بلبس ما خشن لأنه وصل إلى مقامات اللطافة، وخرج من مقامات الرعونة، وعاد ظاهره الحسى فى باطنه الإلهى، واجتمع بعد فرقة، وقذف فيه جذوة نار الاحتراق، فعاد الماء يحرقه والثلج والبرد يقوى حزامه(١١٤).

---

(١١٠) كتاب من قادة الفكر الصوفى للأستاذ أحمد عز الدين ص ١٩.

(١١١) كتاب سيدى إبراهيم الدسوقى وأولياء الله الصالحين لعبد التواب عبد العزيز ص ٢٦

(١١٢) كتاب من قادة الفكر الصوفى لأحمد عز الدين خلف الله ص ٥٢.

(١١٣) كتاب الدسوقى لعبد التواب عبد العزيز ص ٢٦

(١١٤) كتاب الدسوقى لعبد العال كحيل ص ١٨، وكتاب من قادة التصوف لأحمد عز الدين خلف الله ص ١٣٥

والطريق عند الدسوقى، كله ذوق: «مقصودى لجميع أولادى أن يكونوا ذائقين لا واصفين، وأن يأخذوا العلوم من معادنها الربانية لا من الصدور والطروس، وما تكلم القوم شيئا إلا ذاقوه، وقلوبهم كانت ملآنة بعطاء الله تعالى ومواهبه، ففاضت منها قطرات من الحياة، التى فيها علومهم عن عين عين حاصل ماء الحياة، وأما الوصاف فإنما هو حاك من حكاية غيره، وعند التخلق والفائدة لا يجد نقطة، ولا ذرة من ذوق القوم»(١١٥).

وكان ينصح مريديه دائمًا بضرورة صفاء نفوسهم، وتجردها من كل الأوصاف والأعلاق الدنيئة، حتى يرقوا إلى أعلى المقامات، ويشاهدوا، فيقول: «السماع والمخاطبة والمشاهدة من المقامات التى لا يصل إليها إلا من صفت نفسه، وخلا قلبه من ظلمة الخواطر، وتجرد من كل وصف دنىء، وتخلق بكل خلق سنى، ولم يطلب فى الوجود سوى رضا مولاه، فكان فى كل حركاته وسكناته مجموعًا على الله عز وجل لا يبغى سواه، فاعمل لعلك تكون من الذين عادت أرواحهم روحانية لطيفة نورانية، جوالة تجول فى الملكوت، وتشاهد الحى الذى لا يموت، وهى تنظر عجائب غرائب ما يكون من الأمر المكنون»(١١٦).

ويبدو لنا أن سكر الدسوقى كان أكثر من صحوه، يظهر لنا ذلك بوضوح فى شعره.

والمتأمل فى أشعاره، يجد أن الدسوقى أحد الصوفية القائلين بالحقيقة المحمدية، ونلمس ذلك فى هذه التائية الطويلة التى يتضح من خلالها نظرية الحقيقة المحمدية بكل أبعادها عند الدسوقى(١١٧)، وأكثر من ذلك يتضح لنا كيف وصل فى شطحه إلى أن يقول:

أتدرى من أنا قلت أنا يا ... مناى أنا إذ كنت أنت حقيقتى
فقال كذلك الأمر إذا ... تغيبت الأشياء كنت كنسختى

ونلمس وحدة الشهود حين يقول:

وما شاهدت عينى سوى عين ذاتها ... لأن سواها لا يلم بفكرتى
بذاتى تقوم الذات فى كل ذروة ... جدد فيها حلة بعد حلة
أنا موجد الأشياء من غير حاجة ... بكره كون الكون من غير آلتى

ويقول:

أنا الواحد الفرد الكبير بذاته ... أنا الواصف الموصوف بذاته

ولعلى كنت على حق حين اتفقت مع «مارجليوث»، فى أن الدسوقى، ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه الحلاج فى شطحه.

---

(١١٥) من قادة الفكر الصوفى .. ص ٢٦٢.

(١١٦) كتاب من قاده الفكر الصوفى ص ٦٨، ٧٠

(١١٧) القصيدة من كتاب الدسوقى «كتاب مبير» من ص ١٦٦، ص ١٦٨. قد ألحقناها بملحق النصوص بالرسالة وهذه القصيدة بها أبيات غير موزونة. يكثر بها الزحاف والعلل.

وعلى الرغم من وجود شبهة القول بالحلول فى قصيدة الدسوقى إلا أنه نفى الحلول بعد ذلك حين قال:

فـأوصـلـت ذاتى بـاتحـادى بـذاتـه - بـغـير حلول بـل بـتحـقيـق نسـبتى

ولعل تائية الدسوقى التى ألحقناها بملحق النصوص، تصور لنا بوضوح الجانب النظرى من تصوف الدسوقى، وهو يقوم أساسًا على نظرية، تنقل النور المحمدى أو «الحقيقة المحمدية»، فالنبى محمد ﷺ هو فى رأى الدسوقى قبضة من نور الله، قال لها: كونى محمدًا فصارت محمدًا، ومعنى هذا أن محمدًا ليس بشرًا، ولكنه جزء من ذات الجزء، أو قل من ذات الله تعالى، كان قبل خلق آدم يحيا كملك فى عالم الملكوت، فلما خلق الله آدم من تراب حلت فيه تلك الحقيقة المحمدية، ثم انتقلت إلى ابنه شيت، ثم إلى أدريس، وهكذا ظلت تلك الحقيقة المحمدية تنتقل من نبى إلى نبى حتى ظهرت فى خاتم النبيين محمد ﷺ العربى، فلما مات عليه السلام، انتقلت تلك الحقيقة، أو ذلك النور المحمدى إلى على، ثم إلى ابنه الحسن، وهكذا ظلت تنتقل من قطب إلى قطب، حتى ظهر إبراهيم الدسوقى، فحل فيه ذلك النور، أو تلك الحقيقة المحمدية، كما حلت فى النبيين من قبل، ولكنها قد أخذت اسمًا جديدًا فى الذين حلت وتحل فيهم بعد النبى محمد ﷺ من الله ويسمى الذى تحل فيه قطبًا ومن قبل كان يسمى نبيا ورسولاً(١١٨).

ومن هنا نلاحظ، أن القطب عند الدسوقى: «قديم أزلى، من حيث الحقيقة الروحية، وإن كان حادثًا من حيث التشخص الجسمانى، وهذا هو عين ما ذهب إليه الفاطميون من القول بالمثل والممثول، فالمثل هو الدسوقى وأحزابه من الأقطاب، والممثول هو الحقيقة المحمدية الأولية الأبدية القائمة فى عالم الملكوت، ثم إن هذه النظرية القطبانية لا تختلف فى شىء عما قررته الفلسفة الأفلاطونية، من أن لكل موجود فى هذا العالم مثلاً يطابقه فى عالم المثل، أو قل فى عالم الملكوت، فالدسوقى إذن لم يك أحد أولئك المتصوفين الذين بنوا تعاليمهم على الإلهام وحده، وإنما أفاد فى تصوفه إلى حد كبير من النظريات الفلسفية التى مصدرها العقل والتفكير(١١٩).

أما الجانب العملى من تصوف سيدى إبراهيم الدسوقى فيظهر فيه بوضوح التصوف السنى كما سنرى.

فقد كان الدسوقى يقول لمن يطلب منه سلوك الطريق: «يا فلان: اسلك طريق النسك على كتاب الله تعالى وسنة نبيه محمد ﷺ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت إن استطعت إليه سبيلا، وعلى أن تتبع جميع الأوامر المشروعة والأخبار المرضية، والامتثال بطاعة الله عز وجل قولاً وفعلاً واعتقادًا، وألا تنظر يا ولدى إلى زخارف الدنيا ومطاياها وقماشها ورياشها وحظوظها، واتبع نبيك فى أخلاقه، فإن لم تستطع فإن نزلت عن ذلك هلكت، واعلم يا ولدى أن طريقتنا هذه طريقة

---

(١١٨) الأدب الصوفى فى مصر ص ١٣٥، ١٣٨.

(١١٩) المرجع السابق ص ١٣٧.

تحقيق وتصديق وجهد وعمل وتنزه وغض بصر وطهارة يد وفرج ولسان، فمن خالف شيئًا من أمثالها رفضه الطريق طوعًا أو كرهًا»(١٢٠).

وكثيرا ما كان ينصح أتباعه باتباع الشريعة الغراء فيقول: «اسلك المناهج السديدة، والشريعة القوية السديدة البهية الساطعة اللامعة التى من عمل بها كان عمله مضمونا، فإن من سلكها واتبع أمرها نجا، فإن الله أمركم أن تطيعوا ولا تعصوا وأن، تستقيموا ولا تلهوا، قال الله تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا، واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾*(١٢١) ويقول فى قوة لأتباعه ناصحًا لهم بالتمسك بأهداف الشريعة: «من أحب أن يكون من ولدى فليحبس نفسه فى قمقم الشريعة، وليختم عليها بخاتم الحقيقة، ليقتلها بسيف المجاهدة وتجرع المرارات، الشريعة أصل والحقيقة فرع، فالشريعة جامعة لكل علم مشروع، والحقيقة جامعة لكل علم خفى، وجميع المقامات متدرجة فيها»(١٢٢).

الحق أن الجانب العملى من تصوف الدسوقى، يقوم على العمل بكتاب الله تعالى وسنة رسوله، كما يقوم على (اصطناع المكابدة والمجاهدة، وذلك بالإكثار من الصيام والقيام والذكر وقراءة القرآن، وبالتسبيح والتقديس والدعاء والابتهال من جهة، وعلى الزهد فى الدنيا والترفع عن اللذائذ، والشهوات، والابتعاد عن ضروب اللهو، وأن يرضى المريد بما قد يصيبه فى حياته من متاعب ومضايقات من جهة أخرى)(١٢٣)، وفى ذلك يقول الدسوقى، من أحب أن يكشف له عن الأنوار ويسقى من دن الدنو وخمر الخمار، وتطلع فى قلبه شموس المعانى والأقمار، فليلزم عبادة ربه فى الأسحار، ويداوم الاستغفار(١٢٤).

وإذا كان بعض أبناء الطريقة البرهانية فى عصرنا، هذا، قد خالفوا طريق شيخهم البرهانى الكبير، وبعدوا عن تصوفه العملى السنى، الداعى إلى العمل بكتاب الله تعالى وسنة نبيه الكريم، فإن شيخهم فى القرن السابع الهجرى كان يخشى هذا اليوم، ويدعو أتباعه ألا يسيئوا إلى طريقته، أو يدنسوها، أو يبتدعوا البدع والخزعبلات، يقول الإمام الدسوقى، لمثل هؤلاء الأتباع: (يا أولادى ناشدتكم بالله، لا تسيئوا إلى طريقى، ولا تلبسوا فى تحقيق، ولا تدلسوا ولا تدنسوا.، وإن كنتم صحبتمونا لتأخذوا منا أوراقًا من غير عمل فلا حاجة لنا بكم)(١٢٥).

ولطالما حذر أتباعه من مخالفة طريقه، (.. وإنى أبرأ إلى الله ممن يأخذ على الطريق عوضا من الدنيا،

---

(١٢٠) مخطوط الطبقات الوسطى للشعرانى ظهر الورقة ١٠٨.

* سورة الحشر - آية ٧.

(١٢١) كتاب الجوهرة المنسوب للدسوقى ص ٧٧.

(١٢٢) طبقات الشعرانى ص ١٤٤.

(١٢٣) الأدب الصوفى فى مصر ص ١٣٥.

(١٢٤) مخطوط الكواكب الدرية للمناوى وجه الورقة ٢٢٧.

(١٢٥) مخطوط الطبقات الوسطى للشعرانى وجه الورقة ١٠٦.

ويتلف طريقى من بعدى، ويخالف ما كنت عليه أنا وأصحابى، اللهم إن كان أحد من أصحابى يفعل خلاف طريقى، فلا تهلكنى بذنوبهم، فإن الله يبغض الفقير الذى يبيع أخلاق أهل الطريق بلقمه، وطريقى إنما هى طريق تحقيق وتدقيق، فيا أولادى إن كنتم أولادى وخالفتمونى فأنتم كاذبون)(١٢٦).

الدسوقى.. والكرامات:

مع أن شيخ الطريقة البرهانية سيدى إبراهيم الدسوقى، كان يخشى على طريقته من الأتباع الكاذبين، ومروجى الأساطير، ومنتفعى الطريق، إلا أن بعض هؤلاء الأتباع ملأ الدنيا بكرامات أسطورية حول شيخهم الكبير، رغم أن الدسوقى كان يرى بل يقول: إن «خواص الخواص جعلوا زواياهم قلوبهم، ولبسوا تقواهم، وخوفهم من ربهم ومولاهم، قد رفضوا الكرامات، ولم يرضوا بها وخرجوا عنها لعلمهم، أنها من ثمرة أعمالهم، فلم يطيروا فى الهواء، ولم يمشوا على ماء، ولم يسخر لهم الهواء، ولم تبصبص لهم الأسود، ولم يضربوا أرجلهم بالأرض فيتفجر الماء، ولا لامسوا مجذوما ولا أبرص فيبرئ، ولا غير ذلك فخرجوا من الدنيا، وأجورهم موفورة كاملة رضى الله عنهم أجمعين(١٢٧).

ولقد وجدنا من قبل مثل هذه الأوهام والأساطير تدور حول سيوخ الطرق الصوفية، وسيوخ الطرق منها براء..

وأشد غرابة من ذلك، ما ذكره المناوى فى الكواكب الدرية، ونقله عنه النبهانى فى كرامات الأولياء حيث قال: إن من كراماته أن التمساح خطف صبيا، فأتته أمه مذعورة، فأرسل نقيبه فنادى بشاطئ البحر، معشر التماسيح: من ابتلع صبيا فليطلع به، فطلع ومشى معه إلى الشيخ، فأمره أن يلفظه فلفظه حيا، وقال للتمساح مت بإذن الله فمات(١٢٨).

ويزداد الأمر شناعة وضلالة حين نعلم أن هؤلاء المرتزقة، قد صوروا شيخهم فى صورة الإله ويقولون بهتانًا وزورًا: أنه قال: أذن لى ربى أن أتكلم، أقول: أنا الله فقال لى: قل أنا الله ولا تبال، وذكروا عنه أقوالا تصل بالدسوقى إلى درجة الكفر، والرجل برىء مما نسبوا إليه، فها هو أحدهم الشرنوبى البرهانى فى طبقاته يذكر نصًّا طويلًا وينسبه إلى الدسوقى فيقول: قال الدسوقى: من كرامتنا، أنى لما وردت على النيران هربت خوفًا منى، فرفستها برجلى، فصارت رمادًا، وصرخت عليها فغلقت أبوابها السبعة، ومنها قال لى ربى: لك البشرى أنت وأتباعك، ومنها تكرم ربى على أنا وأتباعى بدخولهم الجنة كرامة لأجلى، ومنها فتح أبواب الخير لأهل الطرق الأربع، ومنها أنى أعطيت سجادة من نور ليست تعطى لأحد غيرى إلى يوم القيامة، ومنها أنى سددت أبواب جهنم بفوطتى.. وفتحتها

---

(١٢٦) من قادة الفكر الصوفى ص ١٥٩، ٢٦٠.

(١٢٧) كرامات الأولياء للنبهانى ص ٢٣٩ (المرجع السابق ص ٢٣٩).

(١٢٨) طبقات الشرنوبى طبعة مصر ١٣٠٥ هـ ص ٢، ٣، ٤. وذكره عنه أيضا الشيخ فرج غنيم فى كتابه غذاء الباحث فى التصوف ص ٣٢ إلى ٣٤.

لأعدائى، وأدخلتهم فيها، ومنها أن صنج أبواب الجنة الثمانية بيدى وأدخلت أمة محمد ﷺ فيها، ومنها أن صنج الميزان بيدى أُصَيِّرُ حسناتِ مريدى أثقل من سيئاتهم، ومسست عليها بيدى فصارت سيئات المنكرين على أثقل من حسناتهم ولو كانوا مطيعين، ومنها أنه إذا دعانى مريدى أجبته ولو كان خلف قاف، ومنها أنى أدخل أتباعى يوم الحشر أعلى مرتبة من أتباع غيرى، ومنها أن أول من نطق بكلمة التوحيد رسول الله ﷺ والصحابة ثم أنا، ومنها أن الله تعالى سكن فى قلبى التوحيد، قبل آدم وحواء، وقبل العرش والكرسى واللوح والقلم والسموات والأرض، وقبل الماء والطين، ومنها أن ربى جعلنى قبل بناء البيت الحرام، وأعطانى علومًا ليس يحصيها إلا هو، ومنها أن الله تعالى أجرى لسانى على طلاسم القرآن العظيم، ومنها أنه أذن لى ربى أن أتكلم وأقول أنا الله، فقال لى قل أنا الله ولا تبال، ومنها أنه إذا وافت الدنيا ميعادها، ثم نفخ إسرافيل فى الصور فلا ينفخ إلا بإذنى».

ولا أجد فى النهاية تعليقا على هذه الخرافات والأوهام التى افتراها أتباع الدسوقى على شيخهم الجليل أجمل من قول الدسوقى نفسه: اللهم إن كان أحد من أصحابى يفعل خلاف طريقى فلا تهلكنى بذنوبهم، فيا أولادى إن كنتم أولادى وخالفتمونى فأنتم كاذبون.

ولقد رأينا من قبل، كيف كان منهج طريقته العملية؟ يدعو إلى اتباع كتاب الله تعالى وسنة رسوله الكريم، وما هذا الهراء وتلك الخرافات التى امتلأت بها صفحات كتب المناقب والطبقات من مريدى الطريقة، فشيوخهم لم ينطقوا بها بل تقولوها وافتروها على هؤلاء الشيوخ الأتقياء، فما كانت دعوة أصحاب الطرق الصوفية إلا دعوة المسلمين إلى التوبة والاستغفار والهداية والعمل بكتاب الله وسنة رسوله الكريم، يقول الدسوقى لأتباعه: «.. وإنما آمركم بما أمركم به ربكم، وإن نقضتم العهد فإنما هو عهد الله لا عهدى»(١٢٩).

(١٢٩) كتاب سيدى إبراهيم الدسوقى لعبد العال كحيل ص ٤١

الدسوقى
والطريقة الدسوقية «البرهانية»

مبنى الطريقة البرهانية:

يقول الإمام محمد بن على السنوسى الإدريسى:[(١٣٠)] «وأما طريق السادة البرهانية، فهو المنسوب إلى الشيخ برهان الدين إبراهيم الدسوقى، وهو مبنى على الذكر الجهرى، ولزوم الجد فى الطاعات، وارتكاب خطر أهوال المجاهدات، وذبح النفس بسكين المخالفات، وحبسها فى سجن الرياضة، حتى يفتح الله عليها بالسراج فى رياض المعرفة، ومن شأن أهل هذه الطريقة السنية الاستكثار بذكر «دايم»، بياء النداء، «سيما فى ضم مجالس التلاوة والذكر الجهرى بالجلالة مع الهوية، ومن شأنهم لبس الزى وهو الأخضر»[(١٣١)].

ويصف الإمام الدسوقى نفسه طريقته فيقول «آه، آه، ما أحلى هذه الطريقة ما أسناها وما أمرها، ما أصعب مواردها، ما أعجب واردها، ما أعمق بحرها، ما أكثر أسدها، ما أكثر حياتها وعماريها، فيا لله يا أولادى لا تتفرقوا، واجتمعوا يحميكم الله من الآفات ببركة أستاذكم»[(١٣٢)].

وحقيقة الطريق لا يقدر عليها إلا كل مجاهد للنفس مجالد لهواه.

يقول الإمام الدسوقى: «واعلم أن الطريق إلى الله تفنى الجلاد، وتفتت الأكباد وتضنى الأجساد، وتدفع الشهاد، وتسقم البدن وتذيب الفؤاد، فهيمان القلب فى باطن الأمر، ونشآن السكر فى مداومة الذكر، ومجاهدة النفس والحواس والحِسّ فى حصول الأنس، وهو الهيمان الحقيقى المشكور، الذى هو أفضل من هيمان كل واد ودأب مبرور، والمحافظة على السنن والفروض، والتأهب يوم العرض»[(١٣٣)].

الطريقة كلها عند الدسوقى «ترجع إلى كلمتين، تعرف ربك وتعبده فمن قبل ذلك عنده فقد أدرك الحقيقة والشريعة»[(١٣٤)].

ويلاحظ أن الدسوقى يجعل «الطريقة كالخلافة أو الإمامة، تأخذ العهد والتربية من شيخ عن سيخ».

ولعلنا نتلمس فى ذلك وجود أثر شيعى فى فكر شيخ الطريقة البرهانيه.

---

(١٣٠) مؤسس الطريقة السنوسية (١٢٠٢هـ - ١٢٧٦هـ).

(١٣١) مخطوط السلسبيل المعين فى الطرائق الأربعين وجه الورقة ٣٥.

(١٣٢) ذكره عبد التواب عبد العزير فى كتابه سيدى إبراهيم الدسوقى ص ٦٦.

(١٣٣) كتاب مير.. ص ١٣٤.

(١٣٤) طبقات الشعرانى الكبرى ص ٤٤.

ونحن لا نتصيد أى فكرة شيعية فنلصقها بأصحاب الطريق، ونقول بوجود هذا الأثر فى خطهم الفكرى، ولكنا نرجح احتمال وجود صلات شيعية فى فكر هؤلاء المتصوفة من أصحاب الطريق.

فمثلاً هذه الفكرة: وهى أن الطريقة يجعلها الدسوقى كالإمامة وتربية المريد بواسطة شيخ يقول عن ذلك الدسوقى: «رأس مال المريد المحبة والتسليم، وإلقاء عصا المعاندة والمخالفة، والسكون تحت مراد شيخه وأمره»(١٣٥).

وعند الدسوقى من أهم واجبات المريد، «أن لا يتكلم إلا بدستور من سيخه إن كان جسمه حاضرا، وإن كان غائبا يستأذنه بالقلب، وذلك حتى يترقى إلى الوصول إلى هذا المقام فى حق ربه عز وجل، فإن الشيخ إذا رآه هكذا رقاه بالأدب مع الله، ورباه بلطيف الشراب، وسقاه من ماء التربية، ولاطفه بالسر المعنوى الإلهى، فياسعادة من أحسن الأدب مع ربه، ويا شقاوة من أساء(١٣٦).

والحقيقة التى أكدناها كثيرًا، هى أن الجانب العملى من الطريقة البرهانية يتساوق تماما مع التصوف السنى العملى «إذ أقام الدسوقى كل وزن للشريعة حتى إنه عد الطريقة أو الحقيقة شيئا ثانويا بالنسبة للشريعة»،(١٣٧) ولكن الدكتور الصافى بعد ذلك يستدرك ويقول: «ولكنه مع ذلك قد اختلف مع الشريعة فى الجانب الاعتقادى، وذهب فى الجانب النظرى من تصوفه إلى اعتناق فكرة تنقل النور المحمدى(١٣٨).

وهذا ما وصلنا إليه أيضا من تتبعنا لفكر الدسوقى من الناحية العملية والنظرية، ونتفق فى ذلك تماما مع الدكتور صافى.

والحق أن الذى يهمنا فى المقام الأول، هو الجانب العملى، من فكر أصحاب الطرق الصوفية، ذلك أن الطرق الصوفية تمثل حركة التصوف العملى فى الفكر الصوفى الإسلامى، وقد رأينا من قبل أن حركة التصوف العملى دعوة عملية لتوبة المريد واستغفاره وهدايته، للعمل بكتاب الله وسنة رسوله، ولهذا وجدنا الدسوقى يقول: «إنى استخرت الله تعالى فى أن الولد يلبس الخرقة النظيفة العفيفة على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ»(١٣٩).

وإذا كان الطريق شيخًا ومريدًا بينهما عهد، فقد اهتم إمام الطريقة الدسوقية بإرشاد هؤلاء الأشياخ والمريدين إلى الطريق الحق، فها هو يحذر الشيخ من الرشا، «إن أردت أن تكون ولدى حقا فاخلص العبودية لله عز وجل، واجعل واعظك من قلبك، وكن عاملاً بجسدك وقلبك، ولا تأخذ لأحد من المريدين درهما، فإن هذه طريقى ومن أحبنى سلك معى فيها، فإن الفقير الصادق، هو الذى يطعم الناس ولا يطعمونه، ويعطيهم ولا يعطونه، فإن الرشا فى الطريق حرام، وشيخكم قد بايع الله تعالى ألا

---

(١٣٥) ذكره عبد التواب عبد العزيز بكتابه سيدى إبراهيم الدسوقى ص ٧١.

(١٣٦) طبقات الشعرانى الكبرى ص ١٥٣.

(١٣٧) الأدب الصوفى.. ص ٤٥.

(١٣٨) المرجع السابق ص ٤٦.

(١٣٩) كتاب سير للإمام الدسوقى ص ٩٨.

يأخذ فلسا ولا درهما، ولا يأكل طعاما إلا إن سلم من العلل»(١٤٠)، «وعند الدسوقى أن الذى يقدم فى الطريق هو من فتح عليه الله» ليس لأحد أن يقدم فى الطريق لكبر سنه وتقادم عهده، إنما يقدمه فتحه، ومع هذا فمن فتح عليه منكم فلا يرى نفسه على من لم يفتح عليه، وتأمل يا ولدى، إبليس اللعين لما رأى نفسه على آدم عليه السلام وقال: أنا أقدم منه وأكثر عبادةً وقدرًا كيف لعنه الله تعالى وطرده؟(١٤١).

واجبات الشيخ كما يرى الدسوقى:

ومن أهم واجبات الشيخ كما يرى سيدى إبراهيم الدسوقى: حمل الناس على التوبة من المعاصى، «تتوب الناس، وتدعوهم إلى طاعة الله، وتأمرهم وتنهاهم، وتحذرهم وتنذرهم، وتخوفهم وتعظهم، وتكون مجتهدًا فيما يفلح مريدك، والمريد على قدر ما يربى ممن يتوبه، فكن آمرًا بالأعمال الصالحة، تعمل بنفسك، وتأمر بالعمل، فإذا رآك الذين تأمرهم بالعمل عاملاً عملوا، أو سمعوا وعملت فيهم الموعظة، وإن كنت يابطال بطالاً وتأمرهم بالعمل قالوا: يعدل هذا نفسه ويقوم ويصوم فإن كنت عاملاً ولم تعظهم وعظتهم أعمالك التى يرونها، فإن الأعمال أعظم موعظة من الأقوال(١٤٢).

وبالنسبة لواجبات المريد مع شيخه، فقد رأينا من قبل، أن أهم هذه الواجبات كما يقول الدسوقى: «وللمريد مع شيخه الأدب، وحسن الطلب، والتسليم للشيخ وأن لا يتكلم إلا بدستوره»(١٤٣).

وكم نبه الدسوقى أتباعه إلى أن الطريقة ليست ورقة إجازة من شيخ لمريده، يا ولدى عليك بالتخلق بأخلاق الأولياء لتنال السعادة، وأما إذا أخذت ورقة إجازة وصار كل من نازعك تقول هذه إجازتى بالمشيخة دون التخلق، فإن ذلك لا شىء إنما هو حظ نفسى، لكن اقرأ الإجازة، واعمل بما فيها من الوصايا، وهناك تحصل على الفائدة ويحصل لك الاصطفاء، وهذه طريق مدارج الأولياء قرنًا بعد قرن، وجيلاً بعد جيل إلى آخر الدنيا(١٤٤).

فروع الطريقة البرهانية:

تتفرع الطريقة البرهانية إلى الطريقة: الشهاوية، والطريقة الشرنوبية، والطريقة العاشورية، والطريقة التازية.

---

(١٤٠) مخطوط الطبقات الوسطى للشعرانى ظهر الورقة ١٠٩.
(١٤١) كتاب منير للقطب الدسوقى ص ٨٣، ٨٤.
(١٤٢) المصدر السابق
(١٤٣) كتاب منير ص ٢٠.
(١٤٤) طبقات الشعرانى الكبرى ص ١٤٦.

الدسوقى.. والسماع:

مر بنا كيف كان الإمام الشاذلى، والإمام الرفاعى، من المنكرين للسماع لأنه يفسد الطريق، وها نحن نجد أيضا الإمام الدسوقى من المنكرين له واعتباره من آفات الطريق، يقول شيخ الخرقة البرهانية وصاحبها: «يا من قتل نفسه ولم يسمع، يا من اشتغل باللهو والزهو والسرور وللغناء يسمع، يا مفتون، إلى متى ترجع ما خلا للوعظ منك موضعًا»(١٤٥).

ومن العجيب أن بعض مريدى الطرق الصوفية بعد وفاة أصحاب الطريق، خالفوا أصول شيوخهم الذين أنكروا السماع، وهاموا فى سماعهم، بل اعتبروه من مستلزمات حلقات الذكر، كما نرى ذلك لدى بعضهم فى أيامنا هذه.

صلة الدسوقى بأصحاب الطرق الصوفية الأخرى:

ذكرنا من قبل صلة الدسوقى بالرفاعى، وقلنا: إن أبا الفتح الواسطى مبشر الطريقة الرفاعية بمصر، والد السيدة فاطمة، أم سيدى إبراهيم الدسوقى، وصلة الدسوقى بالبدوى تظهر فى اشتمال حزب الدسوقى الكبير على كلمات كثيرة من حزب سيدى أحمد البدوى، «ولا يعقل اشتراك الحزبين فى هذه العبارات بدون وجود رابطة روحية قوية بين هذين القطبين الجليلين»(١٤٦).

وقد نقل الإمام البقاعى فى طبقاته نقلًا عن العارف أحمد الشناوى البدوى الطريقة، أن البدوى قال للقطب الدسوقى: «أما سمعت وعلمت أننا أخذنا العهود والمواثيق على بعضنا؟، أما سمعت وعلمت أن الله حرم على من يفرق بيننا خيرى الدنيا والآخرة، أما سمعت وعلمت أن الله لعن من يقول هذا على طريقة وهذا على طريقة؟، أما تعلم أن الله لعن من يقول هذا له مجلس ذكر، وهذا ليس له مجلس ذكر، أما تعلم أن الله تعالى فتح على من لم يفرق بيننا(١٤٧).

وعن صلة الدسوقى بالشاذلى يقول البعض: إن هناك دليلًا واضحًا على وجود هذه الصلة، وهى استمال الحزب الكبير للدسوقى على الحروف المركبة فى الدائرة الشاذلية، ووجود هذه الحروف فى الورد لا يأتى عن طريق المصادفة بل لابد أنه تلقاها عن الشاذلية»(١٤٨).

ولكننا سنبين فيما بعد خطأ نسبة حزب الدائرة إلى الشاذلى، وبالتالى عدم أخذه عن الشاذليه.

---

(١٤٥) كتاب منير المنسوب للدسوقى ص ٤٠.
(١٤٦) من قادة الفكر الصوفى لأحمد عز الدين خلف الله ص ٥٠.
حزب البدوى وحزب الدسوقى بملحق النصوص بالكتاب
(١٤٧) مخطوط طبقات الأبرار للبقاعى ظهر الورقة ١٢٦
(١٤٨) من قادة الفكر الصوفى ص ٤٢.

تراث الدسوقى

ترك الدسوقى الكثير من التعاليم والمواعظ والحكم، وله شعر صوفى قليل.

وبالنسبة لأسلوب أشعاره فهو «جار فى جملته من حيث الأسلوب على نمط عموم المتصوفة فى هذا العصر، إذ ساد شعره عبارات الحب الإلهى، وكثرت فيه كلمات الساقى والشراب، وغير ذلك من نعوت الخمر، وأوصاف الحق أو ذات القدس»[١٤٩].

وأقدم له هذه التائية المختصرة نموذجا لشعره:[١٥٠]

سقانى لمحبوبى بكأس المحبة ... فتهت على العشاق شكرًا بخلوتى
ونادمنى سرًّا بسر وحكمة ... فما كان أهنى جلوتى ثم خلوتى
ولاح لنا نور الجلالة لو أحنا ... لصم الجبال الراسيات لدكت
وكنت أنا الساقى لمن كان حاضرًا ... أطوف عليهم كرةً بعد كرة
وكان دليلى يوم حضرة قدسية ... على المرتضى الكرار يوم الكريهة
بإذن من المختار خير مهذب ... وإن رسول الله شيخى وقدوتى
وعاهدنى عهدًا حفظت لعهده ... وعشت وثيقًا صادقًا بمحبتى
وحكمنى فى سائر الأرض كلها ... وفى الجن والأشباح المردية
وأوهبنى منه عصاة لسجنهم ... فكنت عليهم دعوةً ثم نقمة.
وفى أرض صين الصين والشرق كلها ... إلى أقصى بلاد الله صحت ولايتى.
أنا الحرف لا أقرأ بكل مناظر ... وشاعت طريقى فى الورى بعد غيبتى
وكم عالم قد جاءنى وهو منكر ... فرد بفضل الله من أهل خرقتى.
مريدى محفوظ بعين عناية ... من الله إذ لاحت عليه إشارتى
وذكرى ملأ الأقطار شرقًا ومغربًا ... وكل الورى من أمر ربى رعيتى
وما قلت هذا القول فخرًا وإنما ... أتى الإذن حتى يعرفون طريقتى
أنا عن حقيق ابن أبى المجد من الورى ... وشيخى رسول الله خير البريَّة

والشطح واضح فى هذه القصيدة، ومعظم قصائد الدسوقى على هذا المنوال.

ومن شعره الذى يتضح فيه عبارات الحب الإلهى وعبارات السكر والشراب هذه الأبيات[١٥١].

رح على الراح رغم الصحى ... فلحا الله عليها من لحا

---

(١٤٩) الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى ص ١٤٢.

(١٥٠) كتاب السمو الروحى فى الأدب الصوفى، وكتاب منير المنسوب لسيدى إبراهيم الدسوقى.

(١٥١) كتاب منير للقطب الدسوقى ص ١٨٧، ص ١٨٨.

خمـرة الحـب التى قـد ذقـتهـا ... كـاسهـا بـدل حـزنى فـرحـا
أنـجم طـاف بهـا بـدر وحـبى ... أخجلت بهجتـه شـمس الضحى
راحـت الأرواح فى راحـتـه ... تثبت الفـرح وتـنفى التـرحـا
أيهـا الـعـازل فـيـهـا خـلـنى ... إن عـذرى فى هـواهـا فضحـا
لا تـلمُ مـنَّ فـقـيـرًا إن بـكـى ... أو تغنى أو شكـا أو صـرحـا
إنمـا الـعـشـق زنـاد قـادح ... بـحـراق من فـؤادى مـدهـا
فـأرح نفسـك من هـذا العنـا ... واطـرح النفس إلى من طـرحـا

أحزاب الدسوقى:

ذكرنا من قبل أن الحزب الصغير للدسوقى به بعض ألفاظ حزب سيدى أحمد البدوى، (وقد ألحقنا نص هذا الحزب بملحق النصوص بالكتاب) ويقول شارح حزب الدسوقى عن الألفاظ المستعجمة بهذا الحزب: «أحمى حميثا أطمى طميسا. هده الأسماء سريانية، وفيها أسرار ربانية، يعرفها ذوو المعارف اللدنية، فمعنى أحمى: يا مالك، وفى سره يا مالك الملك العظيم الأعظم وأنت الحى القيوم، وحميثا: إشارة إلى مملكته التى يتصرف فيها بمشيئته، ويظهر فيها مظاهر أسمائه بإرادته، فكأنه يقول: يا مالك الأسرار، يا مالك الأنوار، يا مالك الليل والنهار، يا مالك السحاب المدرار، يا مالك الشمس والأقمار، يا مالك الجنة والنار، يا مالك كل شىء، وأسرار هذا الاسم عجيبة لا تفى بها العبارة، وأما أطمى، فهو بمنزلة من يصفه تعالى بالصفات الجلالية والكمالية من العظمة والكبرياء، والعهد والغلبة، والعزة والانفراد فى ذلك كله، فكأنه يقول يا قاهر كل شىء، يا قادرًا على كل شىء، يا عالمًا لكل شىء، يا مريدًا لكل شىء، يا مدبر كل شىء، وطميثا : إشارة إلى الأشياء التى يتصرف فيها بسائر مظاهر الأسماء فى المملكة التى يفعل فيها ما يشاء، ففى هذه الأسماء سر كبير لا يحيط به إلا اللطيف الخبير، ومن أطلعه عليه من نبى وولى كبير»[١٥٢].

وهذا التفسير الذى قاله البرهانى محمد البهى لا يقنعنا، فإن مثل هذه الألفاظ التى وردت فى أحزاب مشايخ الطرق الصوفية يحتمل لها عندنا تفسيران:

الأول : أن تكون هذه الألفاظ وضعت وأدخلت فى أحزاب مشايخ الطريق من بعض المريدين، الذين اشتغلوا بالكلام، وعلم الحروف والأسماء والأوفاق[١٥٣]. أو أن هذه الحروف المنفطعة يحتمل أن

---

(١٥٢) مخطوط شرح حرب الدسوقى بدار الكتب لمحمد البهى ورقة ٤.

(١٥٣) شرح ابن خلدون فى مقدمته هذا العلم وقال عنه «اعلم أن علم الحروف والأسماء والأوفاق من العلوم الحادثة فى الملة الإسلامية، من تفاريع علم السيميا، نقل وصفه من علم الطلسمات فى اصطلاح أهل التصرف من المتصوفة، وكان أول من أظهرها جابر بن حيان، الذى اشتهر بجابر الصوفى، فقد تصفح جابر الكتب القديمة عند السريان والكلدان من أهل بابل، وعند القبط من أهل مصر، ولخص منها علوم الكيمياء والسحر والطلسمات، ووضع فيها التآليف، ثم تبعه مسلمة بن أحمد المجريطى إمام اهل الأندلس فى التعاليم السحرية، فوضع منها كتاب «غاية الحكم»، وحدث أن جنح غلاه الصوفية إلى كشف حجاب الحس

تكون إشارات صوتية لا يعرفها إلا من تذوقها فعلاً، فلا تكون أحوالاً وأسرارًا ولا يصل إلى معرفه حقيقتها أو محاولة تأويلها أو تفسيرها إلا صاحب هذه الأحوال.

والتفسير الأول يؤكده حزب الدائرة الشاذلية المنسوب إلى الشاذلى، والذى أخذ منه الدسوقى هذه الألفاظ المستعجمة بحزبه الكبير، وهى (طهور. بدعق. محببة. صوره محببه. سقفاطيس أحون).

والحق أن نسبة هذا الحزب إلى الشاذلى غير صحيحة، وقد أخطأ اليافعى(١٥٤) حين ذكر فى كتابه الدر النظيم: أنه رأى حزب الدائرة بخط شهاب الدين بن الشيخ تقى الدين بن الشيخ أبى الحسن الشاذلى، «الذى يرويه عن والده رضى الله عنهما، فيقول: «أملانى والدى - أطال الله بقاءه - هذا الحزب وقال: اعلم يا بنى أنه لا يحيط بعظم هذه الدائرة إلا من هداه الله بعونه، وهداه وأبان له من نوره(١٥٥).

ويفند عمار كلام اليافعى فيقول: «ومن عجب أن يرى اليافعى خط الشيخ أبى الحسن الشاذلى، ويروى عنه ما لم يروه ابن عطاء الله، ترجمان المدرسة الشاذلية، ولا ابن الصباغ مؤرخها، وما لم يقل به خلفاؤه من المناسبة: أمثال أبى العزايم ماضى أو عبد الله بن سلطان، أو الحبيبى أو أبى الحسن بن مخلوف أو غيرهم، بل إنه كان معاصراً لابن باخلا المتوفى سنة ٧٢٣ هجرية ولتقى الدين السبكى المتوفى سنة ٧٦٥ هـ، تلميذ ابن باخلا، وكل منهما لم يرو عنه سيء من ذلك. بل لقد جاء بعد أبو المواهب الشاذلى، وإبراهيم المواهبى، والشيخ زروق وأحمد بن عقبة الحضرمى، وشمس الدين الحنفى، ومحمد وفا، وعلى وفا رضى الله عنهم جميعاً، من أبناء القرن التاسع، ولم يرو أحد منهم عن الشاذلى شيئاً من ذلك، وهؤلاء كبار زعماء المدرسة الشاذلية ومن الطبقة الخامسة»(١٥٦).

=وظهور الخوارق على أيديهم بالتصرف فى عناصر الطبيعة، فاستعملوه استعمال العام فى الخاص، وما وافى القرن السابع الهجرى حتى وضع فيه التآليف الكثيرة، أبوالعباس البونى، وابن عربى الحاتمى، فسارت علوم الحروف والأسماء والأوفاق إلى الاشتهار».

«مقدمة ابن خلدون الطبعة المصرية ص ٥٦٢ وذكرها على سالم عمار فى كتابه أبى الحسن الشاذلى جـ ١ ص ١١٢، ١١٣

وهناك صلات بين القائمين على دراسة الحروف وبعض الصوفية، وقد عالج الصوفية الحروف، ومن ذلك نلاحظ أن هناك فرقًا جوهريًا بين منهجين فى دراسة الحروف: منهج «نشد فى الحروف خصائص تدل على النسب والمقادير عن طريقها يمكن التحكم فى المادة، كما فى رسائل جابر ابن حيان والمجريطى والبونى، ومنهج اتخذ الحروف رموزًا لأسرار تمثل أئمة وقادة للفريق الدارس كما فى دراسات الشيعة والاسماعيلية، وإذا نظرنا إلى الطابع الذى يميز دراسة الصوفية لخاصية الحروف وجدنا أنه يختلف جوهريًا عما سبق من دراسات، سواء كان ذلك من حيث طريقة التناول، أو من حيث الهدف المقصود من هذه الدراسة والتأمل. فالصوفية لخلص لم يقصدوا إلى اعتبار القيم العددية للحروف، ولم يقصدوا إلى اكتساب السيطرة والتحكم فى المادة، كما لم يهدفوا إلى رصد هذه الحروف لتمثل قادة سياسيين، أو روحانيين يرعون طائفة أو فرقة أو نحلة معينة، فالصوفية كانوا حذرين من الجرى وراء مثل هذا الهدف لإيمانهم بأن الكرامات التى يتفضل الله عليهم بها خير لهم وأبقى من هذه الأمور غير المؤكدة أو غير المأمونة العواقب»

عن كتاب من التراث الصوفى (سهل التسترى) لدكتور كمال جعفر جـ ١ ص ٣٦٠، ٣٦١.

(١٥٤) ولد أبو محمد عبدالله بن أسعد اليافعى باليمن حوالى سنة ٧٠٠ هجرية وتوفى بمكة بالمعلى سنة ٧٦٨ هـ وكان يتعصب لمذهب الأشعرى ويذم ابن تيميه وكان شافعى المذهب.

(١٥٥) الدر النظيم لليافعى ص ١٠٠.

(١٥٦) كتاب أبى الحسن الشاذلى للأستاذ عمار جـ ١ ص ١٨٦

ويتابع الأستاذ عمار تفنيده لليافعي، الذى نسب حزب الدائرة للشاذلى فيقول: «ولكن العجب يزول إذا رجعنا إلى ما لفقه الملفقون من المحاولات لإيجاد الصلات، بين الشيخ أبى العباس البونى أكبر الدعاة لعلوم الأسماء والحروف والأوفاق والطلاسم فى القرن السابع الهجرى، وبين زعماء المدرسة الشاذلية الأولى»(١٥٧).

وقد أثبت عمار بطلان هذه الدعاوى عن وجود مثل هذه الصلة بين البونى وبين مدرسة الشاذلى الأولى، فإذا كان البونى يقول فى كتابيه: نبع أصول الحكمة، وشمس المعارف الكبرى(١٥٨)، «أخذت علم الحروف والأسماء والأوفاق عن مساعد بن ساوى الحميرى القرشى، عن شهاب الدين أحمد، عن تاج الدين بن عطاء الله السكندرى، عن أبى العباس المرسى(١٥٩).

فإذا طبقنا هذا السند على الوقائع التاريخية، حكمنا بأن البونى لم يقل ذلك، وإنما أولئك الذين اتبعوا طريقته، ليوقعوا الناس فيما وقعوا فيه من مجانبة التصوف الحق، الذى التزمه أقطاب الطريقة الشاذلية المحققون، ولد ابن عطاء الله سنة ٦٥٠هـ، بعد أن توفى البونى سنة ٦٢٢ هـ، بثمان وعشرين سنة كما هو ثابت فى تاريخه ومؤلفاته العديدة وبينهما ثلاثة من رجال السند، ولابد لنا أن نعتقد أحد أمرين وهما: أن تتأخر وفاة البونى نصف قرن على الأقل، أو يتقدم ميلاد ابن عطاء الله مثل ذلك ليتحقق صحة السند.

الثانى: وضعهم تلفيقا آخر، وهو قولهم على لسان البونى أيضاً: تلقيه قسماً بأسماء البرهنية. تلقيت عن أبى عبد الله الفاسى عن أبى العباس المرسى القسم الآتى:

بـدأت ببسم الله للروح هـاديـا إلى كشف أسرار علت فيه خافيا
فيها (برهيتـه) يا (كـرير) تمـدنى بـأسـرار «تتليـه» وسـر (بـراهيـا)

ولتطبيق هذا السند، نجد أن ميلاد المرسى، كان سنة ٦٢٢ هـ، ووفاة البونى كانت سنة ٦٢٢ هـ، وبينهما أبو العباس الفاسى، ولا يعقل أن يكون المرسى وهو فى السادسة من عمره وضع قسماً شعريًّا بأسماء البرهنية، تلقاه عنه أبو عبد الله الفاسى، ثم لقنه البونى على أن هذا السند يهدم السند الأول، الذى ورد على لسان البونى أيضا.

وهناك سند ثالث يقلب السندين السابقين رأساً على عقب، فبعد أن كان البونى تلميذاً لتلامذة المرسى، أصبح أستاذاً للمرسى رأساً، فقد ذكر الشيخ النبهانى فى كتاب جامع الكرامات فى تاريخ البونى ما نصه: «أخذ عنه أبو العباس المرسى».

وهذا السند وإن كان قريباً إلى الوضع التاريخى، إلا أننا لا نقر أن أبا العباس المرسى، وهو فى سن السادسة أخذ عن البونى طريقته فى علم الحروف والأسماء والأوفاق.

---

(١٥٧) كتاب أبى الحسن الشاذلى للأستاذ عمار جـ ١ ص ١٨٦.
(١٥٨) منبع أصول الحكمة للبونى ص ١١٩، وشمس المعارف الكبرى للبونى ص ٣١٤.
(١٥٩) كتاب الشاذلى لعلى عمار ص ١٢٧.

ومن هذا كله يتضح لنا بطلان الدعوى التى تؤكد وجود صلة بين البونى زعيم مدرسة الحروفيين فى القرن السابع الهجرى، وبين مدرسة الشاذلى، ولهذا فمن الخطأ نسبة حزب الدائرة إلى أبى الحسن الشاذلى.

وقد أردت من هذا العرض، أن أبين خطأ تلك الفكرة التى تقول: إن الدسوقى قد أخذ هذه الحروف المتقطعة التى احتواها حزبه الكبير عن حزب الدائرة للشاذلى، فقد تبين لنا أن هذا الحزب موضوع.

ومن هذه الناحية فإن افتراض الأول يصح على حزب الدائرة(١٦٠) المنسوب خطأ للشاذلى، وقد يكون صحيحًا أيضًا بالنسبة للدسوقى لوجود نفس الحروف فى الحزب الكبير للدسوقى(١٦١).

والاحتمال الثانى: وهو احتمال أضعف أن تكون هذه الألفاظ المنقطعة التى تضمنها الحزب الكبير للدسوقى، والتى لا معنى لها، هى أسماء أحوال لا يستطيع فهمها إلا صاحبها فقط، ولهذا فإننا نرى فى هذه الحالة بعدم ترديد هذه الحروف بالنسبة للمريد، فطالما أنه لا يفهمها فلن يتذوقها فألفاظ مثل: «طهور. بدعق..» أو «كدكد. كردد كرده. كرده ده الله رب العزة» التى احتواها حزب الدسوقى الكبير أى محاولة لتفسيرها إنما تكون من قبيل التخمين أو الاختلاق.

وقد عرضت نص الحزب الكبير للدسوقى بملحق النصوص بالكتاب، وسنلاحظ - كما قلنا - احتواءه على فقرات من حزب سيدى أحمد البدوى.

(١٦٠) قلت من قبل يحتمل أن تكون هذه الألفاظ وضعت وأدخلت فى أحزاب مشايخ الطرق من بعض الأتباع والمريدين المتأثرين بمدرسة البونى

(١٦١) وهى أيضًا نفس الحروف الموجودة فى حزب البسملة لعبد القادر الجيلانى

نهـاية المطـاف

وبعد عزيز القارئ ترى:

ما هى أهم نتائج هذه الدراسة حول الطرق الصوفية فى مصر؟

١ – من الجوانب التاريخيه: نلاحظ أن الصوفية منذ القرن الثالث الهجرى بدءوا يرتبون وينظمون أنفسهم جماعات وطرفا. فظهرت طرق السقطية نسبة إلى السرى السقطى، والطيفورية نسبة إلى أبى يزيد طيفور البسطامى، والجنيدية نسبة إلى الجنيد، والخرازية نسبة إلى أبى سعيد الخراز، والنورية نسبة إلى أبى الحسين النورى، والقصاريه نسبة إلى حمدون القصار، ولكن هذه الطرق لم تدم أو تستمر طويلًا، ومع ذلك فقد كانت حجر الزاوية والمدخل للطرق الصوفية، فى القرنين السادس والسابع الهجريين، وتمثل الطرق الصوفية الحركات العملية للتصوف الإسلامى، وقد كان القرن السابع الهجرى يمثل أوج ازدهارها وقوتها.

٢ – لعبت هذه الشخصيات الثلاث: أبو مدين التلمسانى، وعبدالسلام بن مشيش، وأبو الفتح الواسطى، دورا هاما فى حركة الطرق الصوفية فى مصر. فأبو مدين مثلا هو أستاذ ابن مشيش، وابن مشيش أستاذ الشاذلى صاحب الطريقة الشاذلية فى مصر وعجيب أيضا أن نعلم أن والدة سيدى أحمد البدوى حفيدة أبى مدين.

وأبو الفتح الواسطى كما ذكرنا، هو الذى نصح الشاذلى حين اجتمع به بالعراق، أن يرجع إلى بلاده بالمغرب، ويلتقى بأستاذه القطب عبد السلام بن مشيش، الذى تسلك على يد الإمام برى الحسينى أحد أصحاب سيدى أحمد الرفاعى، ومن هنا نتلمس أيضا بصمات الرفاعى فى تسلك ابن مشيش أستاذ الشاذلى.

والحق أن دور الرفاعية كبير فى حركة الطرق الصوفية فى مصر، فقد كان الواسطى خليفة الرفاعى بمصر، ودوره خطير فى تأسيس حركة الطرق الصوفية بها، وقد كان الواسطى والد السيدة فاطمة أم سيدى إبراهيم الدسوقى صاحب الطريقة الدسوقية الكبير.

وحين مات الواسطى، أرسل الرفاعيون بالعراق سيدى أحمد البدوى لمصر، وبها بشر بطريقته البدوية السطوحية.

هذا وقد بينا بالسند التاريخى، أن قصة استقبال الظاهر بيبرس للبدوى لا أساس لها من الصحة، وقلنا: إنه يجوز فقط أن يكون الظاهر بيبرس الذى كان معتقداً فى المشايخ والأولياء زار البدوى بعد مجيئه لمصر بعدة سنوات طويلة، فقد جاء البدوى مصر حوالى سنة ٦٣٥ هـ، وعاش بها حوالى أربعين عاما حتى سنة ٦٧٥ هـ، بينما تولى الظاهر حكم مصر سنة ٦٥٨ هـ.

٣- كان القرن السابع الهجرى فى مصر كما بينا هو قرن التصوف، وقرن الطرق الصوفية بها، فقد ظهر خلاله عدد كبير من المتصوفة، وظهر فيه أهم أصحاب الطرق الصوفية الذين مازالت طرقهم قائمة حتى اليوم.

واتضح لنا من هذه الدراسة أن كبار الصوفية فى مصر فى هذا القرن، كانوا من أصل مغربى، (كالبدوى، والشاذلى، ولم يكن هناك بمصر طريقة صوفية محلية عدا الطريقة الدسوقية، فصاحبها سيدى إبراهيم الدسوقى ولد وعاش بدسوق مصر وإن كان والد أمه أبو الفتح الواسطى عراقى المولد والمنشأ والأصل.

وقد يكون من العوامل التى ساعدت على انتشار الطرق الصوفية فى مصر فى هذا القرن، تشجيع الحكام لحركات الطرق الصوفية، وقد وجدنا منهم (الظاهر بيبرس) من يعلن تبركه وولاءه لمشايخ الطرق، كما وجدنا أن حاجات هؤلاء المشايخ ومصالحهم كثيراً ما كانت تقضى لدى الحكام، وأيضا نجد أن الظروف الضارية التى عاشها الشعب فى هذا القرن، جعلتهم يبحثون عن طريق، فوجد بعضهم الطريق فى الانضمام لإحدى الطرق الصوفية، التى قد يجد فيها متنفساً للتعبير عن معاناته وآلامه.

ومما ساعد على ذلك انتشار تلك الكرامات العجيبة حول شيوخ الطرق، والتى اختلقها بعض المريدين، ازدياد إقبال الجماهير الشعبية على الانضمام لطرقهم.

وكما ذكرنا: بأننا لا ننكر الكرامة، وإنما ننكر الخزعبلات التى امتلأت بها كتب المريدين، وكتب الطبقات، والمناقب حول أصحاب الطرق، وساعد على انتشار هذه الكرامات ظروف المجتمع الهابطة فأضفى مريدو الطريق على شيوخهم هالةً من الأساطير، يتنفعون ويتكسبون على حساب سمعة شيخهم بما يقدم لهم من صدقات ونذور وهبات وأوقاف.

وقد ترتب على ذلك: ظهور هذه الفئة من المريدين والمتكسبين من الانتساب للطرق، وإتيانهم أموراً لا يرضى عنها الإسلام، فظهرت جماعات المتواكلين والدجالين والبله الذين يتكسبون من وراء لبس الخرق والهلاهيل والانتساب زورًا للطريق.

ظهر ذلك كله بعد القرن السابع الهجرى، والقرون التالية له، بينما وجدنا أصحاب الطرق الصوفية ينبهون تلاميذهم، وأبناء طريقتهم إلى ضرورة العمل والتكسب على ما رأينًا فى هذه الدراسة.

٤ - تبين لنا من هذه الدراسة، أنه لم يقل أى شيخ من هؤلاء الشيوخ الأجلاء فى القرن السابع الهجرى لأبناء طريقته، بإقامة مثل هذه الأضرحة الفخمة لهم، مما أدى إلى تقديس مريديهم لهم، وتوسلهم بهم، وفى ذلك بعد عن الإسلام الصحيح.

٥ - ولم يقل أصحاب الطرق الصوفية فى القرن السابع الهجرى بالسماع على ما بينا فى هذه الدراسة، ومع ذلك فقد خالف بعض السلف، وسمعوا وأسمعوا، بل جعلوا السماع من خصائص الطريق، واستخدموا فى ذلك الموسيقى والغناء وإنشاد الشعر والمنظومات، مما أساء إلى الطريق إساءة بالغة، وفى ذلك مخالفة صريحة من بعض أبناء الطريق لأصحاب الطرق الذين لم يقولوا بالسماع، وقد

نتج عن ذلك ما نراه من هذه الصور الكريهة لذكر الله تعالى حيث تحولت بعض حلقات الذكر إلى موسيقى وإيقاعات، وهكذا ابتعدت الطرق الصوفية عن أصولها الحقيقية عند فكر أقطابها المؤسسين لها، وهى الآن تحاول التأصيل بالعودة إلى الفكر الصحيح لأقطابها الأجلاء.

٦ - ومن أهم النتائج التى خرجنا بها من هذه الدراسة أن الطرق الصوفية تمثل الاتجاه الأخلاقى العملى فى التصوف الإسلامى، وأتمنى ألا أكون مغاليًا أو مبالغًا حين أقول: إن الطرق الصوفية فى القرن السابع الهجرى كانت تمثل مدرسةً أخلاقيةً كبيرةً فيها يعيش الصوفى حياةً صادقةً تبغى وجه الله ومحبته، وفى هذه المدرسة يسير المريد تحت إشراف شيخه حتى يرقى بنفسه ويخلصها من علائق الجسد.

وبذا تسعد النفس الإنسانية وتحقق كمالها.

٧ - وقد وجدنا فى الجانب العملى للطرق الصوفية فى القرن السابع الهجرى عهدًا بين الشيخ والمريد، على التوبة، والبعد عن المعاصى، والعمل بكتاب الله وسنة رسوله، فكان الطريق فى القرن السابع الهجرى عهدًا بين الشيخ والمريد على التوبة، والبعد عن المعاصى، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، ثم يأخذ الشيخ بعد ذلك فى تربية مريده الصادق والارتقاء به فى مدارج السلوك، غايته «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وهى غاية كل مسلم وكل صوفى صادق ﴿**قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين**﴾*.

ولقد تبين لنا من هذه الدراسة أن الطرق الصوفية فى القرن السابع الهجرى دعوة إلى اتباع الشريعة الغراء، فوجدنا مثلا السيد البدوى يقول: «هذه طريقتنا مبنية على الكتاب والسنة والصدق»، والشاذلى يقول: «ارجع عن منازعة ربك تكن موحدًا، واعمل بأركان الشرع تكن متشرعًا واجمع بينهما تكن محققاً»، وكان الدسوقى يقول لمن يطلب منه سلوك الطريق: «يا فلان: اسلك طريق النسك على كتاب الله تعالى وسنة نبيه محمد ﷺ»، والذى لا شك فيه أن الغاية الإسلامية كانت أهم ما هدف إليه أصحاب الطريق.

٨ - أما الصلات المشتركة فى الجانب النظرى بين الشيعة وأصحاب الطرق الصوفية فمبعثها قولهم: بالحقيقة المحمدية، وفى جعل مستند طريقتهم فى لبس الخرقة من الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه.

ثم إننا نلاحظ، أن المرجع الدينى الأول لدى الشيعة هو «الإمام» والشيخ، عند أصحاب الطرق، كما أن مصدر العلم لدنى إلهى عند الشيعة وأصحاب الطرق الصوفية وأبناء الطرق الصوفية يضفون الكرامات على مشايخهم، وكذا الشيعة يضفونها على أئمتهم.

وقد وجدنا مثلًا خلوة السبعة أيام عند الرفاعى وصلتها بالتشيع، وعند الجيلانى نجد توارث المشيخة كتوارث الإمامة الشيعية، وعند البدوى نجد نظرية تنقل النور المحمدى، وعند الشاذلى نجد نظرية الحقيقة المحمدية، ويقوم الجانب النظرى عند الدسوقى على أساس فكرة الحقيقة المحمدية.

---

* سورة الأنعام - آية (١٦٢).

وإذا كنا نجد فى الجانب النظرى، من فكر أصحاب الطرق الصوفية بعض الأفكار المشتركة بينهم وبين الشيعة، لكن هذا لا يجعلنا نغالى فى الحكم عليهم، ونتهمهم بأنهم كانوا دعاة للشيعة، أو بأنهم كانوا جواسيس للفاطميين فى مصر، ولعل مبعث هذه التهمة، هو تأكيد أصحاب الطرق المستمر على نسبهم العلوى وأخذهم الخرقة عنه، وحبهم لأبنيه سبطَىْ رسول الله ﷺ.

وينبغى ألا ننسى أن المسلمين، سنة وشيعة يشتركون فى هذا الحب العظيم لآل البيت الكريم، ﴿قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى﴾*.

إن روح الموضوعية العلمية تقتضى منا ألا نكون مغالين فى أحكامنا أو متحاملين، أو متعاطفين، بل نقولها كلمة نبغى بها وجه الله تعالى، أن ما بين التشيع والطرق الصوفية هى اللمسات التى لا ترقى أبدًا إلى مستوى أن يكون أصحابها جواسيس للفاطميين فى مصر، وإنما الذى بينهما لا يتعدى أن يكون وجود بعض العناصر المشتركة التى تظهر فى فكر الطائفتين، وهذا لا يجعلنا نقول بتشيع الطرق الصوفية، أو تصوف التشيع، لأننا لسنا من أنصار مدرسة التأثير والتأثر، كما ذكرنا كثيرًا.

وفى النهاية نقولها مخلصين صادقين، لقد كانت الطرق الصوفية فى القرن السابع الهجرى مدارس تربية حقيقية، غايتها خلقية، تهدف لخلق المسلم المتكامل نفسًا وروحًا وجسدًا، ولكن بعض أبناء الطرق فى القرون التالية حولوا الطريق إلى موالد ومناقب وأساطير وخرافات وتمائم، فأخطأوا الطريق ونسبوا لهم ما لم يقولوا به، وأتوا ما لم يأتوه، ومع ذلك فقد ظهرت فى العصر الحديث وفى أيامنا هذه بالذات، محاولات جادة لإصلاح الطرق الصوفية على يد بعض مشايخها وأبنائها المخلصين.

وبعد.. فلا زلت مع العماد الأصفهانى حين يقول: «إنى رأيت أنه لا يكتب أحد كتابا فى يومه إلا قال فى غده، لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر».

ثم يبقى أن: أحمدك ربى كثيراً على سابغ نعمائك وعطاياك علىّ، وأسألك الهداية والتوفيق، وأسألك الشكر على العافية، والغنى عن الناس، وأسألك الجنة يا رب العالمين.

فإن كنت قد وفقت فلله المنة والشكر، وإن أكن قد قصرت فإن الكمال لله وحده، ومنه أستمد العون لدرك ما فاتنى، وهو الموفق والهادى سواء السبيل.

د. عـامر النجـار

---

* سورة الشورى - آية ٢٣

ملحق الأحزاب

سيدى عبد القادر الجيلانى وأذكاره

من أوراد القطب الربانى سيدى عبد القادر الجيلانى ودعائه نذكر ورد الجلالة ودعاءه ودعاء سورة الواقعة.

ورد الجلالة(١٦٢)

وهو أن تقرأ الجلالة عدد ١٧,١٦٦، وبعد القراءة تقسم عليها هذا القسم:

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم إنى أسألك بالألف القائم الذى ليس قبله سابق، وباللامين اللتين طمست بهما الأسرار وجعلتهما بين العقل والروح، وأخذت عليهما المواثق، وبالهاء المحيطة بالعلوم الجوامد، والمتحركة، والصوامت والنواطق، وأسألك باسمك العظيم الأعظم، هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن(١٦٣) العزيز الجبار المتكبر، النور الهادى البديع القادر، الذى تشعشع فارتفع، وقهر فصدع(١٦٤)، ونظر للجبل فتقطع وخر موسى صعقا من الفزع(١٦٥)، أنت الله الإله الأكرم الأزلى السر مدى الذى لا يحول وتدهش منه العقول، اللهم إنى أسألك بسر سرك الذى هو أنت وعدت به قلوب أهل الذكر بخفى جولان معرفتك بالفكر، اغمسنى يا ألله يا ألله فى بحر أنوارك، واملأ قلبى من أسرارك، ومكنى فيك، ومنك، وأسألك الوصول بالسر الذى تدهش منه العقول، فهو من قربه ذاهل، أيتنوخ يا ملوخ باى وامن أى وامن مهباش(١٦٦)، الذى له ملك السموات والأرض، اللهم إن سمعى وبصرى وسرى وجهرى وباطنى وظاهرى، يشهد لك بالوحدانية، اجعلنى أشاهد القدرة النورانية يا ألله هو -، وتدعو بما تريد، ثم تقول:

يا من يستغاث به إذا عدم المغيث، ويستنصر به إذا عدم المغيث، ويستنصر به إذا عدم النصير، وينتفع به إذا غلقت أبواب الملوك المرتجية، وحجبته القلوب الغافلة الملهية.

---

(١٦٢) عن كتاب دعاء وأذكار للأستاذ عبد الله زينة.

(١٦٣) هيمن على كذا صار رقيبا عليه وحافظا.

(١٦٤) صدع عدوه: شقه نصفين.

(١٦٥) إشارة إلى ما حدث عندما طلب موسى عليه السلام من ربه أن يراه فقال له: إن استقر الجبل من تظرق إليه فسوف ترانى، فلما تجلى سبحانه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا وهذه القصة فى سورة الأعراف.

(١٦٦) عبارات ممتزجة بحروف لا يدرى معناها إلا من أفاض الله عليهم المعرفة والأنوار.

طهفلوش، انقطع الرجاء إلا منك، وسدت الطرق إلا إليك، وخابت الآمال إلا فيك، واغوثاه واعوثاه، العجل العجل العجل، الإجابة الإجابة الإجابة، أجب دعوتى، واقض حاجتى، واكشف عن بصيرتى، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

والحمد لله رب العالمين.

ومن دعائه قدس الله سره:

دعاء الجلالة
بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم إنى أسألك بسر الذات وبذات السر، هو أنت وأنت هو، احتجبت بنور الله، وبنور عرش الله، وبكل اسم لله من عدوى، وعدو الله، بمائة ألف لا حول ولا قوة إلا بالله، وختمت على نفسى وعلى أهلى، وعلى كل شيء أعطانيه ربى بخاتم الله المنيع، الذى ختم به السموات والأرض، وحسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين آمين.

ومن دعائه لتيسير الرزق وقضاء الحاجات.

دعاء سورة الواقعة(١٦٧)
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إذا وقعت الواقعة(١٦٨) ليس لوقعتها كاذبة(١٦٩) خافضة رافعة(١٧٠). إذا رجت الأرض رجا(١٧١) وبست الجبال بسا(١٧٢). فكانت هباء منبثا(١٧٣). وكنتم أزواجا ثلاثة(١٧٤) فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة(١٧٥). وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة(١٧٦). والسابقون

(١٦٧) سورة الواقعة مكية إلا آيتى ٨١، ٨٢ فمدنيتان وآياتها ٩٦ آية نزلت بعد سورة طه ويقول القطب الربانى سيدى عبد القادر الجيلانى فى شأن هذا الدعاء: قد اقتصرت على دعاء الواقعة لتيسير الرزق لأن من قرأ سورة الواقعة إحدى وأربعين مرة فى مجلس واحد، قضيت حاجته وخصوصا فيما يتعلق بطلب الرزق، وكذلك قراءتها بعد صلاة العصر أربع عشرة مرة وهذا مجرب مشهور (وقد أورد السورة ممتزجة بالدعاء).

(١٦٨) الواقعة: القيامة.

(١٦٩) لا يكون حين تقع نفس تكذب على الله أو تكذب فى نفسها.

(١٧٠) تخفض قوما وترفع قوما.

(١٧١) هزت هزا عنيفا.

(١٧٢) فتت وصارت كالسويق الملتوت

(١٧٣) غبارا منتشرا.

(١٧٤) أصنافا ثلاثة حسب أعمالكم. أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، والسابقون.

(١٧٥، ١٧٦) أصحاب الميمنة الذين يأخذون صحائف أعمالهم بأيمانهم، وأصحاب المشأمة الذين يأخذونها بشمائلهم.

السابقون(١٧٧). أولئك المقربون. فى جنات النعيم. ثلة(١٧٨) من الأولين. وقليل من الآخرين. على سرر موضونة(١٧٩) متكئين عليها متقابلين. يطوف عليهم ولدان مخلدون(١٨٠). بأكواب وأباريق وكأس من معين(١٨١). لا يصدعون عنها ولا ينزفون(١٨٢) وفاكهة مما يتخيرون. ولحم طير مما يشتهون. وحور عين(١٨٣) كأمثال اللؤلؤ المكنون(١٨٤) جزاء بما كانوا يعملون. لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما(١٨٥) إلا قيلا سلاما سلاما(١٨٦) وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين. فى سدر مخضود(١٨٧). وطلح منضود(١٨٨) وظل ممدود. وماء مسكوب(١٨٩) وفاكهة كثيرة. لا مقطوعة ولا ممنوعة(١٩٠) وفرش مرفوعة(١٩١) إنّا أنشأناهن إنشاء. فجعلناهن أبكارًا. عربا أترابا(١٩٢). لأصحاب اليمين. ثلة من الأولين. وثلة من الآخرين. وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال. فى سموم وحميم(١٩٣) وظل من يحموم(١٩٤) لا بارد ولا كريم. إنهم كانوا قبل ذلك مترفين(١٩٥) وكانوا يصرون على الحنث العظيم(١٩٦) وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون. أو آباؤنا الأولون. قل إن الأولين والآخرين. لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم(١٩٧)﴾.

اللهم يا أول الأولين وآخر الآخرين، ويا ذا القوة المتين، ويا راحم المساكين ويا أرحم الراحمين أنت رب العالمين، بحاء الرحمة وميم الملك ودال الدوام يا من هو أحون قاف أدم حم هاء أمين(١٩٨)،

---

(١٧٧) السابقون إلى الإيمان

(١٧٨) جماعة كثيرة العدد.

(١٧٩) سرر منسوجة بالذهب ومشبكة بالدر

(١٨٠) ولدان خالدون أو يتزينون بالقرط فى آذانهم.

(١٨١) كأس من معين- أى من عين نابعة من الأرض.

(١٨٢) لا يحدث لهم صداع ولا سكر.

(١٨٣) نساء واسعات العيون شديدة بياض بياضها وسواد سوادها.

(١٨٤) المكنون المصون المحفوظ.

(١٨٥) لغوا ولا تأثيما. اللغو الكلام الذى لا فائدة له، والتأثيم هو نسبتهم إلى الإثم.

(١٨٦) إلا أن يقال لهم: سلاما سلاما.

(١٨٧) شجر نبق لا شوك فيه.

(١٨٨) شجر موز منتظم الثمر.

(١٨٩) ماء مصبوب بين أيديهم.

(١٩٠) لا تنقطع فى وقت من الأوقات ولا تمنع عن تناولها.

(١٩١) فرش عالية القدر أو مرتفعة عن الأرض، أو النساء وارتفاعها لأنها على الأرائك.

(١٩٢) عربا: جمع عروب وهى المرأة المتحببة إلى زوجها، أترابا: من سن واحدة.

(١٩٣) سموم: الحرارة التى تنفذ فى المسام. وحميم- ماء متناه فى الحرارة.

(١٩٤) يحموم: دخان أسود كريه.

(١٩٥) مترفين: متنعمين.

(١٩٦) يتمسكون بالذنب العظيم وهو الشرك.

(١٩٧) الأولون والآخرون لمجموعون لموعد يوم محدد ومعروف.

(١٩٨) (أحون، قاف، آدم، حم، هاء، أمين) يقول الصوفية: إن هذه الأسماء من لغة الأرواح، وبها يتخاطب أهل الفتح الكبير، والمعانى فى هذه اللغة تؤديها الحروف الهجائية لا العبارات، فكل حرف هجائى له معناه وإذا ضم إلى حرف آخر كانا كعبارة مفيده، ويرتقى المتكلم بها إلى معانى الحروف الهجائية وأسرارها ولا يعرف ذلك إلا الربانيون، وقد روى أن القطب الدسوقى قال: إنى أسرح فى نقطة الباء سبعة أحمال بعير فتتقطع قلوب العارفين وتهتز وتميل عند معرفة نقطة الباء.

وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم(١٩٩) فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه(٢٠٠) فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما، اللهم أهدنا صراطك المستقيم(٢٠١)، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض، ألا إلى الله تصير الأمور، اللهم اهدنى من عندك وأفض علىّ من بركاتك وفضلك وانشر على من رحمتك، وأدبنى بين يديك، اللهم منك وإليك إنك على كل شىء قدير.

﴿ثم إنكم أيها الضالون المكذبون. لآكلون من شجر من زقوم(٢٠٢) فمالئون منها البطون، فشاربون عليه من الحميم، فشاربون شرب الهيم(٢٠٣) هذا نزلهم يوم الدين(٢٠٤). نحن خلقناكم فلولا تصدقون. أفرأيتم ما تمنون(٢٠٥)، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين(٢٠٦)، على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون. أفرأيتم ما تحرثون(٢٠٧)، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون، لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون(٢٠٨)، إنا لمغرمون(٢٠٩) بل نحن محرومون، أفرأيتم الماء الذى تشربون، أأنتم أنزلتموه من المزن(٢١٠) أم نحن المنزلون، لو نشاء جعلناه أجاجا(٢١١) فلولا تشكرون، أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون، نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين، فسبح باسم ربك العظيم﴾.

اللهم إنى أسألك بمقاعد العز من عرشك، وبمنتهى الرحمة من كتابك، وباسمك الأعلى، ومجدك الأسنى، وإسراق نور وجهك الأجل الأجلى، وبفضلك الكريم وجودك العميم، وبكلماتك التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر، يا أكرم الأكرمين، يا بارئ، يا جواد، يا رحمن، يا رحيم، يا مغيث، يا كفيل، يا رقيب يا حسيب، يا جليل، أسألك أن تصلى وتسلّم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

---

(١٩٩) سيماهم: علامتهم.

(٢٠٠) أخرج شطأه أخرج فراخه، كالفسائل التى تنبت جانب النخل والشجر أو كالبراعم التى تنبت بجانب الساق

(٢٠١) الصراط: الطريق المستقيم الذى لا عوج فيه

(٢٠٢) زقوم: شجر له ثمر مر المذاق.

(٢٠٣) شربا كثيرًا كشرب الإبل التى بها داء الهيام وهو داء يشبه الاستسقاء.

(٢٠٤) نزلهم. ما يقدم لهم مؤقتا من الأطعمة الخفيفة إلى أن ينالوا ما يستحقونه من ألوان العذاب.

(٢٠٥) تمنون: ما تضعونه فى الأرحام من نطفة.

(٢٠٦) وما نحن بمسبوقين: لا يسبقنا أحد ولا يفر من الموت إنسان.

(٢٠٧) تحرثون: تزرعون.

(٢٠٨) حطاما: فتاتا محطما، فظلتم تفكهون. أى لبقيتم تتحدثون فى تعجب واستغراب.

(٢٠٩) نحن هالكون لهلاك رزقنا.

(٢١٠) المزن: السحاب الأبيض الذى يأتى بالمطر.

(٢١١) أجاجا: ملحا.

وسلم، وأن تغفر لى، وترحمنى، وترزقنى، فإنك خير الرازقين، اللهم ارزقنى خير الصباح، وخير المساء، وخير القدر، وخير القضاء، وخير ما جرى به القلم، اللهم إنى أصبحت لا أستطيع دفع ما أجتنى، ولا أملك نفع ما أرجو، وأصبح الأمر بيدك وأصبحت مرتهنا[٢١٢] بعملى، فلا فقير افقر منى، ولا غنى أغنى منك، يا حى يا قيوم يا حى يا قيوم، يا حى يا قيوم، (ثلاثين مرة) برحمتك أستغيث، إلهى لا تسمت عدوى بى، ولا تسىء بى صديقى، ولا تجعل الدنيا أكبر همى، ولا مبلغ علمى ولا تسلط على من لا يرحمنى، اللهم ارزقنى رزقًا طالبًا غير مطلوب غالبًا غير مغلوب، اللهم ربنا أنزل مائدة من السماء تكون لنا عيدًا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقًا قال يا مريم: أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، اللهم إن كان رزقى فى السماء فأنزله وإن كان فى الأرض فأخرجه، وإن كان معدوما فأوجده، وإن كان موجودا فأثبته، وإن كان بعيدا فقربه، وإن كان كثيرًا فهونه وإن لم يكن شيئا فكونه، وانقله إلى حيث كنت، ولا تنقلنى إلى حيث كان، وبارك لى فيه، وتولى أمرى بيدك، وحل بينى وبين غيرك فيه، واجعل يداى عليا بالإعطاء، ولا تجعل يداى سفلى بالاستعطاء، اللهم أنا وعيلتى عليك وأنت أقمتنى وكيلا فلا تسلبنى وإياهم ما أودعتنى، يا أرحم الراحمين، يا أكرم الأكرمين تكرم علينا، يا قريب يا مجيب، قرعت أبواب خزائن رحمتك، إنك أنت الفتاح العليم، اللهم يا غنى يا حميد، يا مبدئ، يا معيد، يا رحيم، يا ودود، اغننى بحلالك عن حرامك، وبفضلك عمن سواك، يا ذا المن ولا يمن عليه، يا من يجير ولا يجار عليه، ياذا الجلال والإكرام، ياذا الطول والإنعام، لا إله إلا أنت يا ظهير، سبحانك لا إله إلا أنت يا أمان الخائفين، اللهم إن كنت كتبتنى عندك فى أم الكتاب شقيا أو محروما أو مطرودا فاثبتنى عندك فى أم الكتاب سعيدًا مرزوقًا موفقًا للخيرات فإنك قلت وقولك الحق فى كتابك المنزل على لسان نبيك المرسل، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب، دعوناك اللهم كما أمرتنا فاستجب لنا كما وعدتنا، يا حى، يا قيوم، يا بديع السموات والأرض، ياذا الجلال والإكرام، فرج عنى ما أنا فيه من الضيق، يا قديم الإحسان، يا حنان، يا منان، يا دائم، يا مملى، كنوز أهل الغنى، ومغنى أهل الفاقة من سعة تلك الكنوز بالفائدة، اللهم لا إله إلا أنت ساتر، وجابر الكسر ارحم فقرى إليك، اللهم إنى أسألك حسن الحال فى غناك الذى لا يفتقر ذاكره، وأن تفيدنى من الكرامة ما أستر به دينى، إنك أنت الأعظم، وهذا صباح جديد نسألك العصمة فيه من الشيطان، والمعونة على هذه النفس الأمارة بالسوء، والاشتغال بما يقربنا إليك زلفى، ياذا الجلال والإكرام، وهاب باسط، فتاح رزاق، واسع غنى، مغن منعم متفضل، اللهم آتنى بفضلك العظيم رزقًا واسعًا وافرًا غدقًا متسعًا، يابر يا تواب، يا هو يا رحمن، يا رحيم، (فلا أقسم بمواقع النجوم[٢١٣]، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم، إنه لقرآن كريم، فى كتاب مكنون[٢١٤] لا يمسه إلا المطهرون[٢١٥]. تنزيل من رب العالمين، أفبهذا الحديث أنتم

---

(٢١٢) مرتهنا. محتبسا

(٢١٣) مواقع النجوم: مساقطها.

(٢١٤) كتاب مكنون: مصون عند الله فى اللوح المحفوظ.

(٢١٥) لا يمس اللوح المحفوظ إلا الملائكة المطهرون من الكدورات الجسمانية أو لا يمس القرآن إلا المطهرون من الأحداث

مدهنون(٢١٦)، وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون(٢١٧) فلولا إذا بلغت الحلقوم(٢١٨)، وأنتم حينئذ تنظرون، ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون، فلولا إن كنتم غير مدينين(٢١٩) ترجعونها إن كنتم صادقين، فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم(٢٢٠)، وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين، وأما إن كان من المكذبين الضالين، فنزل من حميم(٢٢١) وتصلية جحيم(٢٢٢). إن هذا لهو حق اليقين، فسبح باسم ربك العظيم(٢٢٣) اللهم يسر لى أمرى ورزقى واعصمنى من النصب فى طلبه ومن الهم والبخل للخلق وبسببه، ومن التفكر والتذمر فى تحصيله، ومن الشح والبخل بعد حصوله، واجعله سببا لإقامة العبودية ومشاهدة أحكام الربوبية، إلهى تولى أمرى بذلك، ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين، ولا أقل من ذلك، اللهم إنى أسألك يا ألله، اللهم إنى أسألك يا ألله، اللهم إنى أسألك يا ألله يا أحد، يا فرد، يا صمد، يا باسط، يا غنى، بمهبهوب ذى لطف خفى، بصعصع بسهسهوب ذى العز الشامخ، الذى له العظمة والكبرياء، بطهطهوب بطهطهوب لهوب ذى القدرة والبرهان والعظمة والسلطان، وأسألك باسمك المرتفع الذى أعطيته من شئت من أولئك، وألهمته لأحبابك من أصفيائك، اللهم إنى أسألك باسمك المخزون المكنون المبارك الطاهر المطهر المقدس أن تعطينى رزقًا من عندك، تهدى به قلبى، وتغنى به فقرى، وتقطع به علائق الشيطان من قلبى، إنك أنت الحنان الوهاب الرزاق الفتاح العليم الباسط الجواد، الكافى الغنى المغنى، الكريم المعطى، الواسع الشكور، ذو الفضل والنعم، والجود والكرم، اللهم إنى أسألك بحقك، وحق حقك، وبجودك وكرمك وإحسانك، وبحق اسمك العظيم الأعظم، وبحق نبيك محمد ﷺ، أن تجيب دعوتى، بحق سورة الواقعة، وبحق فقج مخمت فتاح قادر جبار فرد معطى، خير الرازقين، مغنى البائس الفقير، تواب لا يؤخذ بالجرائم، يسر أمرى، وارزقنى رزقًا حلالاً طيبًا مباركًا واجمع بينى وبينه واجعله من نصيبى، يا ذا الجلال والإكرام إنك على كل شىء قدير، وبالإجابة جدير، وصل بجمالك وكمالك على أشرف مخلوقاتك سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم إنى أصبحت وأمسيت وأنا أحب الخير وأكره الشر، وسبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، اللهم اهدنى بنورك لنورك فيما يرد على منك، وفيما يصدر منى إليك، وفيما يجرى بينى وبين خلقك، اللهم سخر لى رزقى، واعصمنى من الحرص والتعب فى طلبه، ومن شغل القلب، وتعلق الفكر بسببه، ومن الذل للخلق فيه، ومن الشح والبخل بعد حصوله.

---

(٢١٦) مدهنون: متهاونون.
(٢١٧) وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون به
(٢١٨) فهلا إذا بلغت روح المريض حلقومه.
(٢١٩) غير مدينين: غير مقهورين.
(٢٢٠) روح: استراحة ريحان: رزق طيب
(٢٢١) نزل: النزل ما يقدم للضيف قبل الطعام، حميم: ماء متناه فى الحرارة.
(٢٢٢) تصلية: مصدر صلاه النار أى أدخله فيها.
(٢٣٣) سبح: نزه عن النقص.

اللهم يسر لى رزقًا حلالاً طيبًا وعجل لى به يا نعم المجيب.
اللهم يسر لى رزقًا حلالاً طيبًا وعجل لى به يا نعم المجيب.
اللهم يسر لى رزقًا حلالاً طيبًا وعجل لى به يا نعم المجيب.

اللهم إنه ليس فى السماء دورات، ولا فى الأرض غمرات، ولا فى البحار قطرات، ولا فى الجبال مدرات، ولا فى الشجر ورقات، ولا فى الأجسام حركات، ولا فى العيون لحظات، ولا فى النفوس خطرات إلا وهى بك عارفات، ولك مشاهدات، وعليك دالات، وفى ملكك متحيرات، فبالقدرة التى سخرت بها أهل الأرض والسموات، سخر لى قلوب المخلوقات، إنك على كل شىء قدير، اللهم ارحم فقرى، واجبر كسرى، واجعل لطفك فى أمرى، واجعل لى لسان صدق واجعله محلا للخطاب والنطق بالصواب، والعمل بالسنة والكتاب، اللهم ذكرنى إذا نسيت، ويقظنى إذا غفلت، واغفر لى إذا عصيت، واقبلنى إذا أطعت، وارحمنى إنك على كل شىء قدير.

اللهم نور بكتابك بصرى، واشرح به صدرى، ويسر به أمرى، وأطلق به لسانى، وفرج به كربتى، ونور به قلبى، وأكرم قلبى بالحب والفهم، وارزقنى القرآن العظيم والعلم والفهم، يا قاضى الحاجات أكرمنى بأنواع الخيرات، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وصل بجمالك وكمالك على أسعد مخلوقاتك، سيدنا محمد ﷺ وعلى آله، وصحبه، وآل بيته، وأزواجه، وأنصاره، وأشياعه، وأهل عترته، وجميع الأنبياء والمرسلين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وتقرأ الفاتحة، وتهب ثوابها للنبى والصحابة والمرسلين وجميع عباد الله الصالحين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرًا إلى يوم الدين.. آمين.

سيدى أحمد الرفاعى
صلواته وأحزابه

للإمام الرفاعى أوراد كثيرة وأدعية متعددة ونختار منها على سبيل التبرك (الصغير) والصلاة على النبى ﷺ التى تقرأ بعده.

الحزب الصغير
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين إياك نعبد، وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، آمين.

بسم الله الرحمن الرحيم ألم، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب

ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون.

والهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم.

لله ما فى السموات والأرض وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شىء قدير.

آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. اللهم إنى أسألك بعظيم قديم كريم مكنون مخزون أسمائك، وبأنواع أجناس رقوم نقوش أنوارك، وبعزيز إعزاز عزتك، وبحول طول حول شديد قوتك، وبقدرة مقدار اقتدار قدرتك، وبتأييد تحميد تمجيد عظمتك، وبسمو نمو علو رفعتك، وبقيوم ديوم دوام أبديتك، وبرضوان غفران أمان مغفرتك، وبرفيع بديع منيع سلطانك، وبصلات سعات بساط رحمتك، وبلوامع بوارق صواعق عجيج وهيج بهيج نور ذاتك، وببهر جهرميمون ارتباط وحدانيتك، وبهدير تيار أمواج بحرك المحيط بملكوتك، وباتساع انفساح ميادين برازخ كرسيك، وبهيكليات علويات روحانيات أملاك عرشك، وبالأملاك الروحانيين المدبرين لكواكب أفلاكك، وبحنين أنين تسكين المريدين لقربك، وبحرقات زفرات خضعات الخائفين من سطوتك، وبآمال نوال أقوال المجتهدين فى مرضاتك، وبتحميد تمجد تهجد تجلد العابدين على طاعتك، يا أول، يا آخر، يا ظاهر، يا باطن، يا قديم، يا مقيت، اطمس بطلسم بسم الله الرحمن الرحيم سر سويداء قلوب أعدائنا وأعدائك، ودق أعناق رءوس الظلمة بسيوف نمشات قهر سطوتك، واحجبنا بحجبك الكثيفة عن لحظات لمحات أبصارهم الضيقة بحولك وقوتك، وصب علينا من أنابيب ميازيب التوفيق فى روضات السعادة آناء الليل وأطراف نهارك، واغمسنا فى حياض سواقى مساقى برك ورحمتك، وقيدنا بقيود السلامة عن الوقوع فى معصيتك، يا أول، يا آخر، يا ظاهر، يا باطن، يا قديم، يا مقيت، اللهم ذهلت العقول، وانحصرت الأفهام، وحارت الأوهام، وبعدت الخواطر، وقصرت الظنون عن إدراك كنه كيفية ما ظهر من مبادئ عجائب أنواع قدرتك، دون البلوغ إلى تلألؤ لمعات بروق شروق أسمائك، اللهم محرك الحركات ومبدى النهايات، ومشقق صم الصلاديد، والصخور

الراسيات، المنبع منها ماء معينا للمخلوقات المحيى بها سائر الحيوانات والنباتات والعالم بما اختلج فى سر وهم، نطق إشارات خفيات لغات النمل السارحات، ومن سبحت وقدست وعظمت ومجدت بجلال جمال كمال أفضال عزك، ملائكة السبع سموات، اجعلنا اللهم يا مولانا فى هذه الساعة المباركة، ممن دعاك فأجبته، وسألك فأعطيته، وتضرع إليك فرحمته، وإلى دارك دار السلام أدنيته وقربته، جد علينا بفضلك يا جواد، عاملنا بما أنت أهله، ولا تعاملنا بما نحن أهله إنك أنت أهل التقوى وأهل المغفرة، يا أرحم الراحمين ارحمنا، يا أرحم الراحمين ارحمنا، يا أرحم الراحمين ارحمنا، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ويطهركم تطهيرا، إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما.

صلوات الرفاعى

وبعد الانتهاء: من قراءة هذا الحزب المبارك يتبع بصلاة على حضرة الرسول الكريم، وهذه الصلاة تسمى: «جوهرة الأسرار»، ونصها: «اللهم صل وسلم وبارك على نورك الأسبق، وصراطك المحقق، الذى أبرزته رحمة شاملة لوجودك وأكرمته بشهودك، واصطفيته لنبوتك ورسالتك، وأرسلته بشيرا ونذيرا وداعيا إليك بإذنك وسراجا منيرا، نقطة مركز باء الدائرة الأولية، وسر أسرار الألف القطبية، الذى فتقت رتق الوجود وخصصته بأشرف المقامات لمواهب الامتنان والمقام المحمود، وأقسمت بحياته فى كلامك المشهود، لأهل الكشف والشهود فهو سرك القديم السارى، وماء جوهر الجوهرية الجارى، الذى أحييت به الموجودات من معدن وحيوان ونبات، فهو قلب القلوب، وروح الأرواح، وعلم الكلمات الطيبات، القلم الأعلى والعرش المحيط.

روح جسد الكونين، وبرزخ البحرين، وثانى اثنين، وفخر الكونين، أبو القاسم سيدنا محمد بن عبدالله بن عبد المطلب عبدك ونبيك ورسولك النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم تسليما بقدر عظمة ذاتك، فى كل وقت وحين، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.

«انتهى»

أحزاب البدوى وصلواته

لسيدى أحمد البدوى مجموعة من الصلوات والأدعية. فمن صلواته:

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد شجرة الأصل النورانية[١]، ولمعة القبضة الرحمانية، وأفضل الخليقة الإنسانية، وأشرف الصورة الجسمانية، ومعدن الأسرار الربانية، وخزائن

---

(١) هذه هى أصل الحقيقة المحمدية.

العلوم الاصطفائية، صاحب القبضة الأصلية، والبهجة السنية، والرتبة العلية، من اندرجت النبيون تحت لوائه، فهم منه وإليه، وصل وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه عدد ما خلقت، ورزقت، وأمت، وأحييت إلى يوم تبعث من أفنيت، وسلم تسليما كثيرا، والحمد لله رب العالمين.

من أحزاب السيد البدوى

١ - الحزب الصغير [٢]:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، لووا عما نووا، فعموا وصموا عما طووا، رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم فى تضليل، وأرسل عليهم طيرا أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول﴾.

اللهم اكفنيهم بما شئت، اللهم إنى أعوذ بك من شرورهم، وأدرأ بك فى نحورهم، بك أحاول وبك أقاتل، اللهم واقية كواقية الوليد، بكهيعص كفيت بحمعسق حميت، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

٢ - الحزب الكبير لسيدى أحمد البدوى:

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.. آمين.

وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

الله لا إله إلا هو الحى القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، له ما فى السموات وما فى الأرض، من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يحيطون بشىء من علمه، إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض، ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم.

ألم، الله لا إله إلا هو الحى القيوم، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس، وأنزل الفرقان، إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد، والله عزيز ذو انتقام، إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء، هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

---

(٢) يعتقد أتباع سيدى أحمد البدوى أن هذا الحزب خير حِصْن يتحصن به المرء من الأشرار وإن من يتلوه مائة مرة والصمدية صباحا ومساء يحفظه الله تعالى من الأعداء الباطنة والظاهرة.

سهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم، إن الدين عند الله الإسلام.

ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه، وهو على كل سيء وكيل.

اتبع ما أوحى إليك من ربك، لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين، قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت، فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون.

وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون، فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين، فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله، وأنه لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب، ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده، أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون.

وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى، إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى، وأقم الصلاة لذكرى.

إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شيء علما، وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون.

وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه، فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم، ويعلم ما تخفون وما تعلنون، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم، وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون.

ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون.

يأيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض، لا إله إلا هو فأنى تؤفكون.

إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون.

ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون.

حم، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير، ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون، هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين، الحمد لله رب العالمين، رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين، لا إله إلا هو يحيى ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين.

فاعلم أنه لا إله إلا الله، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات، والله يعلم متقلبكم ومثواكم.

هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم، هو الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم.

الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون.

رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا.

اللهم إنى أسألك بنور وجهك الذى ملأ أركان عرشك، وأسألك بطول حول شديد قوتك، وأسألك بدوام ديموم ديمومتك، وأسألك بعزيز معتز عزتك، وأسألك بجلال كمال نعمتك، وأسألك بمكنون تكوين كائن سرك، وأسألك بما أنارت به السموات والأرض من خفى علمك، وأسألك باسمك العظيم، وبركتك الجسيم، أن تفك اللهم كربتى، وتفرج غمتى، وتقيل عثرتى، وتتفضل علىّ، إلهى بنظرةٍ منك تكون لى النجاة بها فى الدنيا والآخرة، إنك على كل شىء قدير، يا أرحم الراحمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

حزب البر: المعروف بالحزب الكبير للشاذلى الوقت المختار لهذا الورد بعد صلاة الصبح ولايتكلم المريد حال تلاوته

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

بسم الله الرحمن الرحيم

وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا، فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءًا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح، فإنه غفور رحيم، بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة، وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم، ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير.

الر، كهيعص، حم، عسق، رب احكم بالحق، وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون، طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، إلا تذكرة لمن يخشى، تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى، الرحمن على العرش استوى، له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى، اللهم إنك تعلم أنى بالجهالة معروف، وأنت بالعلم موصوف، وقد وسعت كل شىء من جهالتى بعلمك، فسع ذلك برحمتك كما وسعته بعلمك، واغفر لى إنك على كل شىء قدير.

يا ألله، يا مالك، يا وهاب، هب لنا من نعماك ما علمت لنا فيه رضاك، واكسنا كسوة تقنا بها من الفتن فى جميع عطاياك، وقدسنا عن كل وصف يوجب نقصا مما استأثرت به فى علمك عمن سواك.

يا أللّه يا عظيم، يا على يا كبير، نسألك الفقر مما سواك، والغنى بك، حتى لا نشهد إلا إياك، والطف بنا فيهما لطفا علمته يصلح لمن والاك، واكسنا جلابيب العصمة فى الأنفاس واللحظات، واجعلنا عبيدًا لك فى جميع الحالات، وعلمنا من لدنك علمًا نصير به كاملين فى المحيا والممات، اللهم أنت الحميد الرب المجيد الفعال لما تريد، تعلم فرحنا بماذا ولماذا وعلى ماذا، وتعلم حزننا كذلك، وقد أوجبت كون ما أردته فينا ومنا ولا نسألك دفع ما تريد، ولكن نسألك التأييد بروح من عندك فيما تريد، كما أيدت أنبياءك ورسلك وخاصة الصديقين من خلقك، إنك على كل شىء قدير.

اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فهنيئا لمن عرفك فرضى بقضائك، والويل لمن لم يعرفك، بل الويل ثم الويل لمن أقر بوحدانيتك ولم يرض بأحكامك، اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا، فكل عز يمنع دونك نسألك بدله ذلا تصحبه لطائف رحمتك، وكل وجد يحجب عنك فنسأله عوضه فقد تصحبه أنوار محبتك، فإنه قد ظهرت السعادة على من أحببته، وظهرت الشقاوة على من غيرك ملكه فهب لنا من مواهب السعداء، واعصمنا من موارد الأشقياء.

اللهم إنا قد عجزنا عن دفع الضر عن أنفسنا، من حيث تعلم بما تعلم فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لا نعلم بما لا نعلم، وقد أمرتنا ونهيتنا، والمدح والذم ألزمتنا، فأخو الصلاح من أصلحته، وأخو الفساد من أضللته، والسعيد حقا من أغنيته عن السؤال منك، والشقى حقا من حرمته من كثرة السؤال لك، فاغننا بفضلك عن سؤالنا منك، ولا تحرمنا من رحمتك مع كثرة سؤالنا لك، إنك على كل شىء قدير.

يا شديد البطش، يا جبار، يا قهار، يا حكيم، نعوذ بك من شر ما خلقت، ونعوذ بك من ظلمة ما أبدعت، ونعوذ بك من كيد النفوس فيما قدرت وأردت، ونعوذ بك من شر الحساد على ما أنعمت، ونسألك عز الدنيا والآخرة، كما سألك نبيك سيدنا محمد ﷺ عز الدنيا بالإيمان والمعرفة، وعز الآخرة باللقاء والمشاهدة، إنك سميع قريب مجيب.

اللهم إنى أقدم إليك بين يدى كل نفس، ولمحة، وطرفة، يطرف بها أهل السموات وأهل الأرض، وكل شىء هو فى علمك كائن، أو قد كان، أقدم إليك بين يدى ذلك كله ، الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات ومافى الأرض، من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض، ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم.

أقسمت عليك ببسط يديك، وكرم وجهك، ونور عينيك، وكمال أعينك، أن تعطينا خير ما نفذت به مشيئتك، وتعلقت به قدرتك، وأحاط به علمك، واكفنا شر ما هو ضد لذلك، وأكمل ديننا، وأتم علينا نعمتك، وهب لنا حكمة الحكمة البالغة مع الحياة الطيبة والموتة الحسنة، وتول قبض أرواحنا بيدك، وحل بيننا وبين غيرك فى البرزخ وما قبله وما بعده بنور ذاتك وعظيم قدرتك وجميل فضلك إنك على

كل سيء قدير، يا ألله يا علي، يا عظيم، يا حليم، يا حكيم، يا كريم، يا سميع، يا قريب، يا مجيب، يا ودود، حل بيننا وبين فتنة الدنيا والنساء والغفلة والشهود وظلم العباد وسوء الخلق، واغفر لنا ذنوبنا، واقض عنا تبعاتنا، واكشف عنا السوء، ونجنا من الغم، واجعل لنا منه مخرجا، إنك على كل سيء قدير.

يا ألله، يا ألله، يا لطيف يا رزاق، يا قوى، يا عزيز، لك مقاليد السموات والأرض، تبسط الرزق لمن تشاء وتقدر، فابسط لنا من الرزق ما توصلنا به إلى رحمتك، ومن رحمتك ما تحول به بيننا وبين نقمتك، ومن حلمك ما يسعنا به عفوك، واختم لنا بالسعادة، التى ختمت بها لأوليائك، واجعل خير أيامنا وأسعدها يوم لقائك، وزحزحنا فى الدنيا عن نار الشهوة، وأدخلنا بفضلك فى ميادين الرحمة، واكسنا من نورك جلابيب العصمة، واجعل لنا ظهيرا، من عقولنا، ومهيمنا من أرواحنا، ومسخرا من أنفسنا، كى نسبحك كثيرًا، ونذكرك كثيرًا، إنك كنت بنا بصيرًا.

وهب لنا مشاهدة تصحبها مكالمة، وافتح أسماعنا وأبصارنا، واذكرنا إذا غفلنا عنك بأحسن مما تذكرنا به إذا ذكرناك، وارحمنا إذا عصيناك بأتم مما ترحمنا به إذا أطعناك، واغفر لنا ذنوبنا ما تقدم منها وما تأخر، والطف بنا لطفًا يبعدنا عن غيرك، ولا يحجبنا عنك، فإنك بكل شيء عليم.

اللهم إنا نسألك لسانا رطبا بذكرك، وقلبا منعما بشكرك، وبدنا هينا لينا بطاعتك، واعطنا مع ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، كما أخبر رسولك ﷺ حسب ما علمته بعلمك، واغننا بلا سبب، واجعلنا سبب الغنى لأوليائك، وبرزخا بينهم وبين أعدائك، إنك على كل شيء قدير.

اللهم إنّا نسألك إيمانًا دائمًا، ونسألك قلبًا خاشعًا، ونسألك علمًا نافعًا، ونسألك يقينًا صادقًا، ونسألك دينًا قيمًا، ونسألك العافية من كل بلية، ونسألك تمام العافية، ونسألك دوام العافية ، ونسألك الشكر على العافية، ونسألك الغنى عن الناس «ثلاث مرات».

اللهم إنا نسألك التوبة الكاملة، والمغفرة الشاملة، والمحبة الكاملة الجامعة، والخلة الصافية، والمعرفة الواسعة، والأنوار الساطعة، والشفاعة القائمة، والحجة البالغة، والدرجة العالية، وفك وثاقنا من المعصية، وبرهاننا من النعمة بمواهب الجنة.

اللهم إنا نسألك التوبة ودوامها، ونعوذ بك من المعصية وأسبابها، فذكرنا بالخوف منك قبل هجوم خطراتها، واحملنا على النجاة منها، ومن التفكر فى طرائقنا، وامح من قلوبنا حلاوة ما اجتنيناه منها، واستبدلها بالكراهة لها، والطعم لما هو بضدها، وأفض علينا من بحر كرمك وعفوك، حتى نخرج من الدنيا على السلامة من قتالها، واجعلنا عند الموت ناطقين بالشهادة، عالمين بها، وارأف بنا رأفة الحبيب بحبيبه عند الشدائد ونزولها، وأرحنا من هموم الدنيا وغمومها بالروح والريحان إلى الجنة ونعيمها.

اللهم إنا نسألك توبة سابقة منك إلينا، لتكون توبتنا تابعة إليك منا، وهب لنا للتلقى منك، كتلقى آدم منك الكلمات، ليكون قدوة لولده فى التوبة والأعمال الصالحات، وباعد بيننا وبين العناد والإصرار، والشبه بإبليس رأس الغواة، واجعل سيآتنا سيئات من أحببت، ولا تجعل حسناتنا حسنات

من أبغضت، فالإحسان لا ينفع مع البغض منك، والإساءة لا تضر مع الحب منك، وقد أبهمت الأمر علينا لنرجو ونخاف، فأمن خوفنا، ولا تخيب رجاءنا، واعطنا سؤلنا، فقد أعطيتنا الإيمان من قبل أن نسألك، وكتبت وحببت وزينت وكرهت وألحقت الألسن بما به ترجمت، فنعم الرب أنت، فلك الحمد على ما أنعمت، فاغفر لنا، ولا تعاقبنا بالسلب بعد العطاء، ولا بكفران النعم وحرمان الرضا.

اللهم رضنا بقضائك، وصبرنا على طاعتك، وعن معصيتك، وعن الشهوات الموجبات للنقص أو البعد عنك، وهب لنا حقيقة الإيمان بك، حتى لا نخاف غيرك، ولا نحب غيرك، ولا نعبد سيئا سواك، وأوزعنا شكر نعمائك، وغطنا برداء عافيتك، وانصرنا باليقين، والتوكل عليك، وأسفر وجوهنا بنور رضائك، وأضحكنا وبشرنا يوم القيامة بأوليائك، واجعل يدك مبسوطة علينا، وعلى أهلينا، وأولادنا ومن معنا برحمتك، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا أقل من ذلك، يا نعم المجيب (ثلاثا) يا من هو، هو، هو، فى علوه قريب، ياذا الجلال والإكرام، يا محيط الليالى والأيام. أشكو إليك من غم الحجاب، وسوء الحساب، وشدة العذاب، وإن ذلك لواقع، ما له من دافع، إن لم ترحمنى (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين (ثلاثا). ولقد شكا إليك يعقوب فخلصته من حزنه، ورددت عليه ما ذهب إليه من بصره، وجمعت بينه وبين ولده.

ولقد ناداك نوح من قبل فنجيته من كربه، ولقد ناداك أيوب من بعده فكشفت ما به من ضره، ولقد ناداك يونس فنجيته من غمه، ولقد ناداك زكريا فوهبت له ولدا من صلبه بعد يأس أهله وكبر سنه، ولقد علمت ما نزل بإبراهيم فأنقذته من نار عدوه، وأنجيت لوطا وأهله من العذاب النازل بقومه، فهأنذا عبدك إن تعذبنى بجميع ما علمت من عذابك، فأنا حقيق به، وإن ترحمنى كما رحمتهم مع عظيم إجرامى، فأنت أولى بذلك وأحق من أكرم به، فليس كرمك مخصوصًا بمن أطاعك وأقبل عليك، بل هو مبذول بالسبق لمن شئت من خلقك وإن عصاك وأعرض عنك، وليس من الكرم أن لا تحسن إلا لمن أحسن إليك، وأنت المفضال الغنى، بل من الكرم أن تحسن إلى من أساء إليك وأنت الرحيم العلى ، كيف وقد أمرتنا أن نحسن إلى من أساء إلينا ، فأنت أولى بذلك منا ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ (ثلاثا) .

يا الله، يا الله، يا ألله، يا رحمن ، يا رحيم، يا قيوم، يا قيوم، يامن هو، هو ، هو، يا هو، يا هو، يا هو، إن لم تكن لرحمتك أهلاً أن ننالها فرحمتك أهل أن تنالنا.

يا رباه (ثلاثا) يا مولاه (ثلاثا)، «يا مغيث من عصاه»، (ثلاثا) أغثنا، أغثنا، أغثنا يا رب، يا كريم، وارحمنا يارب يا رحيم، يا من وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم، أسألك الإيمان بحفظك إيمانا يسكن به قلبى من هم الرزق، وخوف الخلق، وأقرب منى بقدرتك قربًا تمحق به عنى كل حجاب محقته عن إبراهيم خليلك، فلم يحتج لجبريل رسولك، ولا لسؤاله منك، وحجبته بذلك عن نار عدوه، وكيف لا يحجب عن مضرة الأعداء من غيبته عن منفعة الأحياء، كلا إنى أسألك أن تغيبنى بقربك منى، حتى لا أرى ولا أحس بقرب سىء، ولا ببعده عنى، إنك على كل سىء قدير (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون، فتعالى الله الملك الحق، لا إله إلا هو رب

العرش الكريم، ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به، فإنما حسابه عند ربه، إنه لا يفلح الكافرون).

وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين.

وهو الحى لا إله إلا هو، فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين، إن الله وملائكته يصلون على النبى، يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما.

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد، وبارك على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت وباركت على سيدنا إبراهيم، فى العالمين إنك حميد مجيد.

اللهم ارض عن ساداتنا الخلفاء الراشدين: أبى بكر الصديق، وعمر، وعثمان، وعلى، وارض اللهم عن سيدنا الحسن، وعن سيدنا الحسين، وعن أمهما فاطمة الزهراء، وعن الصحابة أجمعين، وعن أزواج نبيك الطاهرات أمهات المؤمنين، وعن التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا محمد النبى الكريم.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

حزب البحر
للشاذلى قدس سره

بسم الله الرحمن الرحيم:

اللهم يا على، يا عظيم، يا حليم، يا عليم، أنت ربى، وعلمك حسبى، فنعم الرب ربى، ونعم الحسب حسبى، تنصر من تشاء، وأنت العزيز الرحيم، نسألك العصمة فى الحركات، والسكنات، والكلمات، والإرادات، والخطرات، مِن الشكوك، والظنون والأوهام السائرة للقلوب، عن مطالعة الغيوب، فقد ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا، وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا، فثبتنا وانصرنا، وسخر لنا هذا البحر، كما سخرت البحر لموسى وسخرت النار لإبراهيم، وسخرت الجبال والحديد لداود، وسخرت الريح والشياطين والجن لسليمان، وسخر لنا كل بحر هو لك فى الأرض والسماء والملك والملكوت، وبحر الدنيا وبحر الآخرة، وسخر لنا كل شىء يا من بيده ملكوت كل شىء، كهيعص (ثلاثا)، انصرنا فإنك خير الناصرين، وافتح لنا فإنك خير الفاتحين واغفر لنا فإنك خير الغافرين، وارحمنا فإنك خير الراحمين، وارزقنا فإنك خير الرازقين، واهدنا ونجنا من القوم الظالمين، وهب لنا ريحًا طيبةً كما هى فى علمك، وانشرها علينا من خزائن رحمتك، واحملنا بها حمل الكرامة مع السلامة والعافية فى الدين والدنيا والآخرة، إنك على كل شىء قدير، اللهم يسر لنا أمورنا مع الراحة لقلوبنا، وأبداننا، والسلامة والعافية فى ديننا ودنيانا، وكن لنا صاحبًا فى سفرنا وخليفةً فى أهلنا، واطمس على وجوه أعدائنا، وامسخهم على مكانتهم فلا يستطيعون المضى، ولا المجىء إلينا، ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون، ولو نشاء

لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون، يس، والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين على صراط المستقيم، تنزيل العزيز الرحيم، لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون، لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون، إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالاً فهى إلى الأذقان فهم مقمحون، وجعلنا من بين أيديهم سدًّا، ومن خلفهم سدًّا فأغشيناهم فهم لا يبصرون، (شاهت الوجوه) ثلاثا، وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما، طس، حم، عسق، مرج البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لا يبغيان، حم، حم، حم، حم، حم، حم، حم، حم، حُمَّ، الأمر، وجاء النصر، فعلينا لا ينصرون، حم، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم، غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب، ذى الطول، لا إله إلا هو إليه المصير، بسم الله بابنا تبارك حيطاننا، يس سقفنا، كهيعص كفايتنا، حم عسق حمايتنا، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم (ثلاثا) ستر العزيز مسبول علينا، وعين الله ناظرة إلينا، بحول الله لا يقدر أحد علينا، والله من ورائهم محيط، بل هو قرآن مجيد، فى لوح محفوظ، فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين (ثلاثا) إن وليى الله الذى أنزل الكتاب، وهو يتولى الصالحين (ثلاثا) حَسْبِى الله، لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم (ثلاثا).

بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم (ثلاثا)، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم (ثلاثا)، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم (ثلاثا).

الحزب الصغير
لسيدى إبراهيم الدسوقى[١]

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

باسم الإله الخالق الأكبر، وهو حرز مانع مما أخاف وأحذر، لا قدرة لمخلوق مع قدرة الخالق، يلجمه بلجام قدرته، أحمى حميثا، أطمى طميثا، وكان الله قويا عزيزا حم عسق حمايتنا، كهيعص كفايتنا، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم (ثلاثا)، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(يا بارى) «مائة مرة»، (يا لطيف) «مائة وتسع وعشرون مرة»، (اللهم يالطيفًا بخلقه ياعليمًا بخلقه ياخبيرًا بخلقه الطف بنا يا لطيف يا عليم يا خبير) «سبع مرات».

(يا دائم) «ست وستون مرة».
(يا ألله) «ست وستون مرة».

---

(١) مجموعة أوراد الطريقة البرهانية الدسوقية الشاذلية ص ٢٣، ٢٤.

لك الدوام الأزلى، والبقاء السرمدى، حتى ترث الأرض ومن عليها، وأنت خير الوارثين، سبحانك، يا دائم أنت ولينا، فاغفر لنا وارحمنا، وأنت خير الغافرين، سبحانك، يا دائم ارزقنا حلاوة محبتك، واحشرنا فى زمرة المحبين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

«انتهى الحزب الصغير للدسوقى».

الحزب الكبير
لسيدى إبراهيم الدسوقى

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورًا، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا، وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورًا، أيا مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، رب لا تذرنى فردًا وأنت خير الوارثين.

ألم نووا فلووا عما نووا، فعموا وصموا عما نووا، فوقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا، أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا، وجعلنا من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا فأغشيناهم فهم لا، يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا، «لا آلا إلا آلاؤك يا ألله» (ثلاثا) إنك سميع عليم، وبالحق أنزلناه، وبالحق نزل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، التجم كل مارد، وذلك كل ذى بطش شديد معاند، وتلاشت مكائد الجن والإنس أجمعين بأسمائك يارب العالمين، بالسموات القائمات فهن بالقدرة واقفات، بالسبع المتطابقات، بالكرسى البسيط، بالعرش المحيط، بغاية الغايات، بمواضع الإشارات، بمن دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، خضعت المردة فكبتوا ودحضوا، كبت الأعداء بأسماء الله فكبتوا، خسئ المارد وذل الحاسد، استعنت بالله على كل من نوى لى سوءًا كيف أخاف وإلهى أملى، أم كيف أضام وعلى الله متكلى؟ اللهم احرسنى من كيد الفاسق ومن سطوة المارق ومن لدغة الفاسق، بكهيعص كفيت، بحمعسق حميت، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم، «ثلاثا»، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، بسم الله ما أعظم الله، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله، كتب الله لأغلبن أنا ورسلى، إن الله قوى عزيز.

اللهم يا من ألجم البحر بقدرته، وقهر العباد بحكمته، اكفنى أنت الكافى، وعنت الوجوه للحى القيوم، وقد خاب من حمل ظلما، فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين.

أقبل ولا تخف إنك من الآمنين، لا تخف نجوت من القوم الظالمين، لا تخاف دركًا ولا تخشى، لا تخف إنك أنت الأعلى، لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى، لا تخف إنى لا يخاف لدى المرسلون، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، وآمنهم من خوف، اللهم آمنا من كل خوف، وَهَمّ، وغم، وكرب، كدكد كردد كرده كرده ده ده ده، الله رب العزة كتب اسمه على كل شيء أعزه، خضع كل شيء لعظمة

سلطانه، اللهم أخضع لى جميع من يرانى من الجن، والإنس، والطير، والوحوش، والهوام اللهم اجعل لى نورا من نورك على وجهى، ومن ضياء سلطانك أمامى، حتى إذا رأونى ولوا هاربين خاضعين لهيبة الله، ولهيبة أسمائه، ولهيبتى، تدكدكت الجبال، بكهيعص كفيت، بحمعسق حميت، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم (ثلاثا)، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قويا عزيزا، بها، بها، بها، بهيا، بهيات، بهيات، بهيات، القديم الأزلى يخضع لى جميع من يرانى لمقفنجل يا أرض خذيهم، قل كونوا حجارة أو حديدا، وقفوهم إنهم مسئولون، كأنهم خشب مسندة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

طهور، بدعق، محببه، صوره، محببه، سقاطيم، أحون، ق، أدم، حم، هاء، أمين.

«محمد رسول الله، والذين معه، أشداء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركعًا سجدًا يبتغون فضلا من الله ورضوانًا، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود، ذلك مثلهم فى التوراة، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه، فآزره، فاستغلظ، فاستوى، على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً وأجرًا عظيمًا، صدق الله العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الكريم، وعلى آله وصحبه أجمعين، عدد ما يتعلق به علم الله القديم، من الجائز والواجب والمستحيل، جملة وتفصيلًا، منذ خلقت الدنيا إلى يوم القيامة فى كل يوم مائة ألف مرة، وفى كل مرة مثل قدر ذلك، وعلى آله وصحبه وسلم يا عزيز (مائة مرة)، يا عزيز فلم أزل بعزك عزيزًا، يا عزيز يا عزيز (سبع مرات) أو (سبعين مرة).

«انتهى»

ملحق الشعر

أولا – تائية أحمد البدوى:

دعنى لقد ملك الغرامُ أعنتى	لكننى خضتُ البحارَ بهمتى
أصبحت فى حانتها متجردًا	بين الصَّفا أسعى، وبين المروة
نشوان، ما بين الدنان مهرولاً	الحب يسقينى وَدِنٌّ كعبتى
لم يشرب العشاقُ من بحر الهوى	إلا بقية نقطةٍ من طينتى
سكروا بها، فتهتَّكوا وتصنَّعوا	وأنا طويْت الحبَّ تحت طويتى
فقرأت من توراة موسى تسعةً	تُليتْ على موسى لها لم يثبت
وقرأت من إنجيل عيسى عشرةً	تليت على عيسى فزادت رِفعتى
وقرأت من نهج الغرام مسائلاً	وأتيت فيها من شواهد فِطنتى
وقرأته، وفهمته، وشرحته،	وجعلت فيه من شواهد حكمتى
وبدايتى فى ذلك كتمان الهوى	من بعد ما أفنى الغرامُ سفينتى
أنا بلبلُ الأفراح صاحب أنسِها	كم بلبلت فى حانها من فِتية
أنا صاحبُ الناقوس سلطانُ الهوى	أنا فارسُ الأنجادِ حامى مَكة
أنا أحمدُ البدويُّ غوث لا خفا	أنا كل شبان البلاد رَعيتى
ثم الصلاة على النبى وآله	والصحب ثم التابعين وعترتى
وكذا السلام مضاعفًا عد الحصى	والرمل ما سارَ الحجيجُ لطيبة

ثانيًا – تائية الدسوقى:

لأهمية القصيدة فى الكشف عن ملامح الحقيقة المحمدية عند الدسوقى، فإنى أقدمها للقراء، رغم طولها، نموذجا يتجلى فيه كل خيوط هذه النظرية.

يقول الدسوقى:

تجلّى لى المحبوب عن كل وجهة	فشاهدته فى كلِّ معنًى وصورةِ
وخاطبنى منى بكشف سرائر	تعالتْ عن الأغيارِ لطفًا وجلَّت
فقال: أتدرى من أنا؟ قلت: أنت يا	مناى أنا إذ كنتَ أنت حقيقتى
فقال: كذاك الأمر لكنَّما إذا	تغيبت الأشياءُ كنتَ كنسختى
فأوصلت ذَاتِى باتحادى بذاته	بغير حُلول بل بتحقيق نِسْبتى

فصرتُ فناءً فى بقاءٍ مؤيَّد   لذات بديمومية سرمدية
إذا رمت إثباتًا لا بنيتى به   محاه وجودى محوةً أىَّ محوة
فيأخذنى منى، فأصْبح سائلًا   لِذاتى عن ذاتى لذاتى بغَيْبتى
وانظر مرآة ذاتى مشاهدا   لذاتى بذاتى وهى غايةُ غايتى
فأغدو، وأمرى بين أمرين واقف   علومى تمحونى، ووهمى مثبتى
حبيب له فى حبه القلب منزل   ترفع عن دعْد وهند وعلوة
أنا ذلك القطب، المبارك، قدره   وأن مدار الكلِّ من حول ذِروتى
وما صورتى للذات إلا جليلةٌ   هى النفس والكون المحس جنّتى
أنا شمس إشراق العقول، ولم أفل   وما غبت، إلا عن قلوب عميَّة
وقد تعبق الآفاق من طين الشّذا   وما نشق المزكومُ فياح نسبتى
وأصغت إلى داعى الفلاح ثقاتها   وعنه أذوق الحاجرين أجرت
ولا جامعٌ إلا ولِى فيه مِنبر   لما قامت الأشخاص من تلك طينتى
وبى فاحت الأنباء من كل ملة   بمختلف الآراء والكل أمتى
ولولا زنادى فى الطبيعة قادح   وأخطب فى أعلائه بمصوتى
ولا مشهد إلا وكنت إمامه   وفى حانة الخمَّار طفت بحانتى
سقانى بكأس من يدى من أحبه   فغبتُ بوجدى عن وجودى بسكْرتى
وكنت أنا الساقى، ومنى منادى   ووجدى، وفتحى، والخيال، بجدتى
وكنت أنا الداعى، ومنى إجابتى   وكنت أنا الصاغى، لأسماع دعوتى
ولا تسكر إلا وكنت نديمهم   وفى حضرة المختار فزت بغيبتى
وما شهدت عينى سوى عين ذاتها،   لأنَّ سواها لا يلم بفِكرتى
بذاتى تقوم الذات فى كل دورة   أجدد فيها، حُلة بعد حُلة
أنا موجد الأشياء من غير حاجة   بكره كان الكون من غير آلتى
فليلى، وهند، والرباب، وزينب،   وعليا، وسلمى بعدها وبثنة
عبارات أسماءٍ بغير حقيقة   وما لوحوا بالقصد من قبل نشْأتى
أنا كنت فى العليا ونور محمد   وفى قاب قوسين اجتماعُ الأحبة
أنا كنت فى رؤيا الذبيح فداءه   بعين عناياب ولطفِ حقيقتى
أنا كنت مع إدريس لما رقى العلا   وأسكن فى الفردوس أحسنَ بقعة
أنا كنت مع عيسى وفى المهد ناطقًا   وأعطى داود حلاوة نغمتى
أنا كنت مع نوح بما شهد الورى   بحارًا وطوفانًا على كف قدرتى
أنا الذاكر، والمذكورُ ذكرى لذاكرى   أنا الشاكرُ المشكورُ شكرى لِنعمتى
أنا الحامدُ المحمود حمدى حامد   كذا العرش والكرسى والكون جلستى
أنا العاشق المعشوقُ فى كل مظهرى   أنا السامعُ المسموع فى كل نِعمتى

أنا الواحد الفردُ الكبيرُ بذاتَه أنا الواصفُ الموصوفُ بالعهديه
وقالوا فأنت القطب قلت مشاهدا وتالى كتاب الله فى كل ساعة
وناظر ما فى اللوح من كل آيةٍ بما قد رأينا من شهودٍ مقاله
وقالوا فأنت الفرد حقًّا على العلا فقلت وكان السرُّ منى ثابت
أنا القطب شيخ الوقت كل مهذب أنا السيدُ البرهانُ شيخ الحقيقة

المراجع العربية

١ – ابن دقيق العيد: حياته وديوانه، دراسة فى الأدب المصرى، بحث ماجستير – آداب القاهرة للأستاذ الدكتور على صافى – طبعة دار المعارف ١٩٦٠.

٢ – ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه: للأستاذ الدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى – رسالة ماجستير – الطبعة الثانية مكتبة الأنجلو ١٩٦٩.

٣ – ابن الفارض والحب الإلهى: للمرحوم الدكتور مصطفى حلمى – طبعة لجنة التأليف والترجمة – القاهرة ١٩٤٥.

٤ – أبو الحسن الشاذلى: للأستاذ على سالم عمار – الجزء الأول – الطبعة الأولى ١٩٥١ طبعة دار رسائل الجيب الإسلامية – الجزء الثانى الطبعة الأولى ١٩٦١ – دار التأليف بالقاهرة.

٥ – أبو الحسن الشاذلى: للإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود – سلسلة أعلام العرب – دار الكاتب العربى للطباعة والنشر سبتمبر ١٩٦٧ العدد ٦٩.

٦ – أبو العباس المرسى ومسجده الجامع بالإسكندرية للأستاذ حسن السندوبى مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩١٤ م.

٧ – أبو العينين الدسوقى: للأستاذ عبد العال كحيل – طبعة الشعب نوفمبر سنة ١٩٧٥.

٨ – الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى: «دراسة فى الأدب المصرى» للدكتور على صافى حسين دار المعارف ١٩٦٤.

٩ – إتحاف أهل العناية الربانية فى اتحاد طرق أهل الله: للبنانى – طبعة المطبعة العامرة الشرفية بالخرنفش بمصر ١٣٢٤ هـ.

١٠ – إحياء علوم الدين للغزالى: طبعة القاهرة سنة ١٢٣٥ هـ وطبعة القاهرة ١٣٣٤ هـ.

١١ – أدب العبودية: للأستاذ محمد مصطفى عبد الرحمن – مكتبة القاهرة بمصر ١٩٧٤ م.

١٢ – أعلام التصوف: للأستاذ طه عبد الباقى سرور «شخصيات صوفية» ١٣٦٨ هـ – ١٩٤٩ م – مصر.

١٣ – اعمال الفكر فى فضل الذكر: كتيب لجلال الدين السيوطى نشر مكتبة الجندى بسيدنا الحسين – بمصر سنة الطبع غير مذكورة.

١٤ – أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى: للدكتور جمال الدين الشيال – دار المعارف ١٩٦٥ م.

١٥ - إغاثة الأمة بكشف الغمة: للمقريزى (تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر الطبعه الثانية - لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٧ م.

١٦ - أقطاب التصوف الثلاثة للأستاذ صلاح عزام - الطبعة الثالثة - طبعة الشعب سنة ١٣٨٨ هـ.

١٧ - الإمام عبد القادر الجيلانى: لأبى الحسن الندوى - طبعة المختار الإسلامى سنة ١٩٧٤ م.

١٨ - الأعمال الكاملة: لجمال الدين الأفغانى مع دراسة عن الأفغانى (الحقيقة الكلية) بقلم الدكتور محمد عمارة - طبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٦٨.

١٩ - الإمام الأكبر أحمد الرفاعى وطريقته: للدكتور مصطفى كمال وصفى. دار القاهرة للطباعة ١٩٥٧ م.

٢٠ - الانتصار لطرق الصوفية الأخيار: الزمزمى بن محمد بن الصديق. مطبعة الشرفية ١٩٣٨ م.

٢١ - الأنوار الأحمدية فى المناقب العلية: للمشهدى بهامش كتاب النفحات الأحمدية ١٣٢١ هـ الطبعة الأولى مطبعة التقدم العلمية بدرب الدليل بمصر.

٢٢ - الأنوار القدسية فى تنزيه طرق القوم العلية: جمعه الشيخ محمد ظافر المدنى. طبع فى مطبعة السلام بشارع كلوت بك بمصر ١٣٢٠ هـ.

٢٣ - الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية للشعرانى. الجزء الأول. نقحه وقدمه طه عبد الباقى سرور والسيد محمد عبد الشافى طبعة المكتبة العلمية ومطبعتها بالقاهرة طبعة أولى ١٩٦٢.

٢٤ - بدائع الزهور فى وقائع الدهور: لابن إياس المصرى أبو البركات محمد أحمد الحنفى. العدد ٨٧ مطابع الشعب ١٩٦٠.

٢٥ - بداية الطريق إلى مناهج التحقيق فى ظلال الشريعة ورحاب الحقيقة: محمود أبو الفيض المنوفى سلسلة من الشرق والغرب. الدار القومية للطباعة والنشر. العدد ١٥٧ يناير ١٩٦٤.

٢٦ - البداية والنهاية لابن كثير ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م عماد الدين أبو الفدا إسماعيل الدمشقى. طبعة مصر ١٣٥١ هـ.

٢٧ - البرهان المؤيد لسيدى أحمد الرفاعى: تحقيق صفوة السقا. الطبعة الثانية طبعة مكتبة ربيع بحلب ١٣٨٢ وطبعة الشعب ٣٩١ هـ - ١٩٧١ م تحقيق صلاح عزام.

٢٨ - بستان العارفين: تأليف الإمام أبى زكريا النووى. طبعة المطبعة المنيرية لصاحبها محمد منير الدمشقى بدون ذكر سنة الطبع.

٢٩ - بسط عدد التوفيق فيما يتعلق بأحكام الطريق: لبعض مشايخ السادة الرفاعية - طبعة المطبعة العامرة الشرفية سنة ١٣٠٧ هـ.

٣٠ - بهجة الأسرار ومعدن الأنوار فى بعض مناقب القطب الجيلانى: للشيخ نور الدين الشطنوفى - طبع مطبعة مصطفى البابى الحلبى - سنة ١٣٣٠ هـ.

٣١ - تاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس: لابن عطاء الله السكندرى - طبعة القاهره ١٣٠٥ هـ - والقاهرة ١٢٦١ هـ.

٣٢ - التعرف لمذهب أهل التصوف: للكلاباذى (أبو بكر محمد بن اسحق) تصحيح واهتمام آربر جون آربرى - مطبعة مصر ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م وطبعة ثانية تحقيق الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود - وطه عبد الباقى سرور - طبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ١٩٦٠ م.

٣٣ - تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى: للدكتور حسن إبراهيم - الجزء الرابع العصر العباسى الثانى الشرق ومصر والمغرب والأندلس (٤٤٧ هـ - ٦٥٦ هـ / ١٠٥٥ م - ١٦٥٨ م) طبعة أولى - مصر سنة ١٩٦٧ م.

٣٤ - التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية للدكتور أحمد شلبى - الجزء الخامس - الطبعة الأولى - مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٦٧ م.

٣٥ - تاريخ مصر الاجتماعى: للأستاذ أحمد زكى بدوى - طبعة مطبعة صلاح الدين الكبرى بمصر ١٩٣٦ م.

٣٦ - تاريخ مصر من فتح الإسكندر إلى الفتح العثمانى: للأستاذ محمد فخر الدين وعمر بن الجمل - الجزء الثانى - المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٧ م.

٣٧ - تاريخ الطبرى (ت ٢١٠) - طبعة مصر ١٣٢٢ هـ (تاريخ الرسل والملوك).

٣٨ - ترياق المحبين فى طبقات خرقة المشايخ العارفين: لأبى الفرج بن عبد المحسن الأنصارى الواسطى - المطبعة البهية المصرية سنة ١٣٠٥ هـ.

٣٩ - تلبيس إبليس (لابن الجوزى) جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن على البغدادى - طبعة مصر ١٣٤٠ هـ.

٤٠ - التصوف الإسلامى بين الفلسفة والدين: للدكتور عبد الدايم أبو العطا البقرى الكتاب العاشر من سلسلة خلاصة الفكر الإسلامى - مصر ١٩٥١.

٤١ - التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق: للأستاذ الدكتور زكى مبارك «قدم هذا الكتاب إلى الجامعة المصرية سنة ١٩٣٧ ونال به إجازة الدكتوراه فى الفلسفة بمرتبة الشرف. الجزء الأول: الطبعة الأولى سنة ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م طبعة الرسالة. الجزء الثانى: مطبعة الاعتماد بمصر ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م.

٤٢ - التصوف: طريقا وتجربة ومذهبا: للأستاذ الدكتور محمد كمال إبراهيم جعفر - دار الكتب الجامعية ١٩٧٠.

٤٣ - التصوف فى الإسلام: للأستاذ الدكتور عمر فروخ - الطبعة الأولى بيروت - ١٣٦٦ هـ - ١٩٣٧ م.

٤٤ - التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى للأستاذ الدكتور توفيق الطويل - الناسر مكتبة الآداب بالجماميز - طبعة ١٩٤٧ م.

٤٥ - التعريفات: للشريف الجرجانى (أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى) طبعة المطبعة الوهبية بمصر ١٢٨٣ هـ وطبعة مصر سنة ١٣٥٧ - ١٩٣٨ م.

٤٦ - التمكين فى شرح منازل السائرين: لأبى إسماعيل الأنصارى المهدوى تحقيق السيد محمود أبو الفيض المنوفى. طبعة دار نهضة مصر بالفجالة سنة ١٩٦٩ م.

٤٧ - التنوير فى إسقاط التدبير: لابن عطاء الله السكندرى - طبعة المطبعة الحميدية المصرية سنه ١٣٢٢ هـ.

٤٨ - التصوف: الثورة الروحية فى الإسلام: للدكتور أبو العلا عفيفى - طبعة دار المعارف سنة ١٩٦٣.

٤٩ - حامع الأصول للكشمخوى: الشيخ ضياء الدين الكشمخوى النقشبندى الطبعة الأولى طبع مطبعة الجمالية بمصر ١٣٣٨ هـ.

٥٠ - جامع كرامات الأولياء: للشيخ يوسف بن إسماعيل النبهانى - جزءان طبعة دار الكتب العربية الكبرى طبعة ١٣٢٩ هـ.

٥١ - جلاء العينين فى محاكمة الأحمدين: لابن الألوسى البغدادى - مطبعة المدنى المؤسسة السعودية بمصر ١٩٦٤ م.

٥٢ - جمهرة الأولياء: للسيد محمود أبو الفيض المنوفى - طبعة مؤسسة الحلبى - الطبعة الأولى ١٩٦٧ م - ١٣٨٧ هـ.

٥٣ - الجواهر السنية فى النسبة والكرامات الأحمدية: لمحمد زين الدين - طبعة مصر ١٢٧٧ م.

٥٤ - حالة أهل الحقيقة مع الله: للإمام أحمد الرفاعى - تحقيق صلاح عزام - طبعة دار السعب ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م.

٥٥ - مجد الذاكرين ورد المنكرين: للشيخ عبد القادر الأربلى - الطبعة الأولى ١٢٩٩ هـ الإسكندرية.

٥٦ - حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة: لجلال الدين السيوطى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم جـ ١ طبعة عيسى البابى الحلبى - طبعة أولى ١٩٦٧ م - ١٣٨٧ هـ.

٥٧ - حكم بن عطاء الله السكندرى سرح ابن زروق - تحقيق المغفور له الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف طبعة مكتبة النجاح ١٩٦٩.

٥٨ - حلية الرموز ومفاتيح الكنوز أو «بين الشريعة والحقيقة» للعز بن عبد السلام سلسلة الثقافة الإسلامية - عدد ٢٥ يناير ١٩٦١ م.

٥٩ - الحلال والحرام فى الإسلام: للشيخ الدكتور يوسف القرضاوى -طبعة دار إحياء الكتب العربية ١٩٦١ م.

٦٠ - الحياة الروحية فى الإسلام: للمرحوم الدكتور محمد مصطفى حلمى - سلسلة دراسات إسلامية - طبعة الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر سنة ١٩٧٠ م.

٦١ - حياة السيد البدوى: للأستاذ إبراهيم أحمد نور الدين - الطبعة الثانية - طبعة المكتبة التجارية الإسلامية بطنطا سنة ١٣٦٩ هـ.

٦٢ - الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام - تأليف الأستاذ الدكتور أحمد أحمد بدوى طبعة مكتبة نهضة مصر - تاريخ الطبع غير مذكور.

٦٣ - الخطط التوفيقية (الخطط الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة): تأليف على باشا مبارك - الجزء الثالث عشر والجزء الرابع عشر - الطبعة الأولى - المطبعة الأميرية ببولاق ١٣٠٥ هـ.

٦٤ - درة الأسرار وتحفة الأبرار فى مناقب الشاذلى: لسيدى محمد بن أبى القاسم الحميدى المعروف بابن صباغ رضى الله عنه - طبعة المطبعة التونسية الرسمية ٢٥ ذى القعدة عام ١٣٠٤ هـ.

٦٥ - دراسات فى التاريخ الإسلامى: للمرحوم الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال دار الثقافة ببيروت. لبنان ١٩٦٤ م.

٦٦ - الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب: (معبد فرحون) لبرهان الدين إبراهيم بن على بن محمد بن فرحون العميرى المدنى وبهامشه كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج: للشيخ التنبكى (أبى العباس سيدى أحمد بن أحمد بن عمر: الشيخ محمد التنبكى). مطبعة عباس بن عبد السلام بن شقرون بمصر طبعة أولى سنة ١٣٥١ هـ.

٦٧ - ذكر ودعاء جمعه وحققه عبد الله أحمد أبو زينة. طبعة دار الشعب ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م.

٦٨ - رسالة إتحاف السائل بأجوبة المسائل. لعلى عبد الله بن محمد الحداد. مطبعة لجنة البيان العربى ١٣٧٨ هـ. ١٩٥٩ م.

٦٩ - رسائل إخوان الصفا - طبعة القاهرة ١٣٤٧ هـ. ١٩٢٨ م.

٧٠ - رسالة آداب سلوك المريد. للحداد (عبد الله بن علوى بن محمد الحداد) الطبعة الأولى. مطبعة لجنة البيان العربى ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م.

٧١ - الرسالة القشيرية (لأبىالقاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى) تحقيق المغفور له الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف الجزء الأول. دار الكتب الحديثة بمصر ١٩٧٢.

الجزء الثانى. دار الكتب الحديثة بمصر ١٩٧٤.

والطبعة القديمة للرسالة القشيرية طبعة القاهرة ١٣٣٠.

٧٢ – الرعاية لحقوق الله. للمحاسبى (الحارث بن أسد المحاسبى) تحقيق المغفور له الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقى سرور. دار الكتب الحديثة. بدون ذكر تاريخ الطبع.

٧٣ – روضة الناظرين: للإمام الوترى. طبعة القاهرة.

٧٤ – رياضة الأسماع فى أحكام الذكر والسماع: لمحمد أبى الهدى الصيادى طبعة مطبعة التمدن بمصر ١٩٠٣ م.

٧٥ – الزهور الفائقة فى حقوق الطريقة الصادقة: لسيدى محمد عثمان المرغنى. الطبعة الأولى. المطبعة الأميرية سنة ١٣١٦ هـ.

٧٦ – السلسلة الذهبية للطريقة الحامدية الشاذلية المنسوبة لسلامة الراضى. مطبعة الشباب سنة ١٣٤١ هـ.

٧٧ – السلوك لمعرفة دول الملوك. للمقريزى. قام بنشره الدكتور محمد مصطفى زيادة. القسم الثانى. طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٦.

٧٨ – السمو الروحى فى الأدب الصوفى. للشيخ على عقل طبعة مصر.

٧٩ – السيد أحمد البدوى رضى الله عنه. لفضيلة الدكتور عبد الحليم محمود. مطبعة دار الشعب ١٣٨٩ هـ. ١٩٦٩ م.

٨٠ – السيد أحمد البدوى شيخ وطريقة. للدكتور سعيد عاشور سلسلة أعلام العرب. طبعة دار الكتاب العربى وزارة الثقافة الطبعة الثانية ٦٧.

٨١ – السيد أحمد البدوى أو دولة الدراويش فى مصر: للأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف الطبعة الأولى مطبعة الحرية بمصر ١٣٦٧ هـ. ١٩٤٨ م.

٨٢ – السيد عبد الرحيم القنائى: للأستاذ صلاح عزام طبعة الشعب ١٣٩٠ هـ. ١٩٧٠م.

٨٣ – سيدى إبراهيم الدسوقى وأولياء الله الصالحين: لعبد التواب عبد العزيز الناسر الشركة العربيه للتجارة والمطبوعات بالقاهرة ١٩٧٢ م.

٨٤ – شرح حزب البر للشيخ عبد الرحمن محمد الفاسى. تقديم الدكتور عبد الحليم محمود. طبعة ١٣٨٩ هـ. ١٩٦٩ م، اعداد الأستاذ محمد عطية خميس المحامى.

٨٥ – شذرات الذهب: لابن العماد الحنبلى جـ ٥ طبعة مصر سنة ١٣٥٠.

٨٦ – شمس المعارف الكبرى. للبونى (أحمد بن على البونى) طبعة القاهرة ١٣١٨ هـ. ١٩٠٠ م.

٨٧ – صفوة التصوف للمقدسى: «أبو الفضل محمد بن طاهر الحفاظ المقدسى» تحقيق أحمد الشرباصى. طبعة مصر ١٩٥٠ م.

٨٨ - الصلة بين التصوف والتشيع: للدكتور كامل مصطفى الشيبى. دار المعارف بمصر ١٩٦٩ م.

٨٩ - الصوفى المجدد (التفتازانى) للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى. مطبعة دار التأليف سنة ١٩٥١ م.

٩٠ - ضحى الإسلام: للأستاذ أحمد أمين. الجزء الثانى. لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٥.

٩١ - طبقات الشرنوبى البرهانى: طبعة المطبعة الشرفية بمصر سنة ١٣٠٥ هـ.

٩٢ - طبقات الشاذلية الكبرى المسمى «جامع الكرامات العلية فى طبقات السادات الشاذلية: لابن الكوهن «الحسن بن الحاج محمد الكوهن الفاسى الشاذلى» طبعة العلامية بمصر ١٣٤٧ هـ.

٩٣ - طبقات الصوفية للسلمى: عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى السلمى تحقيق محمد عبد المنعم شريبة. طبعة مصر ١٩٥٣.

٩٤ - الطبقات الكبرى للشعرانى: الإمام عبد الوهاب الشعرانى: طبعة مكتبة محمد على صبيح بمصر غير محددة سنة الطبع.

٩٥ - ظهور الحقائق فى بيان اللطائف: للسيد عبد الله بن علوى بن حسن العطاس طبعة مطبعة بكراز حسنى سنة ١٣١٢ هـ.

٩٦ - العارف بالله أبو العباس المرسى: للدكتور الإمام عبد الحليم محمود طبعة الشعب ١٩٧٢.

٩٧ - العبودية: لابن تيمية - تحقيق الشيخ محمد حامد الفقى. مطبعة أنصار السنة المحمدية ١٣٦٦ هـ.

٩٨ - العظة والاعتبار: آراء فى حياة السيد البدوى الدنيوية وحياته البرزخية. لفضيلة الشيخ أحمد محمد حجاب. طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ١٣٨٩ هـ.

٩٩ - عوارف المعارف للسهروردى «شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد السهروردى» طبعة مصر سنة ١٩٣٩.

١٠٠ - غذاء الباحث فى التصوف. للشيخ فرج محمد غنيم. طبعة دار السفينة بطنطا ١٣٠٣ هـ. ١٩٥٣ م.

١٠١ - فتاوى سرعية وبحوث إسلامية. لفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف جزءان الطبعة الثانية ١٣٨٥ هـ. ١٩٦٥ م.

١٠٢ - الفتاوى. دراسة لمشكلات المسلم المعاصر فى حياته اليومية والعامة للإمام الأكبر المرحوم الشيخ محمود شلتوت. طبعة الأزهر ١٩٥٩ ودار العلم ١٩٦٤ م.

١٠٣ - الفتوحات الربانية فى تفضيل الطريقة الشاذلية. لسيدى محمد مسعود الفاسى الشاذلى. مطبعة المعاهد بجوار الأزهر. طبعة ١٣٤٠ هـ. ١٩٢١ م.

١٠٤ - الفتح الربانى والفيض الرحمانى. لسيدى عبد القادر الجيلانى. فتوح الغيب اكتساب قلائد الجواهر فى مناقب الشيخ عبد القادر. تأليف محمد بن يحيى التادى الحنبلى. المطبعة العامرة ١٣٠٣ هـ.

١٠٥ - الفوائد الدرية فى خلاصة العلاقة الجوهرية فى رسم وأصول الطريقة الرفاعية للشيخ عبد السلام شحاته. طبعة مطبعة السعادة بمصر «بدون ذكر تاريخ طبعها».

١٠٦ - الفرق بين الفرق. لعبد القادر البغدادى. طبعة مصر ١٩١٠ م.

١٠٧ - الفكر الإسلامى. منابعه وآثاره. ترجمة الدكتور شلبى. ملتزمة الطبع والنشر مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٢ م.

١٠٨ - الفكر الشيعى والنزعات الصوفية حتى مطلع القرن ١٢ هـ للدكتور كامل مصطفى الشيبى. طبعة مكتبة النهضة ١٩٦٦.

١٠٩ - الفلسفة الأخلاقية فى الفكر الإسلامى. للدكتور أحمد محمود صبحى. دار المعارف ١٩٦٩.

١١٠ - الفن الإلهى. للأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف. سلسلة المكتبة الثقافية العدد ٢٢٣.

١١١ - فهرس مخطوطات المسجد الأحمدى بطنطا. إعداد الأساتذة الدكاترة. على سامى النشار. عبده الراجحى. جلال أبو الفتوح مطبعة جامعة الإسكندرية ١٩٦٤.

١١٢ - الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق. للأستاذ الدكتور إبراهيم بيومى مدكور، مطبعة دار المعارف بمصر. طبعة ثانية ١٩٦٨.

١١٣ - فى التصوف الإسلامى وتاريخه. للأستاذ رينولد نيكلسون. ترجمة المرحوم الدكتور أبو العلا عفيفى ١٩٤٧ م مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

١١٤ - الفيض المحمدى والمدد الأحمدى. ديوان محمد أبى الهدى الصيادى الرفاعى مطبعة الجوانب بالقسطنطينية ١٢٦٨ هـ.

١١٥ - قوت القلوب. لمحمد بن على أبى طالب المكى. طبعة مصر ١٩٣٣ م.

١١٦ - قواعد التصوف لابن زروق. صححه ونقحه محمد زهدى النجار. مطبعة مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٨٨ هـ.

١١٧ - القواعد المرعية فى أصول الطريقة الرفاعية للسيد محمد أبى الهدى الصيادى طبعة مطبعة محمد مصطفى سنة ١٩٠٥ هـ.

١١٨ - قوانين حكم الإشراق. لجمال محمد أبى المواهب الشاذلى، طبعة مطبعة ولاية سورية برخصة نظارة المعارف العمومية سنة ١٣١١.

١١٩ - كتاب منير من كلام القطب الكبير سيدى إبراهيم الدسوقى. بدون ذكر تاريخ الطبع، وموجود منه نسخة بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٢٠٠٧٨ تصوف.

١٢٠ – الكامل لابن الأثير. طبعة بولاق ١٢٩٠ هـ.

١٢١ – كرامات الأولياء رضى الله عنهم: لمصطفى أحمد الرفاعى اللبان. المطبعة السلفية ١٩٣٩ م.

١٢٢ – كشف المحجوب للهجويرى: دراسة وترجمة الدكتورة إسعاد عبد الهادى قنديل. نسر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م.

١٢٣ – كشف النقاب عن أنساب الأربعة الأقطاب لعبد القادر محمد الطبرى. طبعة المطبعة الخيرية سنة ١٣٠٩ هـ.

١٢٤ – الكواكب الدريّة فى تراجم السادة الصوفية. لعبد الرؤوف المناوى. الجزء الأول. مصر ١٩٣٨. الجزء الثالث مصر ١٩٦٣. ويوجد منه نسخ خطية بدار الكتب.

١٢٥ – الكوكب الزاهر فى مناقب الغوث عبد القادر رضى الله عنه للسيد محمد أبى الهدى الصيادى. طبعة استانبول ١٣١٣ هـ.

١٢٦ – لطائف المنن لابن عطاء الله السكندرى. طبعة مصرى ١٣٢٢ هـ. طبعة القاهرة ١٢٧٧ ه، وطبعة المكتبة السعيدية بدرب الجماميز سنة ١٣٦٢ هـ.

١٢٧ – اللمع. لأبى السراج الطوسى. حققه الإمام الدكتور عبد الحليم محمود. طبعة مكتبة المنى بغداد ١٣٩٠ هـ. ١٩٦٠ م.

١٢٨ – لوامع البينات. شرح أسماء الله تعالى والصفات للفخر الرازى فخر الدين بن محمد بن عمر الخطيب الرازى. المطبعة الشرقية ١٣٢٣ هـ.

١٢٩ – لواقح الأنوار القدسية من بيان العهود المحمدية للشعرانى. طبعة ١٣٨١ هـ القاهرة.

١٣٠ – المأنورات للإمام الشهيد حسن البنا: الطبعة الثانية – مطبعة المعرفة دار الشهاب طبعة ١٩٧٥م.

١٣١ – مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية «أبو العباس تقى الدين أحمد عبدالحليم الحرانى» تحقيق محمد رشيد رضا – طبعة مصر ١٣٤١ هـ – ١٩٢٣ م.

١٣٢ – المجموعة العلية لأوراد وأحزاب السادة الغنيمية – طبعة مطبعة السعادة بمصر. جمع الأستاذ محمد المصيلحى حسين الحنبلى الغنيمى.

١٣٣ – المجتمع الإسلامى للدكتور أحمد شلبى – مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة الطبعة الثانية سنة ١٩٦٣ م.

١٣٤ – المحلى: لابن حزم (أبو محمد على بن محمد الظاهرى طبعة المطبعة الأميرية بمصر ١٩٢٨ م.

١٣٥ – المختار من تاريخ الجبرتى – العدد ٢٧ من كتاب الشعب – طبعة ١٩٥٨ م.

١٣٦ - مختصر ابن عياد فى مناقب وأذكار القطب الشاذلى «الأفكار العلية والأسرار الساذليه» لابن عياد الشاذلى - طبعة المطبعة السعيدية بالإسكندرية سنة ١٢٨٨هـ.

١٣٧ - المدخل إلى التصوف الإسلامى للسيد محمود أبو الفيض المنوفى - العدد ٧١ من سلسلة مذاهب وشخصيات - طبعة الدار القومية للطباعة والنشر.

١٣٨ - مدخل إلى التصوف الإسلامى : للدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى - طبعة دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٤.

١٣٩ - مدارج الحقيقة فى الرابطة بين أهل الطريقة : لإبراهيم حلمى القادرى - نشر عادل محمد البهى وعبد السلام محمد - طبع الإسكندرية سنة ١٩٦٢.

١٤٠ - مساجد القاهرة ومدارسها : تأليف الدكتور أحمد فكرى. الجزء الثانى العصر الأيوبى. دار المعارف بمصر ١٩٦٠.

١٤١ - مسرة العينين بشرح حزب أبى العينين الحسن. طبعة مصر بدون تاريخ.

١٤٢ - مشارق الأنوار فى نور أهل الاعتبار : للشيخ حسن العدوى الحمزاوى. طبعة مطبعة بولاق ١٢٧٥ هـ.

١٤٣ - المعارف المحمدية فى الوظائف الأحمدية : للسيد عز الدين. طبعة مصر سنة ١٣٠٥ هـ.

١٤٤ - المفاخر العلية لابن عياد «أحمد بن محمد عيسى» طبعة مصطفى البابى الحلبى ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م.

١٤٥ - مفتاح الفلاح لابن عطاء الله السكندرى - طبعة مصر ١٠٥٠ هـ وطبعة المطبعة المنيرية ١٣٢١ هـ.

١٤٦ - مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير : لفخر الدين الرازى. الجزء الخامس طبعة القاهرة ١٣٢٤ هـ.

١٤٧ - مكاشفة القلوب المقرب من علام الغيوب : للإمام أبى حامد الغزالى. تحقيق عبد الله أبو زينه. طبعة دار الشعب ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م.

١٤٨ - المقدمة لعبدالرحمن بن خلدون «أبو زيد عبدالرحمن بن محمد». مطبعة بيروت. المطبعة الأدبية ١٨٧٩ وطبعة المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٢٧٤هـ.

١٤٩ - مكانة التصوف والصوفية فى الإسلام للأستاذ محمد عبدالشافى. مطابع الناشر العربى بالقاهرة ١٩٦٦.

١٥٠ - من قادة الفكر الصوفى الإسلامى السيد إبراهيم الدسوقى : للأستاذ أحمد عزالدين خلف الله . لجنة التعريف بالإسلام. الكتاب ٤٥ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٨.

١٥١ – المنقذ من الضلال: للإمام أبى حامد الغزالى بهامش كتاب الإنسان الكامل طبعة مطبعة ابن زيدون سنة ١٩٣٤.

١٥٢ – المِنَن والحكم لابن عطاء الله السكندرى: شرح ابن عياد «محمد بن إبراهيم بن عياد» طبعة مصر ١٣٢٠.

١٥٣ – الملامتية والصوفية وأهل الفتوة: تأليف المرحوم الدكتور أبو العلا عفيفى طبعة ١٣١٤ هـ – ١٩٤٥م. طبعة دار إحياء الكتب العربية. عيسى البابى الحلبى.

١٥٤ – المواهب السنية فى المآثر الشاذلية جمعة أحمد حامد عبدالكريم الأخميمى الشاذلى. طبعة مكتبة الجندى بالحسين ١٩٦٩.

١٥٥ – المنح الإلهية فى المآثر والأفكار القادرية جمعه طه أبو وردة. الطبعة الثانية. مطبعة كشك بالمنصورة ١٩٧٣م.

١٥٦ – نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ٢ للأستاذ الدكتور على سامى النشار طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٧.

١٥٧ – نصوص فلسفية عربية: اختارها وعلق عليها الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة. طبعة النهضة المصرية بالقاهرة.

١٥٨ – نشر المحاسن الغالية فى فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية لليافعى « أبى محمد عبد الله بن أسعد اليافى ت ٦٩٨ هـ تحقيق إبراهيم عطوة عوض. طبعة الحلبى ١٣٨١ هـ – ١٩٦١ م.

١٥٩ – النفحات الأحمدية والجواهر الصمدانية: لعبده حسن المشهدى. الطبعة الأولى. مطبعة التقدم العلمية بدرب الدليل بمصر ١٣٢١هـ.

١٦٠ – نور التحقيق فى صحة أعمال الطريق: إبراهيم محمد صقر الشاذلى. طبعة مطبعة دار التأليف بالمالية بمصر. طبعة ثانية ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م.

١٦١ – هذه هى الصوفية: لفضيلة الشيخ عبدالرحمن الوكيل. طبعة ثالثة. مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٥ هـ – ١٩٥٩ م.

١٦٢ – وفيات الأعيان: لابن خلكان « أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم » المطبعة الأميرية ١٢٧٥ هـ

المخطوطات العربية

١٦٣ - أصول الطريقة الشاذلية لسيدى أحمد زروق. مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٧٢٤ وكتاب رقم (٤٩٠ مجاميع) أيضًا.

١٦٤ - إنسان المقلتين بشرح حزب أبى العينين للشيخ محمد بن رضوان الأبيارى. بدار الكتب ١٥٠٣.

١٦٥ - تجليات الشاذلية بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٨٥ تصوف وأخلاق دينية.

١٦٦ - تأييد الحقيقة العلية لجلال الدين السيوطى بدار الكتب تحت رقم ٩٦٨ تصوف. مكتبة طلعت.

١٦٧ - تفضيل الطريقة الشاذلية على غيرها من الطرق. مخطوط لابن عقبة الميرغنى نسخة خطية بدار الكتب رقم ٣٣٨٣ تصوف.

١٦٨ - تعطير الأنفاس بمناقب سيدى أبى الحسن الشاذلى. مخطوط لأبى الصلاح الصفدى بدار الكتب تحت رقم ٣٨٨.

١٦٩ - شرح حزب الدسوقى للشيخ محمد البهى. مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٢٥٩٤.

١٧٠ - السلسبيل المعين فى الطرائق الأربعين تأليف الشيخ محمد بن على بن السنوسى الإدريسى. مخطوط بدار الكتب تحت فن تصوف وأخلاق دينية.

١٧١ - الطرق الصوفية للسيد محمد توفيق البكرى. مخطوط تحت رقم ٣٧٣٧ بدار الكتب.

١٧٢ - الكواكب الدريه فى تراجم السادة الصوفية للمناوى. مخطوط بدار الكتب تحت رقم ١١٨٤ تاريخ ورقم ٤٠١٥.

١٧٣ - النصيحة العلوية فى بيان حسن طريقة السادة الأحمدية. مخطوط بمكتبة الأزهر تحت رقم (١٥٤٠) ١٢٩٤٥. تأليف على الحلبى.

١٧٤ - مسرة العينين بشرح حزب أبى العينين مخطوط لحسن شمعه الفوى بدار الكتب تحت رقم ٢٥٣ تصوف وأخلاق دينية.

المجلات والجرائد والدوريات

١٧٥ – مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة – المجلد ٢٥ الجزء الثانى ديسمبر ١٩٦٣ طبعة الهيئة العامة للكتب والأجهزة العلمية– ظهر فى ١٩٦٨.

١٧٦ – مجلة الجديد عدد ١٨– أول يوليو سنة ١٩٧٦.

١٧٧ – مجلة علم النفس: أكتوبر ٤٩ عدد ٢ مجلد. مجلة علم النفس عدد فبراير ١٩٥٠.

١٧٨ – مجلة عالم الفكر. المجلد السادس. العدد الثانى يوليو/ أغسطس سبتمبر ١٩٧٥م.

١٧٩ – مجلة المسلم. عدد جمادى الآخرة ١٣٨٨هـ العدد ١١ السنة ١٨.

١٨٠ – مجلة المعرفة. عدد يونية ١٩٣١م.

١٨١ – مجلة منبر الإسلام. عدد شعبان ١٣٨٦هـ.

١٨٢ – دائرة المعارف الإسلامية. الطبعة العربية.

١٨٢ – دائرة معارف البستانى. الجزء الأول.

المراجـع الأجنبية

1. An account of the manners and customs of the modern Egyptions. by Edward Wiliam Lane «London 1871»
2. Mysticism: study in the nature and development of man's spiriture consciousness.
   by Evelyn Underhill «London 1949»
3. Studies in Islamic Mysticis.
   by Nicholson «Combridge 1921»
   ونقله الأستاذ الكبير المرحوم الدكتور أبو العلا عفيفى للغة العربية.
4. Mysticism and Philosophy
   by Tage Watter Trence. «Philadelphia,Lippincatt (1960)
5. Encyclopedia of Islam: Art El Badawi- Eldosooky-Karama.
6. Mysticism: A Study and anthology.
   by: J. C. Happold. «Penguin book » (1963).

فهرس الكتاب

الصفحة

مقدمة ... ٥

الفصل الأول : فى التصوف والطرق الصوفية ... ٧-١٥
الهجوم على التصوف والطرق الصوفية ... ٩
ابن تيمية ومهاجمته للتصوف ... ١١
التصوف وعلم النفس ... ١٥

الفصل الثانى: فى الطريقة ونظم الطريقة الصوفية وكيفية المتابعة عليها ... ١٨-٥٢
كلمة طريق وطريقة فى القرآن الكريم ... ١٨
الطريقة عند الصوفية ... ١٨
المنهج المتبع فى الانتساب إلى الطرق الصوفية بمصر ... ٢٠
مراتب الطريق ... ٢١
مراسم الطريق الصوفى ونظمه ... ٢٢
التنظيمات الإدارية للطرق الصوفية ... ٢٣

ملامح الطريق الصوفى ... ٢٤-٢٨
أولًا - الشيخ ... ٢٤
ثانيًا - المريد ... ٢٦
ثالثًا - العهد ... ٢٨

أهم خصائص ومميزات الطرق الصوفية ... ٢٩-٣٩
أولًا - لبس الخرقة ... ٢٩
ثانياً - الذكر ... ٣٣
سند الصوفية فى تلقين ذكر الله تعالى ... ٣٣
أنواع الذكر وأحكامه ... ٣٦
آداب الذكر ... ٣٦
ثالثًا - السماع ... ٤٠
رابعًا - الموالد ... ٤٧

الصفحة

الكرامة وأقسامها ٤٨
الكرامة بين مؤيديها ومنكريها ٤٩
عوامل انتشار الكرامات والتفسير النفسى لها ٥١

الفصل الثالث: نشاط الطرق الصوفية وآداب حضرتها ٥٣-٥٩

* أحزاب وأوراد الطرق الصوفية ٥٧
* شرعية الأحزاب والأوراد ٥٨
* دور الطرق الصوفية فى الغناء العربى ٥٩

الفصل الرابع: فى نشأة الطرق الصوفية وتاريخها مع إلقاء الضوء على مظاهر الاختلاف بينها ونبذة عن أهم رواد وأصحاب الطرق الصوفية فى القرن السادس الهجرى
٦٠-٨٧

مظاهر الاختلاف بين الطرق الصوفية ٦١
تاريخ التصوف والطرق الصوفية بمصر ٦٢
أولًا - أحمد الرفاعى صاحب الطريقة الرفاعية ٦٣
الرفاعى وتأثير الرفاعية فى التعابين والحيوانات ٦٦
أصول الطريقة الرفاعية وكيفية الانتساب والدخول فيها ٦٧
خلوة السبعة «المحرم» ٧٢
ثانيًا - عبد القادر الجيلانى صاحب الطريقة الجيلانية ٧٤
اتباعه السنة والشرع ٧٥
كيفية الانتساب إلى الطريقة القادرية ٧٧
دور صوفية المغرب والعراق فى حركة الطرق الصوفية فى مصر ٨٢
أبو مدين التلمسانى ٨٢
عبد السلام بن مشيش ٨٥
أبو الفتح الواسطى ٨٦

الفصل الخامس: القرن السابع الهجرى - قرن الطرق الصوفية فى مصر ٨٨-١٠١

* صورة لوجه مصر فى هذا القرن ٨٨
* الأهمية التاريخية للقرن السابع الهجرى فى مصر من الناحية العسكرية ٨٩
* ملامح الحياة الاجتماعية والاقتصاديه فى مصر فى القرن السابع الهجرى ٩١
* ملامح الحياه العلمية والثقافية والدينية فى مصر فى القرن السابع الهجرى ٩٣
* التصوف فى مصر فى القرن السابع الهجرى ٩٥

الصفحة

* قرن الطرق الصوفية ... ٩٨

الفصل السادس: السيد البدوى: صاحب الطريقة البدوية ... ١٠٢-١٢٣
حياته ... ١٠٢
كرامات سيدى أحمد البدوى ... ١٠٩
البدوى والتشيع ... ١١٢
البدوى.. ترابه وآثاره ... ١١٩
طنطا – ومولد سيدى أحمد البدوى ... ١١٩
الطريقة البدوية وكيفية المتابعة عليها ... ١٢٠

الإمام الشاذلى والطريقة الشاذلية ... ١٢٤ – ١٥٤
حياته ... ١٢٤
الشاذلى.. العالم ... ١٣٢
الشاذلى – ووحدة الوجود ... ١٣٦
الشاذلى.. والكرامات ... ١٣٨
* أصول وتعاليم الطريقة الشاذلية ... ١٤٠
* الشاذلى.. والسماع ... ١٤٤
* كيفية الانتساب إلى الطريقة الشاذلية ... ١٤٦
فروع الطريقة الشاذلية ... ١٤٦
ما أخذه ابن تيمية ومدرسته على الشاذلى ... ١٤٧
رأى الشاذلى فى الوسيله والشفاعة ... ١٤٩
الشاذلى... إنتاجه وترائه ... ١٥٣

سيدى إبراهيم الدسوقى صاحب الطريقة الدسوقية «البرهامية» ... ١٥٥-١٧١
نسبه.. وحياته ... ١٥٥
الدسوقى .. والتصوف ... ١٥٧
الدسوقى والكرامات ... ١٦١
مبنى الطريقة البرهامية ... ١٦٣
تراب الدسوقى ... ١٦٧

نهاية المطاف ... ١٧٢ -١٧٥
تتائج هذه الدراسة حول الطرق الصوفية فى مصر ... ١٧٢

الصفحة

ملحق الأحزاب ١٧٨–١٩٦

ورد الجلالة لسيدى عبد القادر الجيلانى ١٧٨

دعاء الجلالة ودعاء سورة الواقعة لسيدى عبد القادر الجيلانى ١٧٩

الحزب الصغير لسيدى أحمد الرفاعى ١٨٤

صلوات الرفاعى ١٨٦

الحزب الصغير لسيدى أحمد البدوى ١٨٧

الحزب الكبير لسيدى أحمد البدوى ١٨٧

حزب البر لسيدى الشاذلى ١٨٩

حزب البحر للشاذلى ١٩٣

الحزب الصغير لسيدى إبراهيم الدسوقى ١٩٤

الحزب الكبير لسيدى إبراهيم الدسوقى ١٩٥

ملحق الشعر ١٩٧–١٩٩

تائية البدوى ١٩٧

تائية الدسوقى ١٩٧

المراجع العربية ٢٠٠–٢١٢

المراجع الأجنبية ٢١٢

